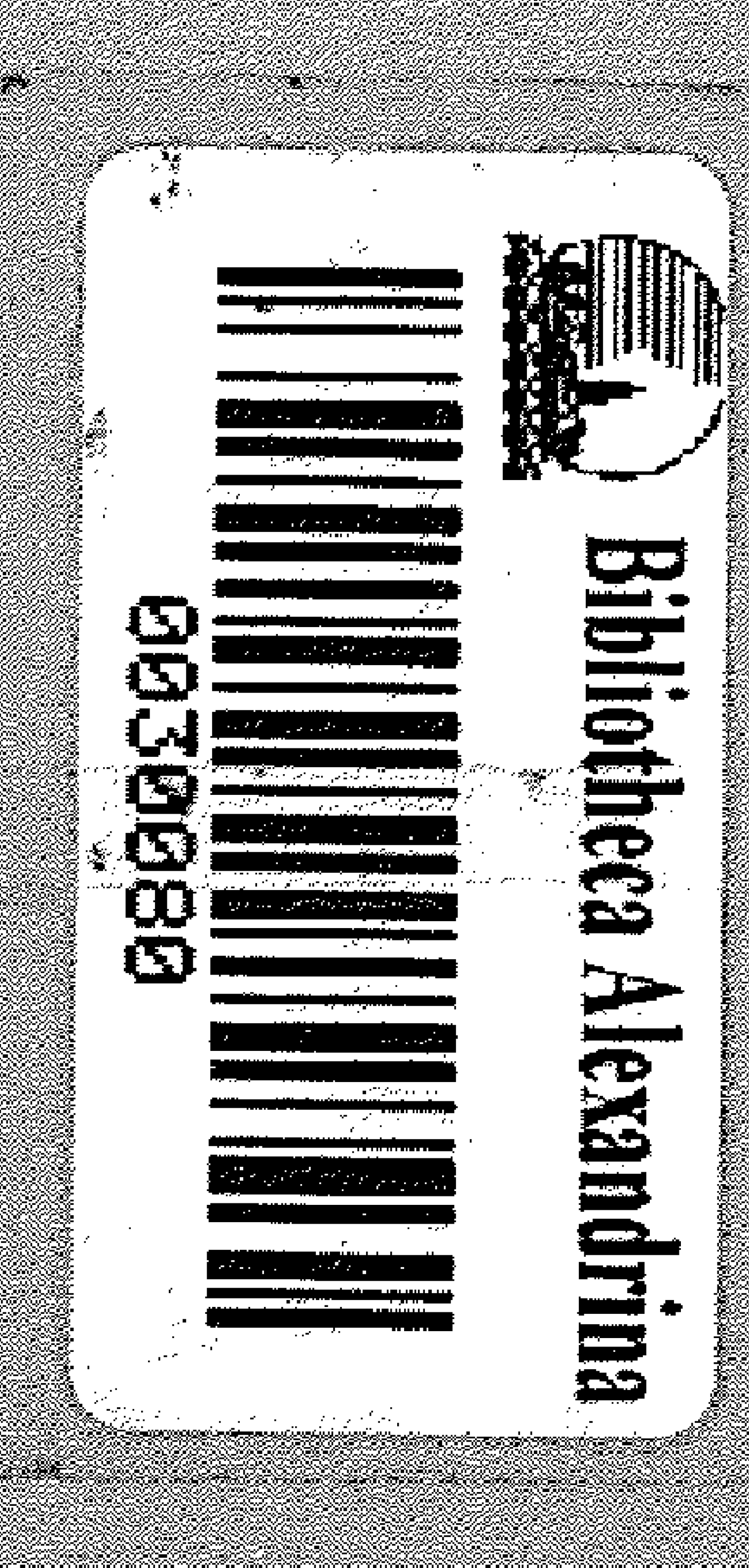
جهاد صالح

الطورانية التركية

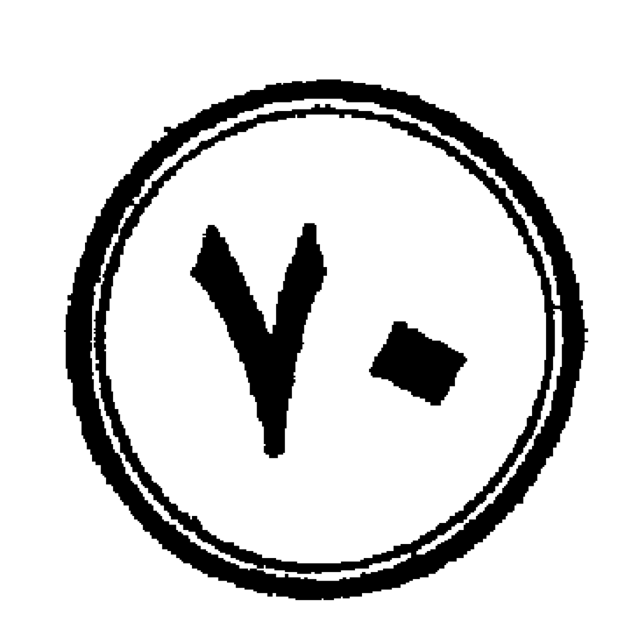
بين الأصولية والفاشية



الطورانيّة التركيّة

بين الأصوليّة والفاشيّة

جهاد صالح



الطورانيّة التركيّة

بين الأصولية والفاشية

الطبعة الاولى ١٩٨٧

دار الصداقة للطباعة والنشر
بيروت

المقدمة

الطورانية ، حركة عنصرية شوفينية فاشية ، كانت بمثابة نتاج طبيعي لسياسة السلاطين العثمانيين القائمة على تميز العنصر التركي ، في مجتمع متعدد القوميات ، فبدلا من سياسة التآخي القومي كشرط لاستمرار المجتمع وتطوره ، اتبع سلاطين الدولة العثمانية سياسة التعصب القومي النابعة من خاصية العنصر التركي التاريخية القائمة على العنف . تلك الخاصية التي لم ينتج عنها في ظل الدولة العثمانية سوى القمع ، والمجازر ، ضد الشعوب الاخرى ، ضمن سياسة الاستبداد القومي ، التي ميزت الدولة العثمانية منذ قيامها وحتى افولها .

وهذه الخاصية ، ظلت تلقي بثقلها على المجتمع التركي ، بعد قيام الجمهورية ، ووقفت سدا منيعا امام تطوره ، وتخلصه من تركة السلاطين الثقيلة . ذلك ان البورجوازية التركية قد ولدت وترعرت في ظل السياسة الطورانية العثمانية ، فجاءت استمرارا لتطور تاريخي طويل من التعصب القومي قائم على مبدأ الاخضاع و « التتريك » بالقوة .

وفي تتبعنا لمسيرة تطور « الطورانية » منذ المجتمع العثماني ، الى اليوم ، نجد انها بقيت متأصلة في اعماق البورجوازية الكبيرة في المجتمع التركي ... فالبنى الاجتماعية لا يمكن ان تكون معلقة في الهواء ، انما هي بالضرورة مرتبطة بالظروف الداخلية التي نشأت فيها ، وبالدوافع الدخلية والخارجية التي ساهمت في تبلورها ، بغض النظر عن المظاهر الشكلية التي تحاول ان تغلف نفسها بها .

فالطورانية ، كحركة عنصرية ، قد حملت معها -وما زالت - الويلات والآلام التي وقعت على الشعوب التي خضعت للاحتلال العثماني ، وللقوميات التي ما زالت تحت حكم النظام التركي . منذ ثورة « تركيا الفتاة » وحتى النظام الفاشي الحالي .

وفي هذا الكتاب ، نحاول ان نلقي الضوء على هذه الحركة العنصرية ، نشأتها وتطورها ، وانعكاستها على محيطها الاقليمي ، خاصة وانها اصبحت مرتبطة عضويا بأهداف السياسة الامبريالية الاميركية ، منذ انضمام تركيا الى

حلف شمال الاطلسي .

وهكذا نجد انفسنا ، امام حركة عنصرية قديمة حديثة ، شبيهة تماماً بالحركة الصهيونية ، انطلقت على قاعدة التعصب القومي للحفاظ على بقائها ، لكنها انتهت كتابعة ، تقوم بتنفيذ دور محدد في السياسة الامبريالية على الصعيد الاقليمي .

فمن اجل الحفاظ على قوة العنف ، تلجا الحركات العنصرية ، والقوى الفاشية الى احضان الامبريالية ، كرئة وحيدة لاستمرار وجودها على سطح الحياة . فلا تحمل إلى شعوبها ، والشعوب الاخرى ، سوى المزيد من القمع والارهاب ، والآلام .

لقد استخدمت الفئات الحاكمة التركية مختلف الأساليب والوسائل لتنفيذ سياستها الطورانية ، ففي حين استخدمت الدين ، وتفسير التعاليم الاسلامية على هواها في المرحلة العثمانية ، كوسيلة لفرض سياسة التتريك والاستبداد القومي على قاعدة تسييد العنصر التركي ، نجد ان البرجوازية التركية قد لجأت الى ضرب التيارات الدينية الاصولية ، والى قمع الطبقات التركية الاخرى في مرحلة التحديث والعلمانية . ثم عادت في مرحلة الحكم العسكري الفاشي الحالي ، لتستخدم الدين كوسيلة لتنفيذ دور اقليمي على حساب الشعوب والدول المجاورة ضمن سياسة السيطرة الامبريالية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية

وفي مختلف المراحل ، وعبر مختلف الوسائل ، ظلت « الطورانية » هي المحرك الرئيسي لسياسة التي اتبعتها انظمة الحكم التركية لابقاء سيطرتها على القوميات الاخرى ضمن الدولة التركية ، ولخلق الذرائع للتدخل في شؤون الدول المجاورة . الأمر الذي جعل من تركيا ، مثل جزيرة تحيط نفسها بالاعداء .

وفي هذه الدراسة ، نحاول ان نلقي الضوء ايضا على جوهر هذه السياسة الطورانية ، من خلال تتبع جذورها التاريخية ، وتطور الادوار التي لعبتها في مسيرة الشعوب التي طالتها ، لمعرفة الدور الذي من المقرر ان تلعبه على قاعدة تحقيق المصالح الامبريالية على الصعيد الاقليمي ، وتحديدا ضمن العالمين العربي والاسلامي ، انطلاقا من حقد البرجوازية التركية على الامة العربية التي ساهمت في تقويض الامبراطورية العثمانية ، وانطلاقا من استغلال عامل الدين

مرة اخرى كوسيلة لاختراق العالم الاسلامي والتاثير على توجهاته السياسية . خاصة بعد ان نجح نظام الحكم العسكري الفاشي في تركيا من الانضمام الى منظمة المؤتمر الاسلامي .

وخطورة هذا الدور الذي يحاول النظام التركي ان يلعبه . لا يكمن في قوة النظام نفسه (العاجز عن تنفيذه) بل في كونه قد اصبح اداة طيعة في يد الادارة الاميركية ، وجزءاً من استراتيجيتها في المنطقة في ثلاثة اتجاهات رئيسية : ـ

١ ـ العالمان ، العربي والاسلامي .
٢ ـ الاتحاد السوفياتي ، وبلغاريا .
٣ ـ شرقي البحر الأبيض المتوسط .

وهكذا نجد ان السياسة « الطورانية » القائمة على مبدا تمايز القومية التركية ، قد ادخلت المجتمع التركي برمته اداة في خدمة سياسة النهب والاستغلال الامبريالية . شانها في ذلك شان جميع الحركات العنصرية والفاشية ، وهذا بحد ذاته هو مصدر الخطر الذي يشكله نظام الجنرالات الفاشي في تركيا اليوم . بالاضافة الى مصدر الخطر الآخر الذي يشكله الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة . خاصة على صعيد الأمة العربية وتوجهاتها الوطنية والقومية التقدمية .

* * *

وحول دراستنا هذه . لابد من الاشارة الى عدة ملاحظات . من شانها توضيح بعض الافكار ، لوضعها في سياقها الصحيح .

أولا : نظرا لامتداد جذور « الطورانية » التركية التاريخي . وانعكاساتها على القوميات الاخرى ، وعبر مراحل تاريخية متعددة من تطور المجتمع التركي ، فقد راينا ان نأخذ كل مرحلة على حدة ، فيما يخص المجتمع التركي . وان نتناول انعكاسات السياسة « الطورانية » على كل قومية من القوميات التي وقعت على كاهلها أعباء هذه السياسة ، وعبر مختلف مراحلها .

ثانياً : ـ إن ما عاناه الشعب البلغاري من ظلم واضطهاد ديني وقومي وطبقي

على يد الاحتلال العثماني ، لا يختلف في جوهرة واشكاله عن معاناة شعوب البلقان الاخرى ، إلا ان تركيزنا على الجانب البلغاري (وخاصة ما يتعلق بالمسلمين في بلغاريا) ينبع من الاسباب الرئيسية التالية :

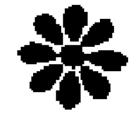
١ ـ موقع بلغاريا الأقرب الى تركيا .

٢ ـ كون بلغاريا دولة اشتراكية ، عضوا في منظمة حلف وارسو ، فان دور تركيا العضو في حلف شمال الاطلسي تجاه بلغاريا ياتي في سياق الصراع بين النظامين العالميين (الاشتراكية ، والراسمالية)

٣ ـ تاثير ما جرى في بلغاريا بعد استقلالها عن الدولة العثمانية ، ووقوعها فريسة المصالح الامبريالية على التيارات الفكرية القومية العربية . في ذلك الوقت .

٤ ـ وجود مشكلة سياسية بين تركيا وبلغاريا ، حول وضع المسلمين في بلغاريا ، وادعاءات تركية حول أصل هؤلاء المسلمين . (ونظرا لأهداف هذه الادعاءات السياسية ، فقد تناولنا هذا الموضع بالتفصيل في القسم الثالث من الكتاب) .

ثالثا : ـ آثرنا ان تكون غالبية المراجع من المصادر العربية ، للتأكيد على ان مسألة الأطماع التركية في الوطن العربي ، كانت وما زالت موضع اهتمام الرأي العام العربي ، عبر وسائل اعلامه المختلفة ، الأمر الذي يثير الاستهجان والتخوف كون النظام الفاشي الحالي قد تمكن من ان يمد مصالحه الى اكثر من بلد عربي ، بحجة انتمائه الى العالم الاسلامي ، على الرغم من كونه عضوا في حلف شمال الاطلسي الذي يعتبر الحامي الرئيسي للكيان الصهيوني ، عدو الأمة العربية ، والعالم الاسلامي .



القسم الأول

العثمانيون :
مقومات الدولة .. مقومات الأنهيار

أصل الأتراك ، وتطور حياتهم :

• نشأ الشعب التركي فوق سهول « سيبيريا » الشمالية الواسعة ، وفي البوادي القائمة بين بحر الخزر « قزوين » وجبال « التابي » من جماعة عرقية ولغوية لعلها كانت تنتظم في العصور الاولية ضمن « المغول » و« التنكت » ايضا وعندما دخل الاتراك في طور التاريخ ، بعد ان شرعوا في الاندفاع من سفوح « تيان شان » الى بوادي اسيا الوسطى ، كانت قد تمت لهم خصائص عرقية متميزة ، اصطلح علماء الاجناس البشرية لاحقا على تسميتها بالخصائص « الطورانية » . وفي القرن السادس للميلاد اصبح للاتراك دولتان قويتان ، امتدتا من منغوليا ، وتخوم الصين الشمالية حتى البحر الاسود . إلا أن اسرة « تانغ » المالكة في الصين قضت على هاتين الدولتين ، الشرقية والغربية في العامين (٥٥٢ ، ٦٣٠) الى ان تخلص اتراك الشمال من حكم هذه الاسرة ، واستعادوا استقلالهم عام ٧٤٥ [١]

• وكانت الحياة القومية تتجلى عند الاتراك ، اقوى ما يكون ، في الاعياد ، وما كان يرافقها من طردٍ ومن غزو وسلب . وكان من اهم واجبات الامير ان يهيء لها بسخاء ، اما حياتهم الدينية فكان يهيمن عليها « الشامان » ـ الكاهن

ولقد انتشر بين الاتراك ، ايمان بقوة القضاء والقدر المتجسدة في العالم والزمان ، والتي كان يعتقد ، بصورة شخصية خالصة ، انها تتضح بالحسد وبشهوة الانتقام من عظمة الانسان [٢]

ونتيجة لهذا الاعتقاد الديني ، فان الاتراك تميزوا عبر التاريخ باعمال الغزو والسلب وما كان يرافقها من اعمال قتل وتدمير في غاية الفظاعة

• وفي حوالي عام ٧٠٠ بدأ اعتناق القبائل التركية للاسلام ، عندما تمت ـ في عهد الامويين السيطرة على المراكز في الغرب ، ولقد قدمت هذه القبائل لاسواق الرقيق عددا لا حصر له من ابنائها [٣]

على ان الحضور الفعلي للاتراك « كمسلمين » تم في العصر العباسي الاسلامي ، وتحديدا عندما انشأ الخليفة « المعتصم حرسا له من الموالي »

الاتـراك مهـد السبيـل لسيطـرتهم على الخلافة طوال قرون تالية (٤) ، ومنذ ذلك الحين بدأ الاتراك يلعبون دوراً بارزاً في تقويض قوة الدولة الاسلامية من خلال انخـراطهم كجنـود مرتـزقـة عند الولاة والحكام المتخاصمين (نظراً لعجز هؤلاء المتخـاصمين عن تجميـع القبـائل العربية حولهم) . ومن خلال عملهم المعادي للدولة العربية الاسلامية مع بقية الموالي . (خاصة مع الفرس)

وعلى الرغم من الانتشار الواسع للاتراك في الدولة العربية الاسلامية ، نظرا لطبيعـة الـدور الـذي يقـومـون به ، ، إلا ان الجمهرة الاساسية للقبائل التركية (والتي انـدفـع القسم الاكبـر منهـا مع غزو المغـول ـ المـؤلف) كانت لا تزال تختصم ، حوالي منتصف القـرن الثـالث عشر ، على بقايا الخلافة الاسلامية ـ هذه الخـلافـة التي اقـامهـا العـرب ، وسعى لتقـويضـهـا الفرس ، وأجهز عليها المغول ـ حيث نشأت في الجزء الشمالي الغربي منها ـ تلك الدولة التي قدر لها ان تعمـر طويـلاً ، وان تنتهي إلى ان تتـولى قيـادة العـالم الاسـلامي نحـواً من خمسمائة عام (٥) .

« ففي النصف الثـاني من القـرن الثـالث عشـر انشأ عثمـان ، زعيم احـدى القبائل التركية المسلمة في اطراف الاناضول إمارة صغيرة ، لم تلبث ان اخذت تتسع وتمتد تدريجياً حتى اجتازت قواتها البحر الى اوروبا ، فاصطدمت بالصرب والبلغـار ، واستـولت على شبـه جزيـرة « غاليبـولي » وبـلاد اليونان وبلغت نهر الدانوب ، وظل السلاطين العثمانيون يواصلون فتوحاتهم حتى اصبح الاناضول كله تقريباً في ايديهم في مطلع القرن الخامس عشر .

وهكـذا تطـورت الامارات الصغيرة الى دولة كبيرة قوية مرهوبة سميت بالدولة العثمانية ، وفي سنة ١٤٥٣ سقطت « القسطنطينية » عاصمة البيزنطيين في يد السلطان « محمد الثاني » فاتخذها العثمانيون عاصمة لهم ، واطلقوا عليها أسم « إستانبول » (٦)

أمـا العـالم الاسـلامي ، فمـا ان حل عام ١٥١٧ حتى اصبح خاضعاً تقريباً للدولة العثمانية ، بعد أن هزمت شاه فارس عام ١٥١٤ ، والمماليك عام ١٥١٧ . وهمـا القوتان الاسلاميتان الرئيسيتان ، وبذلك اصبحت الدولة العثمانية هي القوة الاسلامية العظمى .

مقومات الدولة العثمانية :

مع اتساع رقعة الدولة العثمانية وتحولها الى « امبراطورية » كبيرة ، راى سلاطينها ، ضرورة تنظيم هذه الدولة ، وتقسيمها اداريا ، ووضع الاسس الكفيلة ببقائها متماسكة ، خاصة لانها اصبحت دولة متعددة القوميات والحضارات والديانات .

لذا فقد قسم السلاطين البلاد العثمانية الى عدة ولايات (بالنسبة للمدن الرئيسية الكبيرة) ، وقسمت هذه الولايات آيضاً الى سناجق يكثر عددها أو يقل حسب حجم الولاية (سواء بعدد السكان او المساحة) .

والسلطان هو الذي يعين الولاة والباشوات للولايات والسناجق من اتباعه الموالين له ، ومثلما ان السلطان هو صاحب الامر والنهي الذي لا يعارض ، كذلك فقد اطلق ايدي ولاته في ولاياتهم ، شريطة عدم الخروج عن سياسته وطاعته ، وتقديم الاموال لخزينة الدولة ، والجنود لجيوشها .

أما المقومات التي استندت اليها الاحكام والتشريعات العثمانية ، فجميعها كانت تنطلق من تكريس السيطرة المطلقة للدولة على مواطنيها من مختلف القوميات ، وانطلاقاً من سيادة العنصر التركي وتمايزه في الدولة .

أي ان العنصر التركي يحكم في الدولة العثمانية حكما عنصريا استبداديا ولا يستثن من ذلك سوى اولئك الذين تم تتريكهم ، واثبتوا ولاءهم المطلق ، وتمكنوا من أخذ مواقع مهمة في الدولة العثمانية .

لقد « ظل العثمانيون طوال اربعة قرون يحكمون باسلوب عسكري اوتوقراطي ، لا تشارك فيه الشعوب بأي قسط مهما كان ضئيلا ، فهي تؤمر وعليها الطاعة ، ويفرض السلطان أوممثل السلطان ارادته فيرضخ الناس مكرهين ، ومن هنا فقد المواطن القدرة علي الابتكار ، ولم يكن للانسان الموهوب عبر تلك القرون مجال لتنمية مواهبه ، او التعبير عنها في اي ميدان من ميادين النشاط الانساني ، وكان السلطان وحكام الولايات يتمتعون بسلطات مطلقة لا يحدها اي حد ، فيحكمون بالاعدام ويصادرون اموال الناس ويفرضون أي عقوبة يرونها حسب رغباتهم واهوائهم [٧] .

ومع ان الاسلام هودين علم ومعرفة (اطلبوا العلم ولوفي الصين) ، فان العثمانيين اداروا ظهرهم لاي نشاط علمي اوثقافي ، مؤسسين حضارتهم « المزيفة » على أساس حربي ، بدوافع عنصرية . لذا رأوا أن الطريقة الوحيدة لاخضاع القوميات الاخرى (الاكثر تحضراً ، وقوة انتاجية) .

هي الذبح والاضطهاد كشرط ضروري لاستمرار حياتهم ، لذا فقد عاش الاتراك حياة طفيلية ، لا يضيفون أي قيمة للتطور التاريخي ، بالاضافة الى انهم عاشوا كمستهلكين لما تنتجه الشعوب الاخرى . وكانوا يعتقدون انهم خلقوا للحرب فقط ، وطالما انهم محاربون شجعان ! ! فمن حقهم السيطرة على الشعوب الاخرى .

ونتيجة لهذه السياسة (التي انعكست على الشعوب الاخرى ضمن الدولة العثمانية) ساد الجهل والتخلف ، في حين كان العالم خارج الدولة العثمانية قد قطع اشواطاً بعيدة في التقدم الحضاري .

« ففي القرن الثامن عشر كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة ، بين دول اوروبا الكبرى التي لم يكن فيها جامعة او معاهد عليا لتدريس العلوم التطبيقية »(٨) .

ففي سنة ١٨٦٩ انشئت اول جامعة للدراسات العليا ، ولكنها ما لبثت ان اقفلت ابوابها بعد سنتين تحت تأثير عاصفة من الرجعية ، ولم تكتب الحياة الا لمدرسة الطب ومدرسة الحقوق ليس غير(٩) .

ولم تنشأ دار طباعة حكومية إلا في سنة ١٧٢٩ ، وقد استمرت هذه الدار حتى عام ١٧٥٦ ، ثم اغلقت ٢٨ عاماً عادت بعدها للعمل ولكنها لم تطبع سوى ٩٨ كتاباً(١٠) .

أما على صعيد الصحافة ، فان الاتراك ، وانسجاماً مع عقليتهم المتخلفة ، لم يصدروا أية صحيفة إلا في عام ١٨٣١ عندما تم انشاء اول صحيفة يومية « تقويم وقائع » اتبعت بصحف اخرى ذات نزعات ادبية مثل « ترجمان احوال عام ١٨٦٠ » و « تصوير افكار » عام ١٩٦٢ »(١١) .

وهذه الوقائع هي اوضح الادلة على تخلف الامبراطورية العثمانية وعدم مسايرتها للنهضة الاوروبية ، نتيجة لان عقلية الشعب التركي ، كانت ترفض

المؤثرات الحضارية على صعيد الفكر . مكرسة كل ابداعاتها في فن الحرب ، وسياسة السيطرة القومية ، وصهر القوميات الاخرى بالقومية التركية .

ان سياسة التتريك التي اتبعها العثمانيون ، قد عطلت دور القوميات المختلفة في مسيرة الحضارة ، فلا هي استمرت بحضارة الاسلام التي حمل العرب مشعلها ، ولا هي استجابت لحضارة الغرب التي كانت تدق ابوابها .

بل أن الاتراك شرعوا في جعل سياستهم الادارية الداخلية ، وتفسير التعاليم الاسلامية على طريقتهم الخاصة ، بحيث لا تخدم هذه او تلك هدف تطور البلاد ، بل تخدم هدف اخضاع القوميات الاخرى وتتريكها . وقد تمثل ذلك في السياسات التالية : ـ

١ ـ سياسة الاراضي العثمانية
٢ ـ سياسة الضرائب
٣ ـ سياسة تفسير التعاليم الاسلامية
٤ ـ سياسة « التتريك » العنصرية

سياسة الأراضي :

استنبط العثمانيون قوانين متعددة ومحكمة تجاه الاراضي الخاضعة لحكمهم ، ضمن سياستهم الرامية الى تخليص هذه الاراضي من اصحابها الشرعيين من ابناء القوميات الاخرى ، وتقديمها الى عملائهم الموثوقين من ابناء هذه القوميات . أو الى الاقطاعيين والقادة الاتراك ، اولجعل هذه الاراضي من أملاك الدولة ، لتنهبها او تبيعها لمن تشاء .

ولتحقيق هذه الغاية « السيطرة على الاراضي ضمن التشريعات القانونية » قسم العثمانيون الاراضي الخاضعة لدولتهم الى الانواع الرئيسية التالية[١٢] : ـ

١ ـ الاراضي الملك : وهي الاراضي التي يملكها اصحابها ، وتنقسم الى قسمين : ـ

● الاراضي العشرية : ـ وهي الاراضي التي كانت تمنح للفاتحين المسلمين . او تترك في يد من يعتنقون الاسلام من السكان ـ ويدفع اصحابها للدولة « ضريبة العشر » اي عشر مجموع محصول الغلة التي تنتجها هذه

الاراضي .

● الاراضي الخراجية : وهي الاراضي التي تركت في ايدي السكان من غير المسلمين . ويدفع اصحابها للدولة « ضريبة الخراج » اي «بمقاسمة الغلة - نصفيا - او يدفع اصحابها مبلغا « مقطوعا » كانت الدولة تفرضه فورا . عندما تصبح هذه الاراضي صالحة للزراعة - سواء زرعت اولم تزرع .

٢ - الاراضي الاميرية : وهي الاراضي التي تعطي الدولة حق التصرف بها لاشخاص تختارهم هي بنفسها - مع بقاء حق المراقبة من قبلها . وهذا يعني ان حقوق التصرف بهذه الاراضي قابلة للتحويل والانتقال بالارث . فاذا لم يكن هناك ورثة شرعيون (حسب قانون توارث الاراضي الاميرية) تعود ملكية هذه الاراضي الى الدولة . مرة اخرى .

٣ - الاراضي المحولة : وهي الاراضي التي ينتقل حق التصرف بها من شخص الى اخر (حسب قانون تحويل الاراضي) . اي عندما تنتهي حقوق المتصرف بالاراضي المعطاة له - سند تفويض - تصبح هذه الاراضي « محولة » ويحق للدولة عندئذٍ ان تفوضها الى شخص اخر .

ومن ناحية ثانية . يحق للدولة ان تبيع هذه الاراضي اذا اهملت دون زرع لمدة ثلاث سنوات متتابعة .

٤ - الاراضي الموات : - وهي الاراضي التي ليست تحت تصرف احد . اي البعيدة عن القرى (وعن اقصى العمران مسافة تزيد عن ٢ كم) . والخالية من تصرف اي احد «بالطابو» والتي لم تخصص في القديم لاهالي القرى .

وهذه الاراضي . هي حكما ملك للدولة .

٥ - الاراضي المتروكة : - وهي الاراضي المخصصة لاستعمال عموم الناس . مثل الطرق العامة . والمراعي . والاحراج . وساحات القرى والمدن ... الخ

٦ - الاراضي العمومية (املاك الدولة) وتنقسم هذه الاراضي الى قسمين -

● الاراضي الاميرية التي تصبح محولة

● الاراضي المدورة (الجفتلك) * وهي الاراضي التي كانت تخص السلاطين سابقا . واستولت عليها الحكومة العثمانية (بعد وفاتهم) كاملاك للدولة . وقد اطلقت تسمية « المدورة » او « المنتقلة » على هذه الاراضي (لانها

انتقلت من ملكيـة السلطـان الخاصة الى ملكية بيت المال بعد الثورة التركية عام ١٩٠٨) * .

* * *

بالنسبـة « للتشـريعـات » العثمـانيـة تجاه الاراضي الخاضعة لسيطرتها ، وتوزيع ملكيتها وحق التصرف بها ، يمكننا تسجيل الملاحظات التالية : ـ

أولاً : ـ تشجيع الضباط ، والعائلات ، العثمانية (من المسلمين) للانخراط في فتوحات الدولة العثمانية (للدول التي تعتنق شعوبها غير الاسلام ـ خاصة ابناء القـوميـات غيـر المستقرة مثل التركمان ، والشركس ، والتتار ، او ابناء القوميات الفقيـرة مثـل الاكـراد) طمعـاً في امتـلاك الاراضي الصـالحة للزراعة في تلك البلدان . التي كانت تقدمها الدولة للفاتحين المسلمين لتحقيق ثلاثة اهداف هي : ـ

١ ـ خلق حافز مادي ومعنوي لاندفاع جيوشها في الفتوحات نحو الغرب المسيحي .

٢ ـ كسب ولاء الضبـاط ، والعـائـلات المسلمـة من مختلف القـوميـات وتأكيد « اهداف » الدولة الاسلامية » .

٣ ـ توزيـع عائـلات المسلمين واسـرهم على مسـاحة واسعة . لتفكيك ترابطهم واضعاف مقاومتهم لسياسة التذويب القومي .

ثانيـاً : ـ محـو الصبغـة الاجتمـاعيـة » القومية » للبلدان المفتوحة ، عن طريق جعلها ، مناطق متعددة القوميات ، تمهيدا لتذويب هويتها القومية وتتريكها .

ثالثـا : ـ الضغـط على سكـان المنـاطق المفتـوحـة من » المسيحيين » وغيرهم لاعتنـاق الاسـلام ، ليتمكنـوا من الاحتفاظ باراضيهم ، كخطوة في غاية الاهمية نحو » تتريكهم »

رابعـاً : ـ ان غالبيـة » التشـريعات » كانت تعطي الدولة حق التصرف والامتلاك لهـذه الاراضي ، بحيث كانت الـدولـة تستخـدمهـا سلاحـا فعالا في كسب ولاء الـولاة العثمـانيين من اتـراك وغيـرهم ، فتقـدم مساحات شاسعة لهم ، شريطة الالتزام الكامل والمطلق في تنفيذ سياسة الدولة من مختلف النواحي ، كما كانت تستخـدمهـا مجـالا في تنـافس هؤلاء الـولاة واتباعهم في تنفيذ هذه السياسة

خاصـة فيمـا يتعلق بسيـاسـة التتريك « ضد القوميات الاخرى ، سواء قوميات البلدان « المفتوحة » ، او ابناء القوميات الذين استقروا حديثاً في هذه المناطق .

خامسـاً : اخضـاع الاراضي في الـدولـة العثمـانية الى انوا ع متعددة ، من الضرائب بهدف : ـ

● استمرار السيطرة على الاراضي ، وتخليصها ممن يمتلكون حق التصرف بها ، في اي وقت تشاء الدولة .

● تغطية الاعمال الحربية العثمانية ، والمحافظة على زخمها من اموال وجهد ابناء القوميات الاخرى .

وقد ظلت هذه الضرائب محوراً مركزياً في السياسة العثمانية ، على اختلاف مراحل تطورها ، كوسيلة لتنفيذ برنامجها الطوراني « التتريك » .

سياسة الضرائب :

استخدم العثمانيون سياسة محكمة « لا تهاون فيها » ازاء مسألة الضرائب ، ولهـذا فرضـوا على المـواطنين انـوا ع متعددة منها ، ولجأوا الى وسائل صارمة لجبايتها وتتلخص الضرائب التي فرضتها الدولة العثمانية ـ بالانوا ع التالية [١٢]

١ ـ ضريبة الخرا ج : ـ تؤخذ من السكان غير المسلمين ، كريع عقاري لصندوق الدولة (فيما يتعلق بالاراضي)

٢ ـ ضريبة العُشر : ـ وهي التي تؤخذ من المسلمين المالكين للاراضي ، وتقدر بعشر الغلة الاجمالية المنتجة من الارض ، مهما كانت نوعية الزراعة .

٣ ـ الزكاة : وتؤخذ على شكل نسبة مئوية مما يمتلك المسلمون من اموال .

٤ ـ ضريبـة الجـزيـة : المفـروضـة على كل انسـان يعيش ضمن حدود الدولة العثمانية ولا ينتمي للدين الاسلامي .

٥ ـ ضريبة المجهود الحربي : الخاصة بالامداد الحربي وملابس الجند .

٦ ـ مجمـوعـة من الـرسـوم المختلفة : مثل رسوم حماية الطرق من قطا ع الطرق واللصوص ، ورسم البيع ، والرسوم الخاصة بالمواشي . . . وغيرها .

وهـذه الضـرائب والـرسـوم قد اخضعتها الدولة لسياستها العامة ، وجعلتها

وسيلة رئيسيـة في تنفيـذ هذه السيـاسـة ، خاصـة فيمـا يتعلق بـ « التتريك » فجعلت قيمتها غير محددة ، بل يجري تقديرها حسب رغبة وتقدير جباة الضرائب من ناحية ، وحسب هدف الدولة من ناحية ثانية .

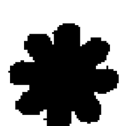
على سبيـل المثـال : اذا كان صاحب الارض غير مسلم، يجرري تقدير باهظ لمـا يجب ان يدفعـه كضـريبة لانتاجه ، في حين يجري تقدير منخفض للضريبة التي يجب ان يدفعهـا شخص « مسلم » آخـر لنفس حجم الانتـاج . وذلك بهدف أرغام « غير المسلم » إما على ترك أرضه ، او على اعتناق الاسلام .

وكمثـال آخـر على عدم تحديد قيمة الضرائب : ما كان يفرض على المسلمين انفسهم ، ولكن ضمن منـاطق استقـرارهم الاصليـة « القـوميـة » مثـل العـرب والاكـراد الرافضين لسياسة التتريك ، لحملهم على ترك اراضيهم وممتلكاتهم او رضـوخهم لمشيئة الدولة تجاه المسالة القومية (العنصرية) ، بحيث كانت هذه الضـرائب المفروضة تختلف من شخص لاخر حسب ولائه للدولة ، وسلاطينها ، وولاتهـا ، والامثلة في هذا المجـال كثيرة جداً ، لا مجال لتعدادها ، مما يؤكد انه الى جانب الهدف الاقتصادي من وراء هذه الضرائب ، فان الجانب الاكثر اهمية يكمن في اعتمـادهـا وسيلة اسـاسيـة لتحقيق سياسة « التتريك » العنصرية ، مستخـدمـة من اجـل ذلـك مختلف الـوسائل الكفيلة بتحقيقها ، « وكانت تجمع بواسطـة المتعهـدين « المقـاطعجيـة » الـذين يدفعون الاموال للدولة سلفاً ، ثم يجمعـونهـا من المواطنين بطريقتهم الخاصة ، وكان من حقهم استخدام القوات العسكـريـة لجمعهـا [١٤] ولتحـديـد متعهد جباية الضرائب ، كانت الدولة تطرح « المنطقـة المحـددة » على المـزاد ، بحيث يجري التنافس بين المتعهدين لمن يدفـع اكثـر للدولـة ، ولكن بالمقـابـل كان كلمـا ازدادت قيمة ما يدفعه المتعهد ، ازدادت ويـلاته عل المواطنين . الذين عليهم ان يخضعوا لجشع « المتعهدين » في تقـديـر قيمـة الضرائب المفروضة ، واساليبهم الوحشية في جمعها . خاصة وان اولئـك المتعهـدين كانـوا يدركـون انـه مهمـا بلغت اسـاليبهم قسـوة على المـواطنين ، فانهم حائـزون على رضا الدولة ، كونهم ينفذون سياستها العامة . ممـا فرض على المـواطنين إمـا ان يقبلوا بهـذا الـواقـع ويقوموا بدفع الضرائب المطلوبة ، او يرفضوه ويعدلوا عن زراعة اراضيهم .

لكن الـدولـة كانت قد احتـاطت للاحتمـال الثـاني ، بقانون « حق التصرف » بالاراضي ، ونقـل ملكيتهـا الى اشخـاص اخرين ، اذا لم يتم زراعتها مدة ثلاث سنوات متتابعة . الامر الذي فرض على الكثير من الفلاحين اقسى الاحتمالات ، فاضطـروا إمـا ان يعملوا في اراضيهم كمـزارعين تابعين للاقطـاعيين والـولاة ، الـذين يحـددون نوعيـة الـزراعـة ونسبة الربح ، او يبيعوا اراضيهم للاقطاعيين ويعملون عندهم كُمزارعين اجراء ، او ان يتركوا اراضيهم ويهجروا مناطقهم الى منـاطق اخـرى ، وخـاصـة الى المـدن الـرئيسية ليعملوا عمالاً اجراء لسد رمق عائلاتهم . وفي جميع الحالات فان النتيجة الحاسمة التي كانت تحققها الدولة ، تفكيـك الروابط الاجتماعية للمواطنين من ابناء القوميات المختلفة ، وفصلهم عن ارتباطهم بالارض ، « على اعتبار انّ هذا الارتباط ، من العوامل المكونة للقومية » .

ونـلاحـظ في هذا المجال ، ان سياسة الضرائب قد وقعت تبعاتها المأساوية على مواطني الدولة العثمانية ، بغض النظر عن انتمائهم الديني . فالى جانب انها كانت إحـدى الـوسـائـل لحمـل المواطنين من غير المسلمين على اعتناق الدين الاسلامي ، فقد كانت من جانب اخر تهدف الى جعل المسلمين من غير الاتراك ، ينصاعون لسياسة التتريك والتخلي عن قوميتهم الاصلية . ولم يستثن منها حتى الطبقات الفقيرة من القومية التركية نفسها . تنفيذاً لسياسة التمايز الطبقي التي انتهجها سلاطين الدولة العثمانية منذ ولادتها ولغاية اندثارها .

وهكـذا ، فان سيـاسة الضرائب ، من حيث دوافعها ، ووسائل تحقيقها كانت تعكس بشكـل واضـح تماماً ، سياسة الاضطهاد متعددة الجوانب ، التي شكلت جوهـر الحقبـة العثمـانيـة ، على اختـلاف مراحـل تطـورها ، والتي منها تكونت البرجوازية التركية فيما بعد ، وعلى أساسها رسمت خطواتها وانتماءها في المستقبل .



ايدولوجية الدولة ..
من الاسلام الى الطورانية :

بالاضافة الى كون العثمانيين هم مسلمون أصلاً ، الا انهم وجدوا منذ بداية تشكيل دولتهم في الدين الاسلامي مجالاً لتوسيع نفوذهم نحو البلاد الاسلامية ، واحتواء قبائلها وعشائرها واماراتها ، ووجدوا في هذا المجال ايضاً ، حافزاً لدى المسلمين من مختلف القوميات للامتداد نحو البلدان ، غير المسلمة « لاقامة الدولة الاسلامية العظيمة ، القادرة على مواجهة الامبراطوريات الصليبية الطامعة في الاراضي المقدسة ، خاصة وان ذكرى الحروب الصليبية كانت ماثلة في اذهان المسلمين على امتداد وجودهم .

لذا «استندت الدولة العثمانية في تنظيم حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على تعاليم الشريعة الاسلامية كأساس ايديولوجي للسلطة المركزية فيها ، ولكن الفئات الحاكمة في هذه الدولة ، بدءاً من السلطان العثماني وحتى اخر مسؤول في الباب العالي كانوا يفسرون هذه التعاليم بالطريقة التي يفهمونها ، ويريدون ان يفهمها غيرهم ، كي يحق له ان يساهم في تصريف شؤون الدولة .

وكان السلطان مسؤولا عن جميع الولايات والسناجق بكاملها ،وكان له وحده دون غيره حق التصرف بأراضيها وتوزيعها على اتباعه من الحكام والولاة المقربين منه ومن ذويه وانصاره ، وكان كل شيء يجري في جهاز الدولة والجيش وفق مشيئته التي لا تعارض ، لان الارض ملك لله وحده ، والدولة مسؤولة عن رعايتها وحمايتها بصفتها تمثل الله في الارض [١٥]

وعلى هذا الاساس ، كان الحكم العثماني من نوع الحكم المطلق ، أشبه ما يكون بحكم الطغاة وارادة السلطان فيه فوق كل ارادة ، ينقض ويثبت ما شاء من الاحكام وليس ثمة قيد ولا معارض .

ولم «يفقه الترك للحكم معنى الاشن الغارات على الاخرين، وتخريب مدنيتهم واخضاعهم بالسيف (وقد قام الاسلام على اساس العدل والمساواة والعلوم

واستيعاب الاداب الشرقية والغربية) وقضوا على مدنية الامم التي حكموها فما ابقوا اثراً ولا عيناً ومحو العلوم ـ حتى العلوم الاسلامية ـ فراحت السخافات والشعوذات تنتشر في دولتهم ، وصار العالم والتقي يعرفان في بلادهم بطول اللحية وكبر العمة [١٦] » .

وعلى الرغم من « ان العثمانيين عموماً كانوا شديدي التعلق بأهداب السنة ، إلا انهم كانوا الى جانب تقواهم متزمتين في تفسيرهم للاسلام .

والحق ان المركز المنيع الذي احتله ممثلو الاسلام الرسميون في المجتمع ـ اولئك الممثلون الذين كانوا مصفدين هم انفسهم باغلال التقليد ، لم يبق ايما مجال لضروب الاصلاح التي احتاجت اليها الدولة حاجة ماسة ، لقد فسروا الشريعة بروح ضيقة غير متسامحة ، روح لم تطق صبراً على اي تساؤل او اعتراض [١٧] » وعندما حاول العثمانيون تمييز وتسييد العنصر التركي على سواه من ابناء القوميات الاخرى ضمن الدولة العثمانية ، وجدوا انفسهم في تعارض شديد مع التعاليم الاسلامية الصحيحة ، التي تنص على المساواة القومية ضمن الوحدة الروحية الاسلامية القوية .

فسياسة التمييز القومي تؤدي الى عملية انشطار ديني على اساس قومي في حين ان التعاليم الاسلامية تدعو الى توحد قومي على اساس ديني وهذا الخلاف الجوهري في النظرتين الى الدين ، كاديولوجيا ، وكنظام دولة احدث منذ البداية صراعاً بين رجال الدين المؤمنين (وخاصة العرب منهم) ورجال الدين في السلطة (اتباع السلاطين) ، ونظراً لان قوة الدولة تقف الى جانب رجال الدين في السلطة ، استطاع هؤلاء تفسير بعض التعاليم الاسلامية حسب هواهم ، وبما يتناسب مع اهداف السلطة السياسية ، الداخلية والخارجية مما ادى الى تشويه صورة الاسلام عند الشعوب الاخرى (غير المسلمة) في تلك الحقبة الزمنية . وحتى يومنا هذا يسود في الغرب اعتقاد خاطيء ومقصود يلقي تبعة ما حل بالشرق في عهد العثمانيين على الاسلام ، مدعياً بان « الاسلام عقبة في سبيل الحضارة والارتقاء » .

لقد خرج السلاطين العثمانيون واتباعهم من قادة ورجال دين ، عن مبادىء الدين الاسلامي، حين فسروه بما يتناسب مع اهدافهم الخاصة ، واقاموا اسس

نظـامهم ، ووجهـوا سيـاسة الدولة الداخلية والخارجية على اساس هذا التفسير المشوه ، ويمكننا تلخيص هذا الخروج بالنواحي الرئيسية التالية :

١ ـ نظـام الحكم المطلق : فالحكم حسب التعـاليم الاسـلاميـة ، اسـاسـه العـدل ، والعـدل تقرره مبادىء الدين نفسه لا سلطة الحاكمين ، ومركزية الدولة الاسـلاميـة تتمـركـز حول تمسكهـا بالنصـوص الـدينيـة وتطبيقاتها في جميع المجـالات ، اي ان الحـاكم ليس مطلق اليدين الا في تطبيق هذه النصوص . اما نظام السلاطين في الدولة العثمانية ، فكان برمته يقوم على اساس مخالف تماماً لهـذا المبـدا .. بحيث حلت رغبـة السلطـات محل النصوص الدينية في كثير من الاحيان ، وهي التي كانت توجه النشاط في حياة الدولة .

٢ ـ التعصب الـديني : فالـدين الاسـلامي في جوهـره ، يدعو الى التسامح الـديني ويـدعـو الى التعـايش مع الاديان الاخرى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ..) ويفرض على الدولة الاسلامية مسـاواة غيـر المسلمين (الـذين يدفعون الجزية مقابل حماية الدولة الاسلامية لهم) بالمسلمين في جميع الحقوق والواجبات ، ويفرض اعطاءهم الحرية الدينية .

امـا ممـارسـات الـدولـة العثمـانية وسلاطينها في هذا المجال فقد كانت في مجملها في جانب مخالف تماماً لهذا الموقف الاسلامي .

٣ ـ اعتناق الدين الاسلامي : ان الدعوة الاسلامية تقوم على اساس الاقتناع بمبـادئهـا ، وليس عن طريق فرضهـا بالقـوة ، ولقـد تميـزت الفتـوحات العربية الاسـلاميـة للبلدان غير المسلمة ، بعدم فرض الدين الاسلامي على شعوب تلك البلدان . بل سمحت لهم بالاحتفاظ بديانتهم ـ مقابل الجزية ـ وهذا الامر كان له اثر كبير في اعتناق تلك الشعوب للاسلام .

امـا الفتـوحات العثمانية ، فقد تميزت بقيام الدولة ورجالاتها بارغام الكثير من ابناء الشعوب غير المسلمة ، على اعتناق الاسلام بمختلف الوسائل حتى العنيفة منها . وفرضت عليهم تغيير اسمائهم وتقاليدهم .. الخ . وحرمت الذين لم يعتنقوا الاسلام حرية العبادة ، وجعلتهم في ظروف معيشية صعبة .

٤ ـ سياسية التدمير والقتل اثناء الفتوحات : استناداً الى موقف الاسلام من

الاديـان الاخـرى القـائمة على اساس التسامح الديني ، فقد حرم الاسلام مبدأ استخدام العنف ضد المواطنين غير المحاربين ، تحت اي ذريعة . وحرم القيام بحـرق المـدن ، اوحتى اقتلاع الاشجار اثناء الحرب . الامر الذي رفع من منزلة المسلمين في مرحلة الفتـوحات العربية الاسلامية في نفوس الشعوب الاخرى ، في حين ان هذه المنـزلـة انهـارت وتطلخت في مرحلة الفتـوحـات العثمانية التي تميزت بالقتل والتدمير الهمجيين .

٥ ـ التمييز القومي : لقد نصت التعاليم الاسلامية على المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات بين المواطنين المسلمين . بغض النظر عن اصولهم القومية ، وجعلت التمسـك بهـذه التعـاليم هو أسـاس المفـاضلة الـوحيدة بين المواطنين المسلمين (لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى) .

اما العثمانيون ، وخروجاً على هذا المبدأ ، فقد جعلوا المفاضلة بين مواطني الـدولـة يقـوم على اسـاس الانتماء القومي ، وعلى اساس سيادة وتمايز العنصر التركي ، اما باقي القوميات المسلمة ، فيأتي الموقف منها حسب الحاجة الراهنة لها ، وحسب ولائها للدولة العثمانية .

اما الموقف من العرب . الذين قال النبي « محمد » (ص) عنهم في الحديث الشـريف « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » فقد امعن « رجال الدولة العمثانية بكل جهودهم في محاولاتهم المستمرة من اجل ، اذلالهم » .

٦ ـ ضريبـة الغلمـان(*) : وهي الضريبة التي اطلق عليها الثمانيون أحياناً « ضريبـة الـدم » والتي كانت تفـرض على الاسـر غيـر المسلمـة من البلدان المفتوحة ، بحيث تأخذ الدولة احد اقوى اطفال كل اسرة بشكل نهائي ، ثم يصار الى تتريكه واعـداده ليكون احد اشد المتحمسين للدولة العثمانية ، وعنصرها التـركي . بعـد ان ينسى أصوله بشكل نهائي ، ويصبح نتيجة التعبئة الحاقدة ، معادياً لكل القوميات الاخرى بما فيها قوميته الاساسية .

هذا النـوع من الاجـراء ، لم يعـرف به التـاريـخ الاسلامي قطعاً ، قبل الدولة العثمانية . والدين الاسلامي ، لا يدعو في جوهره الى رفضه فقط ، بل يدعو الى مقاتلته ، لانه يشكل خروجاً متصادماً مع التعاليم الاسلامية .

هذه التعـارضـات بين التفسيـرات الـدينية (السياسية) للدولة العثمانية ،

وبين جوهر التعاليم الاسلامية لم تقف عند هذا الحد ، بل تطورت لتأخذ اتجاهين متوازيين تماماً ، مع تطور وبروز العنصرية القومية التركية ، واتخاذها جانب المعاداة المكشوفة والدموية ضد القوميات الاخرى .

ومع مجيء حكم ثورة « تركيا الفتاة » وتنظيمها العنصري « الاتحاد والترقي » وصلت سياسة التمييز القومي التركية الى درجة الفاشية الدموية في سياستها الداخلية والخارجية ، ونظراً لكون التعاليم الاسلامية ترفض جملة وتفصيلاً هذه السياسة فقد شرع الاتحاديون ، يحاربون هذه التعاليم ، ويشككون في صحتها وأصولها بما يتناسب وسياستهم العنصرية .

لذا وبعد ان «لاقت جمعية ـ ترك اوجاغي ـ نجاحا باهرا في بث الفكرة القومية في الترك ، فلم يمض على انشائها بضعة اشهر حتى انخرط في سلكها مئات الاولوف من شباب الآستانة وتراقية والاناضول والقوقاس وتركستان ، واتخذها الاتحاديون سلاحا ومعولا في يدهم لهدم الاسلام ، وعهدوا الى المعممين من اعضائها بمهمة القاء الخطب والمحاضرات الدينية في الجوامع والمدارس . وكان من اشهر الكتب التي اصدروها ووزعت منها ملايين النسخ على نفقة المشيخة الاسلامية ووزارتي الاوقاف والداخلية(*) . كتاب « قوم جديد » (وهو خلاصة الخطب التي القاها عبيد الله في جامع أيا صوفيا) وكتاب « تاريخ المستقبل » لجلال نوري بك . وكتاب « وصوك ـ كتاب » ومجلة « اجتهاد » الشهيرة .. وغيرها »(١٨) .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نورد بعض الاستشهادات التي وردت في هذه الكتب ، والتي تهدف اساسا الى هدم الاسلام عن طريق نسف مبادئه الصحيحة من نفوس المسلمين في الدولة العثمانية .

فمثلا :

« حول رأيهم برؤساء واشراف الامم الخرى قال عبيد الله في خطبة القاها في جامع ايا صوفيا في شهر رمضان المبارك ، ونشرت في كتاب « قوم جديد » صفحة ٩٠ ما نصه .

« ... ان اوروبا وكل العالم المتمدن يعرفون حكومة الترك المستقلة بانها حكومة شعب شجاع غيور . وان خيل الجيش التركي التي نزلت في تقديسها اية

(والعـاديـات ضبحا) ! هي اعظم شرفـاً واحتـرامـاً باضعـاف مضـاعفـة ممن تقدسونهم من اشراف الامم الاخرى ورؤسائها » .

أما حول رأيهم في الخلفاء الراشدين : فورد في صفحة ٨٩ ما نصه :

« ... ما هذا الجهل وما هذه الغفلة التي استولت عليكم ؟ تعلقون اسماء خلفاء العـرب على جدران جوامعكم « اي اسمـاء ابي بكـر ، وعمـر ، وعثمـان ، وعلي (رضي الله عنهم) » ولا تذكـرون بالاحترام اسماً من اسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الاحـاديث النبـويـة الكثيرة ، واذا ذكر في الخطبة اسم الخليفة التركي ينـزل الخطيب درجـة من درجـات المنبـر تنـزيلاً لما قاله وتذليلا له . ثم تزيدون ركعتين يوم الجمعة باسم « آخر ظهر » فكل هذا مبتدع ومحدث للحط من شأنكم السياسي » .

وحـول اركان الاسلام عند الاتحاديين : ورد في كتابهم القومي الشهير « قوم ترك » في محاولة لهدم الاسلام من اركانه ، في صفحة ٥١ ، ٥٢ ما نصه :

« ... ان النشيء الجـديـد ـ الشبيبـة التـركيـة التي تتألف من الاتحـاديين واعضـاء جمعيـة « ترك اوجـاغي » وعشرات الالوف من غلاة الترك ـ لا ينكر من احكـام الـدين الصـوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة ، بل يتمسك بها ، ولكنه لا يعدها من اركان الدين التي استخرجها النشيء الجديد من احكام القرآن والاحـاديث وهـذه هي : اولاً ـ العقـل ، وثانياً ـ كلمة الشهادة ، وثالثاً ـ الاخلاق الحسنـة ، ورابعـاً ـ الجهاد والحرب مالاً وبدناً ، وخامساً ـ السعي لاعداد لوازم الحرب بالاتحاد والاتفاق تحت راية الخلافة العثمانية المعظمة » .

وحول المساجد ـ ورد في صفحة ١٥ ما نصه :

« ... الاولى بنـا ان نعطـل المسـاجد والتكايا الموجودة في مركز الخلافة ، ما عدا المساجد التي بناها السلاطين ، وان تخصص نفقاتها للوازم العسكرية »

وحـول راي الاتحـاديين في المسلمين (عمـوماً) خطب الشيخ عبيد الله في جامع ايا صوفيا في اوائل شهر رمضان ، ما ورد في كتاب « قوم ترك » صفحة ٢٦ ما نصه :

« ... ان من لا يشتـرك من رعـايـا الدولة الاسلامية العثمانية الثابتة خلافتها بالنص القـاطـع !! من العـرب او التتار او الالبان او ابناء مكة واليمن ، والحاصل

جميع الاقوام المختلفة . اذا لم يشتركوا مالاً وبدنا ونقدا بالجهاد الذي هو اعظم العبادات في صفوف حضرات عبد الرحيم وجمال ورضا وشكري وبكر وجاويد ورؤوف وانور وعزت وطلعت (وهم قادة الاتحاديين ، وغلاة العنصريين الفاشيين ـ المؤلف) وامثالهم من ابناء الترك الذين هم أولياء الله ، صلى الله تعالى عليهم وعلى آلهم واصحابهم وقدس الله اسرارهم ، يكونون في صفوف المرتدين عن الدين »(١٩) .

وهكذا نجد ان الاتحاديين ، امعاناً في سياستهم العنصرية ، وانطلاقا من الميراث الذي ورثوه عن اجدادهم « الطورانيين » وملهمي حقدهم العنصري من سلاطينهم السابقين ، قد جعلوا دولتهم ميداناً لسفك الدماء . وقد حاولوا توظيف الدين الاسلامي ليكون وسيلتهم في تحقيق ذلك ، اي جعل التعاليم الدينية الاسلامية مطية اهدافهم السياسية .

لكن ثورة العرب الكبرى ضد الدولة العثمانية ، وتأييد الغالبية العظمى من المسلمين لها ، قد كشفت ابعاد السياسة الاتحادية ، ووضعت حدا لها .

ويبدو ان مسألة استخدام الدين كوسيلة لتحقيق الاهداف السياسية البعيدة عن مصالح المسلمين ، ما زالت تجري في عروق العنصريين الاتراك حتى يومنا هذا ، لتمرير وتحقيق المصالح الامبريالية في العالم الاسلامي والعربي . (وهذا ما سنتناوله في فصل لاحق من هذا الكتاب) .

سياسة « التتريك » العنصرية :

لقد أدرك العثمانيون منذ بداية تشكيل دولتهم ، وفرض سيطرتهم على القوميات غير التركية داخل الاناضول وخارجه ، ان تعدد القوميات في دولتهم سيؤدي في النهاية الى تدميرها . وبدلا من ان يتبعوا الحل الأمثل لهذه المشكلة ، والذي ينبع من سياسه التاخي القومي ضمن الدولة الواحدة . انتهجوا سياسة التمييز القومي ، انسجاما مع طبيعتهم الرجعية المتخلفة ، وخوفاً من انصهار العنصر التركي في القوميات الاكثر مدنية وتحضرا ، فوضعوا القوانين ، وسنوا الاحكام والتشريعات التي تحقق سيطرة العنصر التركي ، وتميزه في المجتمع العثماني واتبعوا سياسة « التتريك » القومية ، الرامية الى

ارغـام المـواطنين من القوميات المتعددة على الانتماء الى القومية التركية ، بعد ان يتم سلخهم عن قوميتهم الاصليـة ، مستخـدمين من اجـل تحقيق هذه الغاية مختلف الوسائل الممكنة ، والتي يمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ سيـاسـة الاغـراء : اي تقـديم الامتيـازات والهبات الكبيرة ، من اراضٍ ومـواقـع في السلطـة لاولئـك الذين يتخلون عن اصولهم القومية ، وينتمون الى القومية التركية .

٢ ـ سيـاسـة التفرقة بين القوميات : وإثارة النعرات القومية والدينية والقبلية وتشجيعها ، بهدف اضعاف هذه القوميات لتظل بحاجة الى الدولة ضد القوميات الاخرى ، ولتظل الدولة قادرة على السيطرة بقوة على هذه القوميات .

٣ ـ سياسة الضغط وخلق الظروف الملائمة للتتريك : اي وضع المواطنين من القـوميـات الاخـرى في ظروف معيشيـة قاسيـة ، يصبحـون ازاءهـا امام احد خيارين : اما الهجرة خارج حدود الدولة العثمانية ، واما الخضوع لمشيئة الدولة وسياستها التتريكية .

ومن ابرز هذه الاجراءات ـ سياسة حق التصرف بالاراضي ، والضرائب .. وغيرها .

٤ ـ ضريبـة الـدم « الغلمـان » وضـريبة الجزية ، ومصادرة الاراضي ، من القوميات غير المسلمة ، لارغامها على اعتناق الاسلام ، كخطوة اولى لتتريكها .

٥ ـ سياسة العنف المكشوف ضد العناصر الرافضة لسياسة التتريك بغض النظر عن معتقدها الديني .

ولقـد جلبت هذه السيـاسـة الكثيـر من المـآسي على شعـوب الامبـراطورية العثمـانيـة ، لمـا رافقهـا من وحشيـة لا مثيـل لهـا من اجل تحقيقها ، حيث كان السـلاطين والـولاة يعمـدون الى المجـازر الفظيعـة لارهـاب القوميات المختلفة للانصياع لمشيئتهم ، والانسلاخ عن قوميتهم . بالاضافة الى منع تلك القوميات من التعلم بلغاتها الاصلية ، والاحتفال باعيادها الخاصة ، واحياء تراثها القومي .

وضمن سياسة التفرقة القومية والدينية التي اتبعها السلاطين العثمانيون من اجـل تحقيق غايتهم العنصـريـة ، نظـروا الى القـوميات الاخرى على اعتبارها

تتكون من ثلاثة انواع رئيسية هي :

١ ـ القومية العربية « المسلمة » حيث وجدوا فيها اخطر القوميات ، على اعتبار انها تمثل الخلافة التاريخية للمسلمين ، والاكثر حضارة وتقدما وعددا في القوميات المسلمة ، وهي التي حملت لواء الاسلام ومشعله الى العالم .

٢ ـ القوميات « المسلمة » غير العربية : حيث عملوا على استمالة هذه القوميات ، نظرا لتنافسها التاريخي مع العرب ، وشعورها بالدونية ازاءهم ، مثلهم في ذلك مثل الاتراك انفسه . خاصة وان معظم هذه القوميات كانت في اوضاع معيشية صعبة من فقر وجهل وتخلف . لذا شكلت هذه القوميات دائما القوة الضاربة العثمانية في حروبها المختلفة .

٣ ـ القوميات غير المسلمة (المسيحية) : حيث ، اعتبر الاتراك ان وجود هذه القوميات انما يتمثل فقط في خدمة الدولة العثمانية دون حقوق . وعملوا على الاستفادة الى ابعد الحدود من هذه القوميات ، خاصة في المجالات التالية :

- مصادرة اراضيهم ، وتحويل اصحاب هذه الاراضي الى مزارعين اجراء عند الاقطاعيين والولاة الاتراك .
- تشغيل اصحاب المهن الحرفية في المدن التركية ، لرفع مستوى الصناعة ، والتجارة في الدولة العثمانية .
- ضريبة الجزية المفروضة على هؤلاء والتي كانت تشكل دخلا أساسيا لخزينة الدولة .
- اخذ الاطفال من آسرهم لاعدادهم ، كجنود في الفرق الانكشارية ، واخذ النساء كسبايا يخدمن في القصور وبيوت مسؤولي الدولة الاتراك .

لقد اتبع العثمانيون في تنفيذ سياستهم « التتريكية » ضد هذه القوميات طرقاً ووسائل تختلف من قومية الى اخرى . فقد توجهوا اولا للعمل ضمن القوميات الاسلامية غير العربية ، نظرا لتقارب تلك القوميات مع الاتراك من حيث نظرتها الى الخلافة الاسلامية العربية ، التي سادت قرونا طويلة ، ونظرا لقلة عددها ، اذا ما قورنت بعدد العرب . بالاضافة الى طبيعة حياتها العشائرية المتناحرة ، وعدم توحد وتجذر الشعور القومي ، وحياة ابنائها المعيشية الصعبة ، حيث كانوا يجدون في قوة الدولة العثمانية تحسينا لظروفهم المعيشية ، ولقد انصاعت بعض قبائل هذه القوميات في البداية للاغراءات

والـوعـود العثمـانيـة ، امـا القبـائل التي رفضت ، فكان نصيبها القتل والتدمير والتهجير لاخضاعها بالقوة .

امـا القـوميـات غيـر المسلمة ، فقد استخدم العثمانيون ضدها ابشع انواع التنكيل ، خاصة وان تعبئة الجنود كانت تتم على اساس ان هذه القوميات هي من اعـداء الـدين الاسلامي ، مذكرة اياها بالحروب الصليبية ، اي ان اخضاع هذه القوميات هو واجب ديني مقدس .

ومن اجل تتريك ابناء هذه القوميات راى العثمانيون ان يتم ذلك على مرحلتين :

الاولى : ارغامهم على اعتناق الاسلام .

الثـانيـة : سلخهم عن اصـولهم القـوميـة ، وارغـامهم على الانصهار ضمن القومية « العثمانية » .

وقد استخدم العثمانيون في المرحلتين اقسى انواع العنف لتنفيذ سياستهم « التتريكية » تجاه هذه القوميات ، خاصة في المرحلة الاولى ، على اعتبار : ان مجرد استعداد بعض ابناء هذه القوميات لتغيير معتقدهم الديني ، انما يؤكد على استعـدادهم للتخلي عن قوميتهم ، وقـد تجلى هذا المـوقف في منطقة البلقان ، «وليس من شك في ان الـوضـع الاجتماعي الممتاز الذي تمتع به العثمانيون في البلقـان قد اغـرى كثيـرا من رعـايـاهم ايضـا باعتناق الاسلام ، فعل الكثرة من الالبانيين، وفعل طبقة النبلاء البشناق برمتها ، هذه الطبقة التي تمكنت بفضل ذلـك من الاحتفـاظ بسلطـانهـا القديم على ممتلكاتها ، ولكن هؤلاء المسلمين لم يذوبـوا في البـوتقـة التركية شأن سكان آسيا الصغرى ، فقد احتفظ الالبانيون والبشنـاق ، كمـا احتفـظ البلغار الذين اعتنقوا الاسلام ، والبوماق (وتطلق على المسلم البلغاري اللسان) وأهل جزيرة « اقريطش » بلغاتهم القومية »(٢٠)

امـا المـرحلة الثـانيـة ، فكـانت تتميز بمنع ابناء هذه القوميات من التخاطب بلغاتهم الخاصة ، واستبدالها باللغة التركية ، بالاضافة الى منع اي نشاط يتعلق بارتباطهم بقوميتهم .

اما فيما يتعلق بسياسة التتريك ضد العرب ، فكانت من اصعب المهمات أمام السلاطين العثمانيين ، للاسباب التالية .

١ ـ تميـز العرب ، في الدين الاسلامي ، فهم حملة رايته ، وناشروا تعاليمه .

ونزل القرآن بلغتهم ، كما ان النبي والخلفاء الراشدين ، وجميع الصحابة منهم .

٢ ـ تمايزهم الحضاري عن الاتراك .

٣ ـ تفوقهم العددي على الاتراك ، وسائر القوميات في الدولة العثمانية .

٤ ـ تخوف الاتراك ، من ان يتأثروا بالعرب (نظراً للاسباب السابقة) بدلاً من ان يؤثروا فيهم .

٥ ـ ان مقاتلة العرب ، تحتاج الى فتوى دينية ، يجمع عليها مشايخ الدولة .

لذا فقد اتبع العثمانيون ، سياسة « تتريكية » طويلة المدى مع العرب تتركز اساساً على دفعَهم للاخلاص للمجتمع والدولة العثمانيين . أي تكريس الواجب الديني على حساب الشعور القومي .

وهكذا فان سياسة « التتريك » العثمانية ، والتي كانت تقوم على أساس الاعتقاد بان حل مشكلة تعدد القوميات في الدولة ، يمكن له ان يتم على اساس سلخ هذه القوميات عن جذورها ومقوماتها ، وارغامها بالعنف على الانصهار في القومية العثمانية التركية . قد تحولت الى تناحر قومي أدى الى تفسخ الدولة والمجتمع ، على عكس ما اراده السلاطين العثمانيون .

الاتحاديون الطورانيون والنهاية الحتمية :

في عام ١٩٠٨ قام الاتراك بانقلاب على سياسة السلطان « عبد الحميد » واعلنوا عن وضع أول دستور للبلاد ، وتولت جمعية « تركيا الفتاة » مقاليد الحكم ، رافعة شعارات كبيرة (حرية ، عدالة ، مساواة) ، وواعدة انها لن تفرق في الحقوق والواجبات بين السكان على اساس الدين والجنس ، كما انها « انشأت منظمة سرية اطلقت عليها اسم ـ الاتحاد والترقي ـ وكان هدفها اولاً القضاء على استبداد السلطان عبد الحميد ، وتطبيق مبادىء الثورة الفرنسية المترجمة الى الشعارات التركية « حرية ، عدالة ، مساواة » وقد اكرهت السلطان على منح الدستور دون ان تخلعه ، ولكن بعد حين خلعته ، وتولت الحكم النيابي ، ولكنها لم تلبث بعد قليل ان اخذت تطغى وستبتد « طورانياً » استبداداً عنيفاً

مضطرداً (٢١) .

ومنذ بداية تشكيل الجمعية انقسمت آراء زعمائها الى ثلاثة اتجاهات أسياسية :

الاول : اتجـاه يسعى الى « التتـريـك » تحت العلم العثمـاني ـ وهـذه هي السياسية الطورانية .

الثاني : اتجاه يرى أن الانفكاك أمر ضروري ـ وخاصة فيما يتعلق بالعرب ـ لان اصطبـاغهم بالجنسيـة التـركيـة ليس بالامر السهل ، وفي بقائهم ضرر على الشعب التركي الاقل عدداً .

الثالث : اتجاه يؤيدالالتفاف حول العصبية العثمانية وعدم الضرب على اوتار العصبيـة القـوميـة لان هذا يحرك اشجان النفوس في الشعوب الاخرى ، فينهار صرح الامبراطورية (٢٢) .

وكما نلاحظ فان الشوفينية كانت موجودة ، وقوية عند الاتجاهات الثلاثة ، لكن الاختلاف الوحيد فيما بينها هو في تعاطيها مع الظروف الموضوعية التي تمر بها الامبـراطورية . لكن البنية الشوفينية في بناء الدولة العثمانية وفلسفة سلاطينها القـائمـة منـذ البـداية على تفوق العنصر التركي ، وضرورة هيمنته على الاقوام الاخرى قد جعل دعاة « الطورانية » ينتصرون على الاتجاهين الآخرين .

وقد ساهم عاملان على جانب كبير من الاهمية في انتصار هذا الاتجاه : فمن ناحيـة ـ ونتيجة لسياسة الاضطهاد القومي التركية ـ برزت بقوة اتجاهات قومية مختلفة تطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية وتتحدى سلطتها .

امـا العـامـل الثاني الذي لا يقل اهمية ، فهو نشوب حرب البلقان (١٩١٢ ـ ١٩١٣) والتي اسفـرت عن خسارة معظم الاراضي التركية في اوروبا ، فارادت تركيـا ان تستفيـد من هذه النتيجـة باحكـام قبضتهـا على الاراضي الخـاضعة لسيطرتها في الشرق .

ومع سيطرة السياسة الطورانية على الدولة « بدأت الصحف التركية بالاشادة بامجـاد الطـورانيين ، واخـذت تنمي عنـد التـرك عصبية تركية ترمي الى صبغ الامبـراطـوريـة العثمانية بصبغة تركية ، واعتقد معظم اعضاء جمعية « الاتحاد والتـرقي » ان سيـاسة التتريك ستصهر بقية عناصر الامبراطورية العثمانية في بوتقة واحدة » (٢٣) .

ومن أجل تنفيذ سياستهم ، انشأ الاتحاديون جمعية عظيمة سموها « ترك اوجاغي » - اي طائفة الترك او العائلة التركية - وجعلوا غايتها محو الاسلام وتتريك العناصر العثمانية ومركزها في الاستانة ، وهي منتشرة في كل بلدة ، وقرية في الاناضول والقوقاس وتركستان وتراقية ومكدونية ، ولها اربعة فروع لكل منها مهمة خاصة به ، وهذه الفروع هي :

١ - « ترك يوردي » - اي المملكة التركية - ومهمته العناية بالآداب التركية بطرق شتى اهمها «تطهير» اللغة التركية من الكلمات العربية ، وجعلها لغة مغولية صرفة وتاليف الكتب القومية بهذه اللغة وتعليمها في المدارس ونشرها في البلاد التركية وكتابتها بحروف منفصلة لكي لا يبقى بينها وبين اللغة العربية أقل شبه .

ووظيفة اعضاء جمعية « ترك يوردي » مقاومة كل كاتب تركي او غير تركي لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم ، ونشر الكتب القومية والاناشيد الحماسية بين الترك ، وتدريسهم التاريخ الطوراني القديم وافهامهم ان الترك اعظم امة في العالم اختارتها الاقدار لسيادة الامم .

٢ - « ترك درنكي » - اي ثبات الترك - ومهمته بث الفكرة القومية في الترك العثمانيين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الامم . واعضاء هذا الفرع من غلاة الاتحاديين واشدهم كرهاً للعناصر غير التركية ، ورغبة في تتريكها والقضاء على الفكرة القومية فيها ، وهم على جانب عظيم من الهمة والنشاط ، ولكن الغرور اعمى ابصارهم واسدل ستاراً من الجهل على عقولهم فكانت ثمرة نشاطهم شراً على الدولة ووبالاً .

٣ - « ترك بلكيسي » - اي العلم التركي - ومهمة اعضائه ترجمة الكتب العلمية الى اللغة التركية القديمة ونشر هذه اللغة بين الترك وبث الفكرة القومية في تركستان والقوقاس وربطهما بدولة الاتحاديين برباط سياسي متين .

٤ - « ترك كوجي » - أي القوة التركية - ومهمته العناية بصحة الترك وتقوية اجسادهم ونشر الالعاب الرياضية بينهم(٢٤) .

وقد ترافق ذلك مع حملة واسعة النطاق لتعبئة الاتراك ، وخاصة الشباب منهم في خدمة هذه السياسة ، فمثلاً « كان تلامذة المدارس الحربية يجتمعون كل يوم في ساحات مدارسهم ويستلون سيوفهم ، وينشدون نشيدهم الوطني الذي

يقول :

« .. لقد تموجت اعلام جنكيز خان في سماء المجد والشرف ، وارشدتنا اعلام ايت خان الى نهج هذا الطريق المجيد في الحرب » .

والاغرب من هذا كله ، الدعاء الجديد الذي الفته جميعة « ترك يوردي » وجعلت الترك يرددونه في منازلهم ومدارسهم ، وقد قررت اخيرا تداوله في الجوامع في الآستانة والاناضول ، وهذه ترجمته :

« ... ايها الأله القادر على كل شيء ، انعم على الترك بالصحة والعافية ، واحسن اليهم بذئب ابيض(*) ، واشملهم برعاية مولانا السلطان الاعظم .

وانت يا ملكة طوران الجميلة المحبوبة ، ارشدينا الى الطريق المودية اليك لان جدنا « اوغوز الكبير » ينادينا .

أيها الاله القادر على كل شيء ، انر طريق طوران امامنا واجعل امتنا كالورد النضير واهدنا الصراط المستقيم »(٢٥) .

ومن الملفت للنظر ، ان الاتحاديين قاموا بحملة واسعة النطاق لتحويل اسماء الاتراك ـ وخاصة الاتحاديين ـ من الاسماء العربية الى الاسماء التركية القديمة التي كان جدودهم يحملونها ، مثل جنكيز ، وهولاكو ، وتيمور .. الخ . وقد جرت هذه الحملة في الوقت نفسه الذي كانوا يفرضون فيه بالقوة على الذين اعتنقوا الاسلام من القوميات الاخرى ، ان يحولوا اسماءهم القومية الى الاسماء الاسلامية (العربية) .

هكذا فان الطورانية هي حركة شوفينية عنصرية فاشية ، قامت بهدف بناء مجتمع جديد على اساس التفوق العنصري ، والعصبية القومية للاتراك ، ونظرا لان العنصر التركي نفسه متخلف حضاريا عن غالبية القوميات التي تعيش فوق الاراضي العثمانية ، فلا بد لهذه الحركة من ممارسة العنف والتدمير لتحقيق غاياتها ، ومن هنا مصدر فاشيتها ، ودافع ارتكابها للمجازر الدموية ضد القوميات الاخرى .

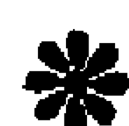
لقد عثر ضباط العرب سنة ١٩١٢ في منطقة « بولاير » على كتاب (رسالة) من احد زعماء الاتحاديين الى قائد اتحادي كبير جاء فيه :

« ... عرضوا العرب لرصاص العدو ، واعملوا على التخلص منهم لان قتلهم

يفيدنا ، اما الكرد فاحتفظوا بهم لانهم يلزمون لنا في بلاد الارمن » .

وقد نشرت هذه الرسالة في حينه في جميع الصحف العربية[٢٦] .

وتحقيقا لهذه السياسة فقد ارتكب الاتحاديون ابشع المجازر وافظعها ، ضد الارمن والاكراد والعرب . الا ان نشوب الحرب العالمية الاولى خلق ظروفا جديدة عصفت بالدولة العثمانية ، ودمرت احلام الاتحاديين . حتى كادت تنهي تركيا نفسها من الوجود ، لولا صراع المصالح بين الدول الامبريالية الكبرى (بريطانيا ، فرنسا ، الولايات المتحدة الاميركية) .



الهوامش

(١) بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية - اصدار دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الثامنة ١٩٧٩ (الطبعة الاولى صدرت عام ١٩٤٨) ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي . ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٢٦١

(٤) لاندو روم . الاسلام والعرب - اصدار دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧ ترجمة - منير البعلبكي - ص ٩٠

* الموالي : هم المسلمون من غير العرب

(٥) بروكلمان كارل : مصدر سابق ص ٤٠١

(٦) موسى سليمان : الحركة العربية - المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة . اصدار دار النهار للنشر - بيروت (الطبعة الثانية) ١٩٧٧ . ص ٢٧ - ٢٨ .

(٧) المصدر نفسه : ص ١٣ - ١٤

(٨) المصدر نفسه : ص ١٥

(٩) بروكلمان كارل : مصدر سابق ص ٦٠٨

(١٠) موسى سليمان : مصدر سابق ص ١٥

(١١) بروكلمان كارل : مصدر سابق ص ٦٠٧

(١٢) انظر بهذا الشأن :

١ - النحال د . محمد سلامة : سياسة الانتداب البريطاني حول اراضي فلسطين العربية منشورات فلسطين المحتلة - الطبعة الثانية ١٩٨١ ص ٤٤ - ٤٨ .

٢ - حمادة سعيد . النظام الاقتصادي حول اراضي فلسطين العربية - اصدار بيروت ١٩٣٩ ص ٦٠٩ .

٣ - محمد عوض د . عبد العزيز : الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي (١٨٧٠ - ١٠١٤) - دراسة - مجلة شؤون فلسطينية - العدد ٣٦ - اصدار مركز الابحاث الفلسطيني بيروت .

* جفتلك : ماخوذة من كلمات تركية معناها « مزدوج » وهي الاراضي التي تزرع بواسطة زوج فدن « جفت » .
(النحال د . محمد سلامة ـ مصدر سابق) .

* لقد لعبت مسالة الاراضي المدوّرة دورا هاما في فلسطين ـ وخاصة ـ عند صدور ما يسمى بالمشروع الاصفر ـ وهو ما سياتي ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(١٣) اللمع حسن سعيد : لمحات من تاريخ بلغاريا ـ اصدار دار الثقافة ـ دمشق ١٩٨١ (الطبعة الاولى) ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(١٤) المصدر نفسه : ص ١٧٢ .

(١٥) المصدر نفسه : ص ١٦٦ .

(١٦) عضو جمعية عربية سرية : ثورة العرب الكبرى ١٩١٦ ـ اصدار منشورات الرائد العربي بحماة (سوريا) ١٩١٦ ـ وقد طبع هذا الكتاب للمرة الاولى في مصر (في ٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ م و١٣ صفر سنة ١٣٣٥ هـ) . ص ٢٢ ـ ٢٣ .

* على الارجح ان مؤلف هذا الكتاب هو المفكر العربي ، واحد رواد النهضة العربية . « اسعد داغر » حسب راي بعض اساتذة قسم التاريخ في جامعة دمشق . وارجح ذلك في مقارنة شخصيته في الاسلوب واللغة مع الكتب المنشورة لاسعد داغر ـ

(١٧) لاندو روم : مصدر سابق ص ١٠٨ .

* ضريبة الغلمان : على الرغم من ان هذه الضريبة كانت معروفة في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١) فالحق انها لم تنتظم تنظيماً محكماً الا في عهد السلطان سليم الاول . وكانت ضريبة الغلمان (ديو شيرمه ـ بالتركية) تجمع كل خمس سنوات . (ثم تقاصرت المدة في ما بعد حتى صارت تجمع اخر الامر ، مرة كل سنة) في جميع البلدان البلقانية واليونانية . وفي المجر فيما بعد . وكان الاختيار يقع في باديء الامر ، على غلام واحد من كل خمسة غلمان ، ثم صارت الدولة تنتزع فيما بعد ، جميع الغلمان السليمي البنية ممن تتروح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة .

الا ان الدولة بدات تهمل ضريبة الغلمان شيئا بعد شيء ، حتى اذا ما اذن القرن السابع عشر بالانتهاء اقلعت عن ذلك بالكلية .

ـ بروكلمان كارل : مصدر سابق ص ٤٦٥ .

• لاحظ هنا .. عن العلاقة بين المشيخة الاسلامية ووزارة الاوقاف (التي تعني بالشؤون الدينية) ووزارة الداخلية (التي من المفترض انها تعني بالشؤون الامنية) ـ ملاحظة المؤلف .

(١٨) ثورة العرب الكبرى : مصدر سابق ـ ص ٦٨

(١٩) المهتم بمزيد من التفاصيل ـ باللغتين التركية والعربية ، حخول هذا الموضوع ، يمكن مراجعة ، الاتحاديون والاسلام ، من كتاب ، ثورة العرب الكبرى ، مصدر سابق الصفحات من ٦٨ ـ ٧٤ .

(٢٠) بروكلمان كارل : مصادر سابق ـ ص ٤٨٨ .

(٢١) داغر اسعد : الثورة العربية ـ مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها ـ مصر ـ مطبعة المقطم ١٩١٦ ص ٥١ ـ ٥٢

(٢٢) الاعظمي احمد عزت : القضية العربية ـ الجزء الاول ـ اصدار بغداد ١٩٣١ ص ٩٣

(٢٣) طربين احمد : الوحدة العربية في تاريخ الشرق المعاصر (١٨٠٠ ـ ١٩٥٨) دمشق ١٩٧٠ ص ١٦٤ .

(٢٤) ثورة العرب الكبرى : مصدر سابق ص ٦٤ ـ ٦٥

• الذئب الابيض ، او الاغبر ، او الرمادي : هو إله من آلهة الترك الاقدمين وكان شعاراً للاتحاديين ، ومن المعروف ان عصابات حزب ، الحركة القومية ، الفاشي التي نشرت الرعب في تركيا ، ضد القوى التقدمية واليسارية حتى اليوم ، تتخذ من الذئب الرمادي شعاراً لها ، وهو تاكيد على استمرار هذه السياسة العنصرية الفاشية ـ المؤلف .

(٢٥) المصدر السابق : ص ٦٥ ـ ٦٦

(٢٦) المصدر نفسه : ص ٦٨

القسم الثاني

العرب تحت نير الاحتلال العثماني

العرب تحت نير الاحتلال

حمـل العـرب راية الاسلام وانطلقوا بها من الجزيرة العربية ، الى جميع بقاع الأرض التي وصلتهـا فتـوحـاتهم العسكـرية ، تاركين بصماتهم وآثارهم العميقة حتى نهـايـة الحكم العربي الاسلامي . فمن ناحية حملوا الحضارة العربية التي كانت متميـزة في ذلـك الـوقت الى الشعـوب المتخلفة ، ومن ناحية ثانية ، حملوا تعاليم الاسلام التي تنص على العدل والمساواة والاخاء بين الناس الى الشعوب المتحضـرة ـ مثـل الـرومان والفرس واليونان التي كانت تتميز مجتمعاتها بالظلم والاستبـداد الذي تمارسه الفئـات الحاكمة ضد رعاياها . الامر الذي ساهم في تحقيق اعتناق شبه شامل للاسلام من قبل تلك الشعوب .

ومهمـا تكن قنـاعـة تلك الشعـوب بجـوهر التعاليم الاسلامية ، إلا أن الدافع الأساسي لاعتناقها الاسـلام كان بفعل الطرائق والاساليب التي كان يتبعها الولاة العـرب المسلمـون ، وقـادة الجيـوش الفـاتحة ، والمعاملة الحسنة القائمة على اسـاس العـدل ، وعلى عدم اكـراه تلك الاقوام على اعتناق الاسلام ، بل ومعاملة الـذين لم يعتنقـوا الاسـلام معـاملة حسنـة والتشـدد بعدم الاعتداء عليهم ، والمحـافظـة على حقـوقهم وامـلاكهم ، بالاضـافة الى غياب النزوع الى التدمير والقتـل عنـد العـرب المسلمين في فتوحاتهم المختلفة ، خاصة ضد السكان غير المحـاربين ، كل ذلـك كان له اثـره الحـاسم في عمليـة اعتنـاق شعـوب البلدان المفتوحة للاسلام .

وعنـدمـا استقـرت الـدولـة العـربيـة الاسـلامية ، وبدأت عملية بناء أجهزة ومـؤسسات تلك الدولة ، برزت المشكلة القومية الى حيز الوجود . إلا أن التعاليم الاسلامية الصارمة في هذا المجال لجمت هذه المشكلة ، ومنعتها من انفجار قد يهـدم بنـاء الـدولـة العـربيـة الاسلامية ... فقد نصت التعاليم الاسلامية على ان « لافـرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقـوى » أي ان المفـاضلة بين الناس تتم على اسـاس التقيـد بالـدين الاسـلامي ، روحـاً وممـارسـة ، وليس على اساس الانتماء القومي ، وبذلك ضمنت الدولة جميع حقوق القوميات والأفراد ، استناداً الى تمسكهم بالاسلام ،ومنعت حدوث التناحرات القومية ، وهكذا « حمل العرب

والشعوب التي دانت بالاسلام مشعل الحضارة العالية خلال خمسة قرون ونيف ، بعد انهيار الحضارتين اليونانية والرومانية ، وكان العنصر العربي هو العنصر الحاكم في الاقطار الاسلامية خلال فترة تتراوح بين قرنين وثلاثة قرون ... وظل العرب يتمتعون باعتبار اجتماعي كبير ومنزلة خاصة في الاقطار الاسلامية ، كما ان اللغة العربية ، لغة القرآن كانت هي اللغة السائدة التي تبلورت فيها الحضارة العربية ـ الاسلامية »[1] .

إلا أن هذه الحضارة الزاهرة الزاخرة بالعلم والفن والبناء ، والقائمة على اساس العدل والاخاء بين أقوامها المختلفة ، قد انهارت مع نهاية العصر العربي الاسلامي وكان سقوط بغداد على ايدي المغول عام ١٢٥٨ وما تلاهم من اقوام غير عربية (على الرغم من كونها اسلامية) هو النهاية الفعلية للحضارة الاسلامية . وانهيار صيغة التعاضد القومي لتحل محلها مرحلة التراجع الحضاري ، والصراع القومي ضمن العالم الاسلامي .... فلقد تركت غزوات المغول على الدولة العربية بصماتها التي تميزت بالنهب والقتل والتدمير ، الا انها كانت فترة قصيرة . على ان الانهيار الحضاري الفعلي الذي لحق بالدولة العربية ، وأزال معالم حضارتها ومدنيتها ، واغرقها في ظلمات الجهل والتخلف والفقر ، بدأ عندما هزم السلطان العثماني « سليم » المماليك في حلب عام ١٥١٦ ، ثم تابع زحفه وهزمهم في مصر عام ١٥١٧ ، واصبحت الدولة العربية المشرقية كلها تحت الاحتلال العثماني ، ومن ثم تابع السلطان « سليمان القانوني » ما بدأه سلفه ، فاستولى في عام ١٥٥٦ على شمال افريقيا (باستثناء مراكش) » وكان من نتائج ذلك ان اخذت معالم الحضارة تتلاشى ، وحل الفقر محل الرخاء ، والجهل محل العلم ، والتخلف محل الرقي ، وهبط مستوى السكان الاصليين (العرب) حتى اصبح يماثل مستوى الغزاة البرابرة الأميين »[2]

نظرة الاتراك الى العرب

لقد ادرك الاتراك العثمانيون منذ البداية ، أن مسألة السيطرة التركية على العرب ، لم تكن سهلة ، لسببين اساسيين :

الاول : ان العـرب اكثـر حضـارة من الاتـراك ، وعـددهم اكثـر من الاتـراك الأصليين ، لذا فان عامل التأثير هو في صف الجانب العربي . وقابلية التأثر هي في صف الجانب التركي .

الثـاني : أن العـرب هم الـذين حملوا لواء الدعوة الاسلامية ، فالنبي محمد (ص) منهم ولغـة القـران هي العربية (والقرآن لا يترجم) وعلى ايديهم اعتنق الأتـراك انفسهم الاسلام ، وتاريخ حكمهم تميز بالعدالة وغياب التفرقة القومية ، ممـا اكسبهم احتـرام الاقـوام الاسـلاميـة غيـر العربية ، وحتى الاتراك من غير الفئات الحاكمة .

وقـد استخـدم الاتـراك العثمـانيون مختلف الوسائل والاساليب للتغلب على هاتين المعضلتين ، فمن ناحيـة استخـدمـوا سياسة التجهيل بالقوة والارهاب ، وتفكيـك أواصر العائلات والأسر العربية ، وتدمير الروابط القومية ، ومنع واحراق الكتب التي تتحـدث عن التـاريخ العربي الاسلامي ، ووضع التنظيمات الادارية فيمـا يتعلق بالاراضي والجنـدية ، لتركيز هذه الاراضي بيد الباشوات والملاكين المـوالين تمـامـاً للسلطـة العثمانية مثلاً « أصدرت الدولة العثمانية سنة ١٨٥٦ تنظيمـات اداريـة كان من نتيجتهـا ان اضطرار الفلاحون والملاكون الصغار الى تسجيل اراضيهم باسم الملاكين الكبار هرباً من الضرائب والجندية ، والفلاحون الـذين عجـزوا عن تسـديـد الضـرائب ولم يجـدوا حيلة ، استـولت الـدولة على اراضيهم وعـرضتهـا في المـزاد سنـة ١٨٦٩ من اجل استيفاء ديون الضرائب المترتبة عليهم »[٣] .

ومن ناحيـة اخـرى ، استفاد الأتراك من النصوص الاسلامية الخاصة بعدم التفـرقـة القـوميـة في الاسـلام ، لضرب مكانة العرب ، ورفع مكانة الاتراك على اعتبـار انهم الحكام المسلمون ، ومن اجل تحقيق هذه الغاية استخدموا مختلف وسائل الاضطهاد والارهاب لارغام العرب على القبول بهذا الواقع ، وعدم التمرد عليه ، واطلقوا ايدي الولاة الاتراك في المناطق العربية على سجيتها لتنفيذ هذه السياسة ، الأمر الذي جعل تنفيذ هذه المهمة يخضع لعاملين لا يقل قسوة وآلاماً احـدهمـا عن الآخـر ،وكان علي العرب ان يتحملوا نتائج السياسة العامة للدولة العثمـانيـة القـائمـة عل مبـدأ الاضطهـاد القومي ، وفي هذا المجال فان العرب

تحملوا اكثـر من غيـرهم من القوميات في ظل النير العثماني نتيجة تخوف الأتراك الـدائم من ان ينتـاب العـرب شعـور العزة القومية ، والامجاد الدينية الاسلامية التي كانوا حاملي مشعلها ،

وبـالتـالي فان هاجس العثمانيين الدائم كان تخوفهم من ثورة العرب وتمردهم على السلطان العثماني .

أما الولاة الاتراك في المناطق العربية « فكانوا يتصرفون بولاياتهم كأنما هي ممـالـك خاصـة بهم ، وليس بصفتهم يأتمـرون بأمرِ السلطان ووزرائه ، فكانوا يجنـون الضـرائب على طريق المـزايـدة ، أمـا الوظائف فقد اخذت تعطى لذوي النفوذ لا لأصحاب الكفايات ، بل اخذ الموظفون يشترون الوظائف ثم يستغلونها لكسب الامـوال بجميـع الاسـاليب المشروعة ، وغير المشروعة ، وزاد الطين بلة كثـرة تبـديـل الـولاة حتى ان اكثـر من (٨٠) ثمانين والياً عينوا في دمشق خلال القـرن السـابع عشر ، وكثيراً ما امتنع الوالي عن تنفيذ تعليمات الحكومة ،فكانت تلجأ الى والٍ آخـر وتـدفعه للزحف ضد الوالي المتمرد واخضاعه او قطع رأسه ، وعندما تعجز عن تأديبه كانت تعود لاسترضـائه »[٤] .

وهكـذا نجد ان العرب قد تعرضوا إلى اضطهاد مزدوج : اضطهاد قومي نابع من السيـاسـة العـامـة للدولة العثمانية ، واضطهاد طبقي مرير على ايدي الولاة واتباعهم من الموظفين والأسر العربية الغنية المتعاونة مع العثمانيين .

أمـا نظـرة العـرب الى الاتـراك العثمانيين فقد كانت مختلفة تماماً في البداية « فكـانوا يبتهجون كلما بلغتهم انتصارات العثمانيين ضد الاقطار المسيحية في اوروبـا ، وخـاصة عند سقوط القسطنطينية بأيديهم ، وكان العرب يرون ان دولة اسـلاميـة قويـة قد حلت محـل دولة اسلامية اخرى . وقد استمرت هذه الرابطة الـدينيـة تشـد ولاء العرب للعثمانيين طوال اربعة قرون ، اذ ظل العرب يعتبرون الـدولـة العثمانية الدولة الاسلامية الكبرى التي تحمي ديار المسلمين من عدوان الدول غير المسلمة »[٥] .

وفي الواقع فان هذه النظرة عند العرب لم تكن بدافع الرغبة او الاقتناع ، بقدر ما هي تسليم بالأمر الواقع رسخته أربعة اسباب رئيسية : ـ

الأول : قوة الـدولـة العثمـانيـة ، وضخامة جيوشها ، بحيث كانت قادرة على

ضرب أي تمرد ، أو ثورة في المناطق الخاضعة لسيطرتها .

الثاني : التعاليم الدينية التي تحرم اقتتال المسلمين فيما بينهم .

الثالث : اطماع الدول الأوروبية المسيحية بالاراضي العربية ، خاصة أن ذكريات وآثار الحروب الصليبية كانت مازالت ماثلة في الأذهان .

الرابع : عدم تبلور الفكر القومي العربي ، الذي ظل حتى نهاية القرن التاسع عشر مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالفكر الديني .

●●●

إلا أن هذه النظرة قد اختلفت تماماً عندما بدأت الدولة العثمانية تضعف ، وعندما بدأت سياسة الاضطهاد القومي من قبل الولاة الاتراك تزداد شراسة وقسوة ، وعندما بدا واضحاً ان الاتراك يريدون تذويب الشخصية العربية تحت شعار الاسلام ، وتحويل العرب الى اتراك قلباً وقالباً عن طريق اجتثاث جذورهم الحضارية ، وتجهيلهم ، ووضعهم في ظروف انسانية قاسية لاخضاعهم بشكل نهائي ، وتشتيت اسرهم الغنية ذات الفعالية والتأثير ، وضرب ، وإعدام الموهوبين منهم . وقد انعكس هذا الاختلاف في الشعور العربي في الاستقبال الشعبي ، والتأييد العربي الواسع لحركة محمد علي باشا في مصر . « ففي عام ١٨٠٥ تسلم محمد علي مقاليد الحكم في مصر ، وبعد ان عزز سلطته فيها ، حاول تأسيس امبراطورية جبارة في الشرق الأوسط ، وخلال ربع القرن التالي احتلت القوات المصرية غالبية بلدان العالم العربي (بلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية ، والسودان) وفي أواخر عشرينات القرن التاسع شرع محمد علي(الذي كان من الناحية الشكلية والياً عثمانياً) يستعد لاحتلال فلسطين وسورية ، وبالتالي للحرب ضد الامبراطورية العثمانية ، وتأسيس دولة عربية مستقلة كبرى، وطوال ١٨٣١ ـ ١٨٣٢ الحق الجيش المصري بقيادة « ابراهيم باشا » ابن محمد علي هزائم ماحقة بالقوات العثمانية فازاحها من فلسطين وسورية ودخل الأناضول ، ونتيجة لتدخل الدول الكبرى ، وخاصة بريطانيا تم في ٤ أيار ١٨٣٣ توقيع معاهدة الصلح بين تركيا ومصر .. واعترف السلطان

العثمـاني بحقـوق محمد علي في مصر وشبة الجزيرة العربية والسودان ، وعينه واليـاً على فلسطين وسـوريـة وقيليقيـا التابعة للامبراطورية العثمانية ، واضطر محمد علي بدوره إلى ان يعترف شكلياً بالسيادة العلياللسلطان العثماني»[٦] .

كانت بريطـانيـا هي أول من أدرك خطـورة تحرك محمد علي وطموحاته ، وكان مصـدر تخـوفهـا العظيم نابـع من التأييد العربي الواسع لهذه التحركات ، وهي المـرة الاولى خلال السيطـرة العثمـانيـة التي تتغلب فيهـا المشاعر القومية على المشـاعـر الدينية . « ففي عام ١٨٣٢ اشعر القنصل البريطاني في الاسكندرية حكومته : « ... بأن محمد علي ينوي بعد تعزيز موقعه في فلسطين وسورية تعميم سيطرته على حلب وبغداد وجميع الولايات التي يتكلم سكانها اللغة العربية والتي يسميها بالجزء العربي من الامبراطورية» وفي عام ١٨٣٣ طالب ـ بالمرستون ـ وزيـر خارجية بريطانيا بارغام محمد علي على الاعتراف بالسيادة العليا للسلطان العثمـاني معللاً : « ... ان الهـدف الحقيقي لوالي مصر هو تأسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية » .

وفي ٢٤ حزيـران ١٨٣٩ دحـرت القـوات المصـرية بقيادة « ابراهيم باشا » الجيش التـركي ، وخشيـة تدخـل الـدول الكبرى ، اقترح محمد علي على تركيا توقيـع الصلح بشـرط الاعتـراف بالحقـوق الـوراثية لاسرته في مصر وفلسطين وسورية غير ان الحكومة البريطانية قررت احباط هذه الاتفاقية . ففي حزيران عام ١٨٤٠ وقعت بريطـانيـا والنمسـا وبـروسيـا وتـركيـا على معـاهـدة لنـدن التي منحت « محمد علي » ملكاً وراثياً على مصر ، وملكاً مدى الحياة على فلسطين ، شريطة ان يعترف محمد علي بالسيطرة العثمانية ، واعقب ذلك انذار وجهته ذات الدول الى محمد علي بالقبول . إلا ان « محمد علي » رفض هذه الشروط ..

ورداً على ذلـك بدأت بريطانيا وتركيا بالعمليات الحربية ضد مصر .. وارغمت محمد علي » على الانسحاب من سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية ، تاركه له الاحتفاظ بالحقوق الوراثية في مصر ، وفرض عليه تقليص الجيش ، وحرم من حق بناء السفن الحربية ، وكان عليه أن يدفع جزية كبيرة »[٧] .

العرب في مواجهة سياسة التتريك :

أصيب العـرب بخيبـة أمـل في طمـوحاتهم بعد هزيمة حركة محمد علي باشا نتيجة تآمر الدول الكبرى ، وخاصة بريطانيا التي كانت قد غيرت سياستها تجاه تركيـا في ذلـك الـوقت . إلا انهـا بالمقـابـل قد اججت عنـد العـرب الاحاسيس والمشـاعـر القومية ... هذه الحقيقة ادركها الاتراك العثمانيون وبداوا يحسبون لها حساباً كبيراً، الامر الذي جعلهم ينتهجون سياسة جديدة اكثر تصلباً وتنكيلاً من السـابق ضد العـرب. بعـدما تجكدوا ان الشعور الديني لم يعد كافياً لتسليم العرب بالأمر الواقع.

وكانت السياسة العثمانية الجديدة ترتكز على ثلاث ركائز أساسية : ـ

الأولى : العمـل على كسب الأسـر الغنيـة ، والـوجاهات العربية ذات التأثير الشعبي عن طريق اعطـاء هؤلاء بعض الامتيـازات ، والتنكيـل بالأسر والوجاهات الرافضة ، ونفيها الى اماكن مختلفة من الامبراطورية لمنع تاثيرها.

الثـانيـة : ـ تأجيج المشاعر الدينية الاسلامية ، خاصة وان الامبراطوريات الأوروبية المسيحية قد بدات تتكالب لتحطيم الامبراطورية العثمانية المسلمة.

الثـالثـة : ـ إتبـاع سياسة صارمة بوسائلها ، لتذويب السمات القومية عند العرب ، وصهرهم ضمن المجتمع التركي .

وقـد رافقت هذه السيـاسـة ، موجة من الظلم والاستبداد والتنكيل بالعرب لم يعـرفهـا التاريخ من قبل ... فاطلقت يد الولاة لامتصاص خيرات البلدان العربية بطـرق في غايـة الـوحشيـة والهمجية، وتمت مصادرة الأراضي ، ونفت اسراً بكـاملهـا إلى اعماق الانـاضـول ، وجـرت حملة واسعة من اجل تجنيد الشباب العربي ، إجبارياً » ونقلهم الى جبهات القتال البعيدة ، باسم الدفاع عن الاسلام والامبـراطـوريـة . وراحـوا يأخـذون الاطفـال والفتيان عنـوة من اهـاليهم ، ويخضعونهم الى اعداد وتعبئة تركية صرفة ، زارعين في نفوسهم الحقد على كل ما هو غير تركي بما في ذلك العرب انفسهم) .

ومن أجل ضمان ولاء الوجاهات العربية ، انشأ العثمانيون » مدرسة العشائر الامبـراطـوريـة » وهي مدرسـة داخلية ، اقيمت في عصر السلطان عبد الحميد

الثاني ، كان لها مهمة تعليم اطفال زعماء ومشايخ القبائل العربية ، وذلك من أجل تدريبهم، وضمهم الى الحياة العسكرية والادارية العثمانية ، وبالاضافة الى تعليم الشباب العرب من الأسر الغنية اللغة التركية كانوا يلقنونهم تربية عثمانية صرفة، ويعلمونهم طرق الادارة والتدريب العسكري، ويعدونهم كمدرسين للمدارس التي سيتم فتحها في الاقطار العربية، وكقائمقامين.

ويعدونهم ضباطا للكتائب العثمانية ، وقد فتحت هذه المدرسة عام ١٨٩٢ في حي (بيشيكتاس) في استانبول في قصر « اكاريتلير » الذي بناه السلطان عبد الحميد ، وفي عام ١٨٩٤ نقلت المدرسة الى قصر « ايما سلطان » في حي (كاباتاش) في استانبول . وفي السنة الأولى قبل (٥٠) طفلاً ، ولكن فيما بعد بلغ عدد الاطفال المقبولين (٢٥٠) طفلاً ، وفي البداية اخذوا أطفال العرب ، ولكن فيما بعد اخذوا اطفال من البانيا ، ومن جزر اندونيسيا ، أما خريجوا المدرسة فكانوا يواصلون تعليمهم في المدرسة الحربية اوفي مدرسة العلوم السياسية . ان هدف هذه المدرسة هوضم مواطني الامبراطورية الى الثقافة والتربية العثمانية لمحو وتصفية ثنائية الانتماء (محو الهوية القومية والتخلي عن اللغة والثقافة الأم ـ المؤلف) ،

وقد أغلقت هذه المدرسة عام ١٩٠٧ بسبب قيام التلاميذ العرب بانتفاضة ضد سياسة وادارة المدرسة »[٨] .

ان سياسة كسب ولاء الوجاهات والأسر الغنية ، واعداد اطفالها ليكونوا خير معين في تنفيذ السياسة والادارة العثمانية رافقها استخدام ابشع اساليب التجهيل لعامة ابناء الشعب العربي . خاصة فيما يتعلق بالتعليم .

لقد كان مستوى التعليم متأخراً جداً في المدارس الابتدائية والاعدادية سواء فيما يتعلق بالمناهج ، أوما يتعلق بتركيز المناهج لخدمة سياسة التتريك ، ورفض الطلاب والاهالي لهذه السياسة ، أو عدم تجهيز المدارس واعدادها وتزويدها باللوازم الضرورية ، والنقص الكبير في كادر المعلمين ، وإن وجدوا فانهم في مستوى تعليمي متأخر .

وقد وصف « خليل طوطح » الوضع التعليمي في تلك المرحلة ابلغ وصف (لا

منزل ، لا مدرس ، ولا تعليم) .

ان سياسة التتريك عن طريق التجهيل والتفرقة واستلاب الاطفال ، وكسب الوجاهات والتي اتسمت بطابع الارغام عبر النظم الادارية ، والسياسة الرسمية ، لم تكن سوى المقدمة الحقيقية للسياسة « الطورانية » التي مارسها الاتحاديون (تركيا الفتاة ـ ومؤسساتها ـ الاتحاد والترقي) ضد العرب بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني ، وفي ظل أول دستور للدولة العثمانية .

السياسة الطورانية ضد العرب :

رأينا كيف ان الاتحاديين قد تنكروا لشعاراتهم التي اطلقوها بعد ثورة ١٩٠٨ ، واخذوا يطغون ويستبدون بالقوميات الاخرى ، حتى « ان العرب أخذوا يرددون »

كان عبد الحميد بالامس فرداً فغدا اليوم الف عبد الحميد »[٩]

لقد اظهر الاتحاديون احتقاراً شديداً للعرب ، ومن مظاهر هذا الاحتقار انهم وزعوا منشوراً جاء فيه : ان العرب هم بلية علينا ، وأن حصانا تركيا خير من الف نبي ظهر في العالم (يقصدون النبي محمد) . واخطر ما انطوت عليه هذه السياسة بالنسبة للعرب ، هي محاولة الاتحاديين ، القضاء على اللغة العربية ، باحلال اللغة التركية مكانها ، وترجمة القرآن الكريم الى اللغة التركية »[١٠] .

« فاللغة التركية ـ (وكانت تكتب بحروف عربية) ـ هي اللغة الرسمية للدولة .لذلك كان يشترط في الموظفين حتى في الولايات العربية ان يعرفوا اللغة التركية ، وفي المدارس الرسمية كان التعليم بالتركية ، حتى ان المعلمين الاتراك كانوا يرسلون لتعليم اللغة العربية في الاقطار العربية ... وبلغ تشدد الاتحاديين ، ان المعلمين الاتراك كانوا يشرحون قواعد اللغة العربية باللغة التركية ، وحتى في مكة المكرمة كان قضاة الشرع من الاتراك .

هذ السياسة الحقت الضرر بالعرب اكثر من غيرهم من ابناء الشعوب الاخرى في الدولة ، فالروم ، والأرمن ، والبلغار ، كانوا يتمتعون بامتيازات تسمح لهم بانشاء مدارس خاصة ، وبالتدريس فيها بلغاتهم القومية ، ولما لم يكن للعرب اية

امتيــازات فقــد كانــوا مضطــرين لتلقي العلم باللغــة التــركيــة في المــدارس الــرسميــة[١١] » . حتى في الاقطــار العــربيــة نفسهــا ، كان العرب المسيحيون يتلقــون تعليمهم في مدارس الارســاليــات الخــاصــة ، لقد انشأ الروس عشرات المدارس لأبناء الطائفة الارثوذكسية ، كما أنشأ الفرنسيون للطائفة الكاثوليكية ـ والانكليــر للبــروتستنت واليهــود . نتيجة لسياسة التسامح الديني التي فرضتها الامبراطوريات الروسية ، والبريطانية والفرنسية عل الدولة العثمانية منذ اواسط القــرن التــاســع عشــر . أما العرب (المسلمون) فليس امامهم سوى المدارس التــركيــة السيئه والمتخلفة . والاغرب من ذلك ان مدارس الارساليات المختلفة ، كانت اللغــة العــربيــة فيها هي اساس التعليم في حين ان المدارس التركية كانت تعتبرها ثانوية جداً . كل ذلك كان يجري تحت شعار الدين الاسلامي ، فالسياسة التركية كانت تهدف الى تذويب المقومات القومية للعرب ، بحجة أنهم مسلمون . مما خلق اوضاعاً حياتية صعبة لدى العرب في ظل الحكم العثماني ، نتيجة الظلم والاضطهاد الذي لا حدود له .

ومــع اشتــراك الــدولــة العثمانية في الحرب العالمية الأولى في تشرين الاول ١٩١٤ دخلت قضيــة الصراع العربي ـ التركي في مرحلة جديدة ... فمن ناحية ادرك العرب ان بلادهم ستكون مسرحاً لحرب دامية ومريرة ، وان الانهيار المؤكد للدولــة العثمــانية سيجعلهم يتعرضون لانتقام اعدائها ، من العرب انفسهم على اعتبار انهم من رعايا الدولة العثمانية ، وعلى اعتبار ان اعدادا كبيرة من ابنائهم تقاتل مع الدولة العثمانية على مختلف الجبهات ... ومن ناحية ثانية فان الحاجة أصبحت ماســة لمنع تمرد العرب . ولأبقائهم تحت السيطرة العثمانية ، والحاجة الى تجنيــد اكبــر عدد ممكن منهم ... تحت شعــار « الدفاع عن الدولة الاسلامية والمسلمين . خاصــة بعــد ان قامت بريطــانيــا باحتــلال مصر ، وخلع الخديوي « عبــاس باشــا الثــاني » المــوالي للاتراك ، والاعلان عن الغاء سيادة تركيا على القطر المصري .

لذا قامت الدولة العثمانية بتعيين وزيــر البحــريــة الفــريق « جمال باشا » (١٩١٥ ـ ١٩١٦) قائداً للجيش الرابع المتواجد في سورية (اي حاكما عسكريا لبــلاد الشام) ، وجدير بالذكر انه بالاضافة الى الواجبات العسكرية التي اوكلت

لجمال باشا (مواجهة البريطانيين شرقي قناة السويس) » فان القابضين على زمام الحكم كانوا يريدون نفاذ امرهم في هذه البلاد وان يكون على رأسها شخص يعرف كيف ينفذ إرادتهم ويقضي تماماً على الفكرة العربية[١٢] » . في البداية ومن أجل تجنب اي صدع في جبهته ، حاول جمال باشا أن يكسب رضى العرب ، خاصة المسلمين ، حتى لا يظن المسلمون ان الاتراك ينتقمون من أجل ضمان سيادة الأمة الطورانية ، لذا فقد استدعى بعض الوطنيين وشرح لهم ضرورة انتصار الاسلام .. وكذلك اراد تهدئة مخاوف المسيحيين في لبنان ، فأعلن ان المقصود باعداء الدين هم الانجليز والفرنسيين والروس ، أما مواطنونا من غير المسلمين فهم اخواننا في وطن مشترك ، ومصالح مشتركة وسوف نعاقب بمنتهى الشدة من يحاول الاضرار بهم[١٣] » .

●●●

جهز جمال باشا حملته العسكرية ، وبدأ هجومه على قناة السويس في ٢ شباط ١٩١٥ ، لكن هذا الهجوم فشل فشلاً ذريعاً ، فانكفأ الى الداخل ، واراد ان يعوض فشله العسكري ، في محاولة السيطرة على الجبهة الداخلية ، والقضاء على الفكرة القومية العربية ، مستخدماً أبشع وسائل العنف » فما كادت تعرض عليه اوراق تتضمن اتهام رجل يدعى يوسف الحايك ، (وهو قسيس ماروني من جبل لبنان كان يتبادل رسائل مع السيد » ديشانل » الذي كان حينئذ رئيساً للبرلمان الفرنسي) حتى رأى فيها جمال باشا دليل خيانة ، فوقع عليه حكم الاعدام . ونفذه شنقاً وعلنا أمام الجمهور في مدينة دمشق في ٢٢ آذار ١٩١٥[١٤] » وكان هذا الاعدام فاتحة لسلسلة دموية رهيبة من الاعدامات فيما بعد ، » ففي ٢١ آب ١٩١٥ نصبت احدى عشر مشنقة في الميدان الرئيسي في كل من بيروت وبعلبك وحماة ودمشق وجنين ، وأعدمت القافلة الأولى من الشهداء العرب ، وكانوا جميعاً من الوجهاء البارزين ، ورجال الفكر الموهوبين ، ومن دعاة القومية العربية ، ومن بنهم عبد الكريم الخليل » الذي كانت له مع رجال الحكومة اوثق الصلات ، وذيلت بتوقيعه ، مع طلعت بك الاتفاقية العربية ـ

التركية ، وكان قد أحرز شهرة واسعة ومكانة مرقوقة في استانبول كرئيس للمنتدى الأدبي[١٥] » .

« وفي ٥ نيسان ١٩١٦ القى جمال باشا القبض على طائفة اخرى - أكثر عدداً من سابقتها - بتهمة الخيانة العظمى ، ونفذ حكم الاعدام في اثنين وعشرين شخصية عربية ، سبع منها في دمشق ، وخمس عشرة في بيروت ، بتهمة الاشتراك في تأسيس جمعيات غايتها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن السلطة العثمانية[١٦] » .

وكذلك فقد قام جمال باشا باعدام الكثير من ابناء العرب فرادى وبفتراتٍ وتهم مختلفة ، وكذلك اصدر أحكاماً كثيرة بالاعدام غيابياً على عشرات المناضلين العرب ، وزج بالسجون عشرات الالوف دون محاكمة اوحتى اتهامات « وقد اقترنت احكام الاعدام والسجن بأحكام النفي والابعاد التي شملت نحواً من ٣٠٠ اسرة من اسر الشام (سورية وفلسطين ولبنان) قبض على اعضائها نساء ورجالاً واطفالاً بأمر جمال باشا في شهري آذار ونيسان ١٩١٦ ، وارسلوا الى الاناضول ، بعدما صوردت أملاكهم واموالهم ، فوزعوا في مدنه وقراه ... حتى لم تبق مدينة من مدن الاناضول ، إلا ونزلتها عائلة أو اكثر من العائلات السورية ، والغاية من هذا التدبير - وهم لم يقصوا سوى الاسر الغنية والكبيرة الممتازة - اضعاف العصبية العربية في بلاد الشام ، باقتطاع هذه العناصر القوية فتترك وتفقد هويتها القومية وتندمج في السياسة الطورانية[١٧] » .

إلا ان هذه السياسة العنصرية والقمعية لم تحقق هدف جمال باشا ، ولا اسياده في استانبول . بل كانت سلاحاً ذا حدين ، عجل في احداث النهضة القومية العربية الشاملة ، واعلان الثورة العربية الكبرى ضد الحم العثماني .

●●●

الدولة العثمانية والحركة الصهيونية

ان مسألة العلاقة بين الدولة العثمانية والحركة الصهيونية لم تحظ حتى اللحظة بالكثير من تسليط الاضواء عليها من قبل المؤرخين والسياسيين العرب ، إذ اكتفت الدراسات حول هذا الموضوع بالاعتماد على الوثائق والنصوص المكتوبة في الأراشيف المختلفة ، سواء التركية منها أو العربية أوحتى الصهيونية نفسها ، وهي في غالبها تؤكد ان الاتراك العثمانيين قد رفضوا فكرة « الوطن القومي اليهودي في فلسطين » كما رفضوا الهجرة اليهودية اليها . وانطلاقاً من الوثائق العلنية ، « فان المفاوضات بين السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل (زعيم الحركة الصهيونية) عام ١٨٩٦* قد فشلت تماماً ، والسبب الرئيسي هو إصرار السلطان على أخذ ما يستطيع من هرتزل وعدم اعطائه قلامة ظفر مما يطلبه في فلسطين ، لقد كان السلطان يريد الأخذ من دون مقابل أو عطاء ، بينما كان هرتزل لا يقيم وزناً لأي عطاء من قبل السلطان خارج أراضي فلسطين[١٨]) .

وكان هرتزل قد قدّم للسلطان مبلغ عشرين مليون ليرة ثمناً لفلسطين ، فكان جواب السلطان النهائي الذي نقله « نيولنسكي » لهرتزل ، وهو صديق مشترك ، كالتالي : -

« اذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ان لا يتابع ابداً هذا الأمر ، لا اقدر أن ابيع ولو قدماً واحدة من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبي ، لقد حصل شعبي على هذ الامبراطورية بإراقة دمه وغذاها فيما بعد بدمه أيضاً ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل ان نسمح لأحد باغتصابها منا ، لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين ، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر لان احداً لم يقبل التسليم ، وفضلوا ان يموتوا في ساحة القتال ، الامبراطورية التركية ليست لي وانما لشعبي التركي** . لا استطيع ابداً ان أعطي احداً أي جزء منها ....[١٩] »

وكذلك تقول الوثائق المعلنة ، « ان موقف السلطان بالرفض لم يكن موقفاً سلبياً فقط ، بل لقد اصدر قانوناً هاماً يمنع « الاسرائيليين* » من الاقامة الدائمة

في فلسطين سنة ١٩٠٠ وهذا نصه : ـ

« كنـا قد شددنـا على منـع دخول « الاسرائيليين » الى ارض فلسطين ، المـوظفـون تراخوا في تطبيق الامرواسلؤوا تاويله، والاسرائيليون ياتون بحجـة الـزيـارة ويستوطنون ، كما اشعرنا متصرف القدس ، ان مكوثهم لا يجـوز باي حال من الاحـوال ، ان مامـوري الـدولة مسؤولون بشدة وفوق العادة عن تنفيذ الامربدقة وحتى اليهود من اتباع الدول العلية لا يجوز لهم الاقامة بصفة دائمة (في فلسطين) .

ان هذه الاوامـر لا تمانع زيارة اليهـود للاراضي المقدسة منفردين او جمـاعـات ، ولكنهـا لا تسمـح باقـامتهم الـدائمـة ، ويجب اخـذ تعهـد من القنصليـات التي جاؤوا عن طريقها» . وقد اتخذ هذا الامربقرار من مجلس شورى الدولة ومجلس الوزراء وصدرت فيه ارادة سنية من الخليفة .

صدر في ٥ تشرين الاول ١٣١٦ هـ تحت رقم ٢٤٠٩ »[٢٠]

الى هنـا والـوثائق المعلنة (الموقف الظاهري) للدولة العثمانية كانت ترفض فكـرة الهجـرة اليهودية الى فلسطين ، إلا ان الظواهر التي تكشف موقفاً مغايراً ، والتي كانت على شكل وقائع على الارض ، تؤكد على عدم الممانعة ، شريطة ان يتم ذلـك بهـدوء ودون استثارة العرب ـ خاصة الفلسطينيين ـ وللتدليل على ذلك (بالاضافة الى الملاحظات المدونة في الهامش رداً على رسالة وقانون السلطان عبد الحميد) نورد الملاحظات التالية : ـ

أولاً : ـ على الـرغم من رفض السلطـان عبـد الحميـد لعـرض هرتـزل شراء فلسطين ، فأن السلطـان احتفـظ بعـلاقاته الحميمة مع هرتزل ، الذي قام بعدها بزيارة استانبول خمس مرات » ومنح في عام ١٩٠٢ وساماً رفيعاً »[٢١] .

ثانيا : ـ لقد كانت الدولة العثمانية في نهايات القرن التاسع عشر تعاني أزمة اقتصـاديـة خانقـة ، أمـا رفض السلطـان لبيـع الاراضـي التـركيـة « لانها ملك للشعب » فهـذا مشكـوك في صحتـه ، فقـد سبق ان اقـدم السلطان « على بيع قبـرص لبـريطانيا بعرض من رئيس وزرائها « دزرائيلي » مقابل بضعة آلاف من الليرات الذهبية ، ووعود كاذبة غامضة بمساندتهم ضد روسيا القيصرية »[٢٢] .

ثالثاً : ـ يذكر الباحث الصهيوني الاميركي ـ بن هالبون : ـ

« ... ان اليهود من رعايا السلطان في الامبراطورية العثمانية ـ كانوا يتمتعون بحرية تامة ، سواء في الدخول إلى فلسطين او الخروج منها ، وكانوا يتنقلون بدون عقبات في جميع أراضي الامبراطورية العثمانية الممتدة من أفريقيا الشمالية حتى البلقان »(٢٣) .

رابعاً : ـ رغم الموقف المعلن من قبل الحكومة العثمانية في البداية ، ومن ثم الحكومة التركية ، فقد استمر تدفق المهاجرين اليهود بأعداد كبيرة الى فلسطين « فبين سنتي ١٨٨٢ ـ ١٩٠٣ بلغ عدد مهاجري الموجة الأولى عشرين الفاً معظهم من اليهود الروس ، وقد سكنوا القدس والخليل وصفد وطبريا ، وبين سنتي ١٩٠٤ ـ ١٩١٢ بلغ عدد مهاجري الموجة الثانية ومن اليهود الروس أيضاً من ثلاثين الى أربعين الفاً »(٢٤) .

وهنا لا بد من الاشارة الى أن مثل هذه الاعداد لا يمكن ان تأتي الى فلسطين دون علم اوموافقة الدولة العثمانية ، وبتسهيل منها ، خاصة مع مارافقها من احتجاجات كثيرة من العرب الفلسطينيين وعبر الصحف العربية ، وحتى التركية(٢٥) .

خامساً : ان تدفق المهاجرين اليهود ، بتخطيط من الحركة الصهيونية الى فلسطين ترافق مع قيام المستعمرات الصهيونية في فلسطين حتى وصل عددها إلى ٣٩ مستعمرة يسكنها (١٢) الف مستوطن (جدول بأسماء وأماكن وعدد سكان هذه المستعمرات في الملحق في نهاية الكتاب) في حين توالت وفود المهاجرين الصهاينة الى فلسطين(٢٦) .

سادساً : اما بخصوص تمليك الاراضي الفلسطينية للصهاينة ومستعمراتهم ، فقد اتخذت أوضاع الاراضي في فلسطين بعد ثورة ١٩٠٨ شكلاً جديداً حيث كان السلطان عبد الحميد قد وضع يده على الاراضي المدورة* ... ومقابل دفع مبلغ زهيد من المال لخزينة الدولة استولت الحكومة العثمانية على هذه الاراضي باعتبارها من أملاك الدولة ، وسميت بالمتنقلة حيث ان ملكيتها انتقلت من ملكية السلطان الخاصة الى ملكية الدولة ، وقد لعبت ملكية الأراضي المدورة دوراً هاماً ـ وخاصة عند صدورة مشروع «الاصفر» عام ١٩١٠ الذي

نص على بيع الاراضي المدورة في المزاد العلني »[٢٧]

وبـذلـك كانت الصهيـونيـة تشتري من المزاد هذه الأراضي . أما العرب فقد ادركوا خطورة هذا المشروع، وأجبروا الحكومة على إلغائه.

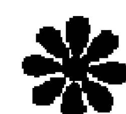
وسـواء كانت هذه الـوقـائـع سيـاسـة رسميـة ، أوموقفاً لبعض المؤسسات المتنفـذة في الحكـومـة العثمانية ، فان النتيجة واحدة . وهي انها سهلت بشكل مباشر مهمة الحركة الصهيونية للاستيطان في فلسطين ، ولم تقم الدولة العثمانية المسيطرة على فلسطين باتخاذ أي إجراء عملي لمنع هذه الهجرة . على الرغم من الاحتجـاجـات العـربية ـ الاسلامية والمسيحية ، فيما يبدو أنه اتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، بحيث كانت الثانية تمارس ضغوطات كبيرة على الأولى قبيل الحرب العالمية الاولى وانضمام كل منها الى المعسكرين المتقاتلين .

فقـد كانت الـواحـدة بحـاجـة الى الاخرى ، لمواجهة الامبراطورية الروسية والامبـراطورية ، الفرنسية ، ومن المعروف ان بريطانيا كانت ترعى فعليا مصالح اليهـود في فلسطين والـدول العـربيـة بموافقة الدولة العثمانية ، وبالتالي تكون الصفقة مع بريطانيا سياسياً ، ومع هرتزل مالياً .. وهو ما يقودنا اليه تحليل ذلك الواقع انطلاقاً من الوقائع والظواهر التي سبق واشرنا إليها .

المستعمرات الصهيونية التي انشئت في العهد العثماني في فلسطين[٢٨]

اللواء	القضاء	اسم المستعمر	تاريخ انشائها	عدد سكانها من اليهود عند الانشاء
	صفد	روشبينا	١٨٨٢	٣٤٠
الجليل		يسود همعلة	١٨٨٣	٢٥٠
		مشمار هايردن	١٨٩٠	١٣٠
		المطلة	١٨٩٦	٢٢٠
		كفار جلعادي	١٩١٦	٨٥٠
		ايلت هاشحرة	١٩١٨	٥٢٠
	الناصرة	كفار طابور	١٩٠١	٢٣٠
		مرحافيا	١٩١١	٢٧٠

	طبريا	يفتيل	١٩٠١	٥٩٠
		مناحاميا	١٩٠٢	٢٣٠
		سجرة	١٩٠٢	٢٦٠
		بيت غن	١٩٠٤	١٧٠
		كنوت	١٩٠٨	٢٢٠
		متصبة	١٩٠٨	٩٠
		دجانيا	١٩٠٩	٢٩٠
		مجموعة كنرت	١٩٠٩	٤٦٠
		مجدال	١٩١٠	٢٩٠
حيفا	حيفا	زخرون يعقوب	١٨٨٢	١٥١٠
		بات شلومو	١٨٨٩	٩٠
		الحضيرة	١٨٩٠	٧٥٠٠
		عتليت	١٩٠٣	٢٨٠
		جبعة عدا	١٩٠٣	١٦٠
		كركور	١٩١٣	٩٠٠
		غن شموئيل	١٩١٣	٣١٠



النهضة القومية العربية في مواجهة العنصرية التركية

لاحظنا مدى التناقض في نظرة العرب والترك كل منهم للآخر ، فقد كان العرب ينظرون الى الدولة العثمانية من منطلق ديني إسلامي يقول بخدمتها والعمل في ظل قوانينهــا كالتــزام دينــوي يفــرضـــه الــواجب الـديني ، وكانت رابطة الخلافة الاســلاميــة تشــد العــرب الى الاتــراك والـدولة العثماية ، أي تغليب الدين على حساب القومية. أما السلطة التركية فكانت نظرتها ترتكز اساساً على اذكاء الروح العنصــريــة على حســاب الـدين ، واستغــلال الاســلام لتكــريس اضطهــادهم العنصري ضد العرب وبقية الاقوام الاسلامية مثل الأكراد والشركس والتركمان والبربر ... الخ

وفي نهــايــة الأمر نبّه استمرار الاضطهاد القومي ، وانتقاله من مرحلة التعبئة المتسترة تحت غطاء الدين إلى ممارسة القمع اليومي تحت شعار التمايز القومي المكشــوف نبه الشعور القومي العربي ، خاصة عندما بدأت قوة الدولة العثمانية تتقهقــر أمــام الامبــراطوريات الاخرى ، مع ما رافق هذا التقهقر من قمع داخلي للاقوام من رعايا الدولة .

ومــع وصــول « تركيا الفتاة » بعد ثورة ١٩٠٨ الى الحكم ، وتحول هذه الثورة الى السياسة « الطورانية » العنصرية ضد الاقوام الاخرى ، خاصة بعد تشكيل منظمات « الاتحاد والترقي » التي كانت تقوم بالتعبئة العنصرية الحاقدة ، بلغت حدّة الشعـور القـومي العــربي أوجهــا «فلقد رافق السياسة الطورانية قسوة في الحكم ، وضغــط على الحــريات ، واعلان الحكم العرفي ، والى تنافس شديد بين التــرك والعنــاصــر الاخــرى وأدى ضغــط الاتحــاديين على الجمعيـات العــربية ورجالاتها العاملين في داخل السلطنة الى تطور مجرى النضال القومي العربي ، وظهـرت في تلك الفتــرة ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ عدة جمعيـات ونــواد اتخذت كلها صفة عربية ، مثل جمعية النهضة العربية ، والمنتدى الادبي ، والجمعية القحطانية ، والجمعيــة العــربيــة الفتــاة ، وجمعيــة العهــد ، وساعدت كلها على بلورة الفكرة

القومية في العالم العربي »(٢٩) .

« ومـع ان الجمعيـات العربية المحض تأخر تأليفها الى ما بعد عودة الدستور في سنـة ١٩٠٨ ، فأن التفكيـر القـومي عنـد العرب يعود الى النصف الثاني من القـرن التـاسـع عشر ، ففي هذه الفترة أخذ المثقفون العرب في سورية يؤلفون الجمعيـات الأدبيـة وينظمـون القصـائد الثورية ويعلقون المناشير الداعية الى الاصلاح ، ويكتبون الخطب الوطنية الداعية الى اذكاء الروح القومية ، ويقارنون أحـوال بلادهم بأحـوال الأمم المتمدنة في أوروبا وأميركا ، وفي هذه الفترة غادر سوريـة كثيـر من المثقفين ، ولجأوا الى مصـر حيث وجدوا هناك المجال في ظل الحكم البـريطـاني للتعبير عن آرائهم بحرية لم تكن متوافرة لهم في بلادهم »(٣٠) وكان لنظام التعليم العربي الذي أقامه محمد علي باشا ، وابنه ابراهيم من بعده الأثـر البـالـغ في جعـل مصـر مركزاً للفكر القومي العربي ، نظرا لوجود المطابع والجامعات والصحف .. الخ .

« وتعتبـر كتـابات عبد الرحمن الكواكبي ، ونجيب عازوري ، البداية الحقيقية لافكار القومية العربية : وقد نشر الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) في منفاه الاختياري في مصـر كتـابين همـا « طبـائـع الاستبداد » و« أم القرى » دعا فيهما الى ان يتـولى العـرب إدارة بلادهم والى نزع الخلافة من الأتراك وإعادتها الى العرب أمـا نجيب عازوري الـذي قضى سنوات الأخيرة (١٩٠٤ ـ ١٩٠٦) في فرنسا ، فقـد أنشأ في باريس « جامعـة الـوطن العـربي » واصـدر في عام ١٩٠٥ كتابا سياسيا « يقظة الامة العربية » نادى فيه بانفصال العرب عن الترك وانشاء دولة عربية تضم شبة الجزيرة العربية والهلال الخصيب ، والى قيام خليفة عربي في الحجاز يحكم الحجاز ويتولى الرئاسة الدينية لجميع المسلمين ، وشدد عازوري على ضرورة منـح الحرية الدينية لجميع المواطنين والمساواة بينهم في الحقوق والـواجبات ، حتى يستطيع المسيحيون العرب أن يعيشوا حياة لا يشعرون فيها بأي لون من الوان التفرقة »(٣١) .

وكـذلـك فقد « قامت الجالية السورية في فرنسا سنة ١٨٩٥ بتاسيس جمعية علنيـة تحت اسم « الجمعيـة الـوطنيـة العربية » وكان أهم اهدافها الدعوة ضد الحكم التـركي ، والحض على الثـورة . وقـد نادت بالاستقلال السياسي الكامل

بعبارات صريحة » ، ووجهت منشوراً الى الدول العظمى سنة ١٩٠٦ جاء فيه ... ان في المملكة التركية انقلاباً سلميا يوشك ان يبين ، ذلك أن الامة العربية التي قسمها الترك الى طوائف ومذاهب حتى تم لهم ان يسوموها سوء العذاب ، قد انتبهت من غفلتها ، فعرفت ان لها قومية وطنية تاريخية ، فهي تحاول ان تنفصل عن تلك الشجرة النخرة وتنشيء لها ملكاً عربياً مستقلاً ، ولهذه الدولة حدود طبيعية تبتدىء من دجلة والفرات الى برزخ السويس ، ومن البحر المتوسط الى بحر عمان ، وتكون هذه الدولة سلطنة دستورية حرة يتولى امرها سلطان عربي »[٣٢] .

« وهكذا اقتدى العرب بالترك فاخذوا يؤلفون الجمعيات العلنية والسرية وفي ٢٣ آب ١٩٠٩ صدر قانون يحظر قيام الجمعيات والاحزاب ذات الاهداف القومية السياسية ، فأنشأ العرب في استانبول سنه ١٩١٠ « المنتدى الادبي » مكاناً يلتقي فيه ابناء البلاد العربية القادمون الى العاصمة »[٣٣] . وكان هذا المنتدى « الجمعية التي اذكت الروح القومية وبثت المبادىء السامية بين طبقات الشبيبة العربية في الاستانة وخارجها ، وكانت خطته الوحيدة نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية »[٣٤] . وظل هذا المنتدى يواصل اعماله حتى عام ١٩١٥ عندما بطش الاتحاديون برجال العرب ، وارسل جمال باشا رئيس ومؤسس المنتدى الادبي « عبد الكريم الخليل » الى حبل المشنقة .

وفي عام ١٩١٢ ، وبعد تخلي الدولة العثمانية عن الدفاع عن ليبيا أمام الغزو الايطالي ، وتركها المواطنين العرب في مواجهة قوات الاحتلال الايطالية ونيران بوارجها الحربية دون حماية ، عم الغضب الشامل الامة العربية ، وتبددت فكرة ان الاتراك هم حماة الاسلام والاراضي الاسلامية ، وان ما يهمهم من الاسلام هو تسييد العنصر التركي ، حتى لو اقتضى الامر التضحية بمصالح المسلمين من الأقوام الاخرى ، وخاصة العرب منهم ، تحت هذا الشعور انشأ البكباشي عزيز علي المصري منظمة سرية عسكرية في استانبول عام ١٩١٣ ، ولقد لعبت هذه الجمعية دوراً بارزاً في تثوير الضباط العرب الموجودين في خدمة الجيش العثماني ، فانضم اليها ٣١٥ ضابطا من اصل ٤٩٠ ضابطاً عربياً كانوا يخدمون في العاصمة ، وفيما بعد لعب عدد كبير من هؤلاء الضباط دورا في غاية الأهمية ،

في الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية ، وكانوا قادة لوحداتها العسكرية يتبعهم الجنود العرب الذين هربوا من صفوف الجيش التركي وانضموا لقوات الثورة .

« وفي سنة ١٩١٠ أدت سياسة الاتحاديين العنصرية الى قيام ثورات في اربع نواح من بلاد العرب : في اليمن ، وعسير ، وجبل الدروز ، والكرك ، ومع ان الحكومة استطاعت ان تسحق الثائرين في جبل الدروزوالكرك ، إلا انها فشلت في اليمن وعسير واضطرت للقبول بحل وسط . وقد لخص السفير البريطاني في أستانبول هذا الوضع في مذكرة بعث بها الى وزير خارجيته بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٠ جاء فيه: ان العرب على العموم قد شعروا بخيبة أمل شديدة عندما اكتشفوا بعد عودة الدستور ان الاتحاديين استولوا على مقاليد الحكم ، وانهم يسيرون على ميولهم التركية وليس على سياسة اللامركزية التي كان العرب يتوقعونها ، وان ما كان يتوقعه العرب هو تطوير الولايات العربية نحو المزيد من الحرية الذاتية تحت سيادة الدولة الثمانية ، أما الآن فقد اخذ كثيرون منهم يعلنون زوال رابطة الخلافة ، وان القضية أصبحت قضية اتراك وعرب لا غير »(٣٥) .

وكذلك فقد « ذكر الجنرال » فون ساندرز « : ..... ان تأثير حكم جمال باشا لم يحرم سورية من زعامة الثورة ، بل أجج في الشعب روح الثورة »(٣٦) .

من هنا ، فان كل هذه المعطيات التي تمحورت حول السياسة الشوفينية العنصرية التركية ، في ظل الدولة العثمانية ، وبغطاء الدين الاسلامي ، وما رافقها من قمع واضطهاد ، قد شكلت الأرضية الطبيعية والمنطقية لقيام الثورة العربية الكبرى للتحرر من نير الحكم التركي ، والانفصال السياسي والحضاري عن الدولة العثمانية بغض النظر عن عامل الدين ، الذي استخدمه الاتراك كسيف مسلط على رقاب الأمة العربية فترة طويلة من الزمن هي بالنسبة لها : مرحلة الانحطاط والتخلف الحضاري .

وهنا ايضاً لا بد وعلى ضوء الاستعراض السريع لهذه المعطيات من ملاحظة بروز أربعة اتجاهات في قيادة القوميين العرب ، منذ بدايات تبلور الفكر القومي العربي، ومن حركة محمد علي باشا، وحتى الثورة العربية الكبرى. وهذه الاتجاهات هي:

الاول : المطالبة باللامركزية ... تطوير الولايات العربية . والمطالبة بالحرية الذاتية تحت السيادة العثمانية .

الثاني : الانفصال عن الدولة العثمانية ، وتاسيس دولة عربية مستقلة بالاعتماد على العرب انفسهم وعلى جهودهم الذاتية .

الثالث : الانفصال عن الدولة العثمانية ، وتاسيس دولة مستقلة بمساعدة خارجية (بريطانيا ، اوفرنسا) .

الرابع : التمسك بالدولة العثمانية خوفا من اطماع الدول الاوروبية الاستعمارية .

ولقد شهدت هذه التيارات صراعات فكرية حادة ، حسب تاثيرات الظرف الموضوعي ، وتطورات الوضع الدولي الناشئة عن الصراعات العنيفة بين الامبراطوريات الكبرى (العثمانية ، البريطانية ، الفرنسية ، الروسية ، الالمانية) ، بالاضافة الى التوجهات السياسية الداخلية للدولة العثمانية نفسها .

ولقد اثرت على الاتجاهات الرئيسية للقوميين العرب سلبا او ايجابا العوامل التالية : ـ

١ ـ الحرب البلقانية ـ واعلان استقلال بلغاريا ، وتحررها من النير التركي .

٢ ـ تقسيم بلغاريا حسب معاهدة «برلين» نتيجة لمؤامرة الدول الكبرى .

٣ ـ تخلي الدولة العثمانية عن حماية ليبيا في مواجهة قوات الاحتلال الايطالية .

٤ ـ السياسة الطورانية العنصرية ، واساليب التتريك ضد العرب .

٥ ـ دخول الدولة العثمانية الرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ .

٦ ـ تعيين جمال باشا واليا على سورية ، وما قام به من إعدامات وارهاب ضد العرب .

واذا كنا قد تناولنا تاثيرات العوامل الثلاثة الأخيرة في عرضنا السابق ، فان للحرب البلقانية تاثير لا يقل اهمية ، خاصة ما نتج عنها من تحرر جميع الدول الاوروبية التي كانت تحت الاحتلال العثماني ، وخاصة بلغاريا (سنة ١٩٠٨) وهي الاكثر قربا وتاثيرا على الدولة العثمانية . وما تلاها من مؤامرات على دول

البلقان واستقلالها من جانب الدولة الكبرى ، وبروز المشكلة البقانية .

فعنـدمـا تحررت دول البلقان بفعل عملية النهوض القومي ، كان لهذه العملية الأثـر الكبيـر والفعـال على الحـركة القومية العربية ، وسيطرة تيار الانفصـال عن الدولة العثمانية ، سواء بالقوة العربية الذاتية او بمساعدة خارجية ، ولكن عندما تكالبت الدول العظمى ضد بلغاريا ، واعلنت تقسيمها ، تراجع تيار الانفصال عن الـدولة العثمانية ، وكذلك تراجع تيار الانفصال بمساعدة خارجية . بفعل الخوف من مؤامرات الدول الكبرى ، وليس اكثر دلالة على هذا التخوف ما قاله «الامير شكيب أرسـلان ، الـذي كان ينـادي بعـدم الانفصـال عن الـدولـة العثمـانيـة لمعـارضيـه : لا اعتقـد ان بينكم من هو عربي اكثـر مني ، افتحوا عيونكم الى ما يهـدد البـلاد العربية من خطر ، اقروا الجرائد الاجنبية ، انظروا الى المعاهدات التي اعلنت والى الاتفـاقـات التي اذيع خبر عقدها ولم تنشر ، الا ترون انها كلها ترمي الى تقسيم الدولة وذهاب الاقطار العربية للانكليز والفرنسيين »[٢٧]

وعلى الـرغم ممـاحصل في دول البلقان ، ومؤامرة تقسيم بلغاريا ، إلا أن هذا العـامـل قد تبخـر امام سياسة الارهاب والتنكيل والعنصرية الطورانية والتتريك القسـري التي مارستهـا الـدولـة العثمـانية ضد العرب ، على يد السفاح جمال باشـا ، بالاضـافة الى دخول تركيا الحرب العالمية الأولى ، وتزايد غليان الشعور القـومي للتخلص من النيـر العثمـاني الـذي جثـا طويـلا ورهيبا على صدر الأمة العـربيـة . وهكـذا كان لا بد من الثـورة العـربية ، لذا وبسرعة اتفق العرب على اختيار « الشريف الحسين بن علي » شريف مكة لقيادة الثورة العربية الكبرى ، وتـدفق الشباب العربي للانضمام الى قوات الثورة من جميع الاصقاع العربية ، وكـذلـك تدفق الجنـود والضباط العرب الى هذه القوات بعد ان هربوا من الجيش العثمـاني . وبسـرعـة تشكلت الفيالق والكتائب العربية التي شاركت بفعالية في القتـال الى جانب القـوات البـريطـانيـة والفرنسية ، ضد القوات العثمانية فوق الاراضي العربية .

« واعتـرف القـائد العام للجيوش التركية في البلاد العربية » المارشال ليمان فون ساندرس » في مذكراته بأهمية الدور الذي قامت به الثورة العربية كما يلي :

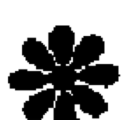
« ... لقـد أدت القـورة العربية خدمات عظيمة للجيش البريطاني خلال تقدمه

في شبه جزيرة سيناء ، فكان الانكليز آمنين مطمئنين يفعلون ما يشاؤون كأنهم في داخل بلادهم ، بعكس الترك الذين اقصاهم اهل البلاد بعد اعلان ثورة العرب ، وملوهم . فكانوا يسوقون جيوشهم كأنهم في بلاد معادية لهم »

ووصف قائد تركي آخر المعارك بدقة اكثر فقال : -

« .... ولولا جنود جيش عربي وقف موقف العداء من الترك في جزيرة العرب وفي ساحة حربية طولها الف كيلو متر ، لما تم للجيش البريطاني إحراز ما احرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة ، ويعود الفضل الى الجيش العربي في بلوغ الانكليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس ، ولولا هذا الجيش لكان في استطاعة الترك القيام بحركة التفاق واسعة النطاق على الجيش البريطاني ، واجباره على التراجع ، وقد عطل العرب للترك ما يزيد على الاربعين الف مقاتل بأسلحتهم الكاملة ، كان في الامكان حشدهم في ساحة فلسطين امام الانجليز ومنعهم من التقدم »(٣٨)

وكان من نتيجة الثورة العربية ، وهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى ان تحررت الامة العربية من النير العثماني ، ولكن الروح الاستعمارية التي لا تفرق بين حليف وعدو ، وعدم احترام المعاهدات والحقوق منعت الامة العربية من تحقيق ذاتها واستقلالها ، ومثلما قسمت الدول الكبرى بلغاريا ، اعادت الكرة في بلادنا ، وتقاسمت كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا استعمار معظم البلاد العربية وشعوبها ، بالاضافة الى قيام حكومة الاستعمار البريطاني بزرع الحركة الصهيونية فوق الارض الفلسطينية ؛ لتبدأ مرحلة جديدة من النضال العربي ضد الاستعمار الجديد الذي لا يقل بشاعة وتفرقة عنصرية عن الاحتلال العثماني .



هوامش

١) موسى سليمان مصدر سابق ص ١١

٢ ـ المصدر نفسه ص ١٢

٣ ـ البرغوثي عمر الصالح وطوطح خليل : تاريخ فلسطين ـ اصدار مطبعة القدس ١٩٢٣ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٨

٤ ـ موسى سليمان : مصدر سابق ص ١٤

٥ ـ المصدر نفسه : ص ١٣

٦ ـ بونداريفسكي : سياستان ازاء العالم العربي ـ سلسلة الاشتراكية والعالم الثالث ـ اصدار دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٥ الصفحات ١١ ـ ١٢ ـ ١٣

٧ ـ المهتم بالتفاصيل يمكن مراجعة : بونداريفسكي ـ مصدر سابق من ص ١٣ الى ص ٢١

٨ ـ مدرسة العشائر الامبراطورية : موسوعة « ميدان لاروس » اصدار دار المعارف التركية (باللغة التركية) الجزء الاول ص ٧٨٥

٩ ـ داغر اسعد : مصدر سابق ص ٥٢

١٠ ـ داغر اسعد : مصدر سابق ص ٥١ ـ ٥٢ ـ ١١٥

١١ ـ موسى سليمان : مصدر سابق ص ٥٨ ـ ٥٩

١٢ ـ دروزة محمد عزت : نشاة الحركة العربية الحديثة ـ دمشق ١٩٧١

١٣ ـ محي الدين د . جهاد محمد (جامعة البصرة » : المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا (دراسة) في كتاب ـ المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ـ الجزء الثاني جامعة دمشق ـ كلية الاداب ـ ص ٣٧٠

نقلاً عن : جمال باشا ـ مذكرات جمال باشا السفاح ـ تعريب احمد شكري ـ بغداد ١٩٦٣ ص ٢٤٣

١٤ ـ محي الدين د . جهاد محمد : مصدر سابق ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

عن : الحكيم يوسف ـ بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ـ بيروت ١٩٦٤ ص ٢٣٤

١٥ ـ المصدر نفسه ٢٧٢

١٦ ـ المصدر نفسه ٢٧٢

١٧ ـ المصدر نفسه ٢٧٩ ـ ٢٨٠

١٨ ـ سعيد مين : الثورة العربية الكبرى ـ الجزء الاول ـ القاهرة ص ٧٣ .

* اي قبل تاسيس الحركة الصهيونية رسمياً اثر انعقاد مؤتمر بال في سويسرا بسنة .

١٩ ـ الحوت بيان نويهض : القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) اصدار مؤسسة الدراسات الفلسطينية (م . ت . ف) بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٨١ ص ١٣

** نلاحظ من هذه الرسالة الملاحظات التالية :

١ ـ يعتبر السلطان ان فلسطين ارض تركية ، وليست عربية او حتى عثمانية . عندما يقول انها ملك للشعب التركي .

٢ ـ يعترف السلطان بالمقاومة العنيفة التي لاقاها الجيش التركي عند احتلاله لفلسطين . وهذه الحقيقة تدحض الافتراء الاول .

٣ ـ من الواضح ان السلطان لا يريد قطع علاقته مع هرتزل فوجه رسالته على شكل نصيحة وعن طريق طرف ثالث .

ملاحظة : المقصود بالاسرائيليين ـ الطائفة الاسرائيلية ـ اي اليهود) .

٢٠ ـ صايغ انيس : يوميات هرتزل ـ إصدار ـ مركز الابحاث (م ت ف) بيروت ١٩٦٨ ـ ص ٣٥ .

* نلاحظ في هذا القانون ما يلي : ـ

١ ـ ان السلطان عبد الحميد يلقي اللوم والمسؤولية على بعض الموظفين ، لكنه وهو الدكتاتور المتصلب لم يقم بمعاقبة اي موظف على مخالفته لقضية اساسية مثل هذه القضية .

٢ ـ في الواقع ان سبب إصدار هذا القانون ليس فقط شكوى متصرف القدس ، بل عرائض الاحتجاج من وجهاء القدس وفلسطين المتتابعة التي كانوا يطالبون الباب العالي فيها باتخاذ إجراءات لمنع الهجرة . وكانت اول عريضة قد قدمت عام ١٨٩١ .

٣ ـ ورغم كل ذلك فقد سمح بالزيارة الجماعية . ومن المعروف لدى السلطان طالما ان صديقة هرتزل قد عرض عليه علنا شراء فلسطين . ان مثل هذه الزيارات تنظمها الحركة الصهيونية بهدف الاستيطان وليس الزيارة .

٢١ ـ الدجاني احمد صدقي : عبد الحميد في التاريخ (مخطوطة لم تنشر) ص ٩٨ ـ ٩٩ (نقلا عن وثيقة بالتركية في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب)

كما ورد في كتاب :

الحوت بيان نويهض : مصدر سابق ص ١٥

٢٢ ـ صايغ انيس : مصدر سابق ص ٣٥

٢٣ ـ مفتاح احمد : معبد افروديته المقدس وسكين الجزار التركي (دراسة) صحيفة ١٤ اكتوبر اليمنية الديمقراطية ـ العدد ١٩٨٦/٦٨٢١

٢٤ ـ Ben Holpern - the Idea of Jewish State Massa - Chusettes 1961 p - 105

٢٥ ـ الدجاني احمد صدقي : مصدر سابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧

٢٦ ـ المهتم في هذا الموضوع يمكنه مراجعة : ـ

الحوت بيان نويهض : مصدر سابق الصفحات من ٤٠ الى ٤٤

٢٧ ـ النحال د . محمد سلامة : سياسة الانتداب البريطاني حول اراضي فلسطين العربية ـ منشورات فلسطين المحتلة (حركة فتح) الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٨١ ص ١٩ .

* الاراضي المدورة : وهي الاراضي التي كانت تخص السلطات سابقاً ـ واستولت عليها الحكومة العثمانية كأملاك دولة ـ وتسمى هذه الاراضي بالمدورة او المنتقلة ، لانها انتقلت من ملكية السلطان الخاصة الى ملكية بيت المال بعد الثورة التركية عام ١٩٠٨ م .

(النحال د . محمد سلامة : مصدر سابق ص ٤٧ ـ ٤٨)

٢٨ ـ الدباغ مصطفى : بلادنا فلسطين ـ الجزء الاول ـ الجزء الاول ـ دار الطليعة بيروت ١٩٦٥

٢٩ ـ عوض د . عبد العزيز : مصدر سابق ص ٧٨

٣٠ ـ كوثراني وجيه : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠ ـ ١٩٢٠) بيروت ١٩٧٠ ص ٩٩

٣١ ـ موسى سليمان : مصدر سابق ص ٢٢ ـ ٢٣

٣٢ ـ موسى سليمان : المصدر نفسه ص ٢٣ ـ ٢٤

٣٣ ـ الأعظمي احمد عزت : مصدر سابق ص ٤٨ ـ ٥٠

٣٤ ـ موسى سليمان : مصدر سابق ص ٣٢ ـ ٣٣ .

٣٥ ـ الاعظمي احمد عزت : القضيـة العربية ـ بغداد (١٩٣١ ـ ١٩٣٤) الجزء الثالث ـ ص ٣ .

P.R.O., F.O.371 / 2087

٣٦

انظر بهذا الشأن :

موسى سليمان : مصدر سابق ص ٢٧ ـ ٢٨

Zeine ,N : Arab - Turkish Relations P . 132

كما ورد في دراسة : محي الدين د . جهاد محمد ـ مصدر سابق ص ٣٨٧

٣٨ ـ داغر اسعد : مذكراتي على هامش القضية العربية ـ إصدار القاهرة ـ دار القاهرة للطباعة ١٩٥٩ ص ٦٩

٣٩ ـ الدجاني حسن صدقي : تفصيل ظلامة فلسطين ـ اصدار القدس المطبعة التجارية ١٩٣٦ ص ٢٢ ـ ٢٣ .

القسم الثالث

بلغاريا :
من الاحتلال العثماني الى الاشتراكية

البلقان تحت نير الاحتلال العثماني

شهدت منطقة البلقان ، منذ بداية القرن الثالث عشر ، صراعات وانقسامات دامية بين دولها من ناحية ، وبين أمرائها المتنازعين على السلطة من ناحية ثانية ، خاصة بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م . امام الحملة الصليبية الرابعة . وقيام الامبراطورية اللاتينية الشرقية .

وقد استمرت هذه التناقضات تعصف في منطقة البلقان ، كنتيجة مباشرة لتدخل الامبراطوريات الاوروبية الكبرى ، واطماعها . فمنذ عام ١٣٣٠ تعرضت بلغاريا للتجزئة ، فسلخت عنها « مكدونيا » لصالح ملك الصرب (١٣٣١ ـ ١٣٥٥) ونتيجة لذلك بدأت التناحرات بين الامراء البلغار خاصة ، وأمراء البلقان عموماً ، وراح كل واحد يستقل باماراته . دون ان يفطنوا الى الخطر الذي يتهددهم .

«على ان عام ١٣٥٢ يستدعي التوقف عنده بحدث ذي اهمية حقيقية لم يفهمها مؤرخو العصر : فقد تغلغل الاتراك عميقاً في شبه الجزيرة البلقانية واحتلوا قلعة « ترزمبي » وبعد ذلك بعامين ، حصلوا على نقطة ارتكاز ثانية هي حصن « غاليبولي » .. وفي عام ١٣٧١ كانت معركة « تشيرنومين » ـ وهي قرية على نهر « ماريتسا » في تراقيا الشرقية . وبعد الانتصار العثماني توالى سقوط المقاطعات البلغارية في شمال ـ شرقي تراقيا ، وفي عام ١٣٨٢ استسلمت « صوفيا » بعد حصار طويل ، وفي عام ١٣٨٩ سُحق الصربيون رغم مقاومتهم في معركة « كوسوفوبولي » واخضعت بلادهم للحكم التركي ، وفي عام ١٣٩٣ وبعد حصار دام ثلاثة اشهر سقطت العاصمة البلغارية « ترنوفو » وفي عام ١٣٩٦ سقطت مملكة « فيدين » آخر معاقل البلغار ، وبذلك اصبحت جميع الاراضي البلغارية تحت نير الحكم العثماني(١) .

لقد واجهت هذه الاحتلالات مقاومات عنيفة من قبل الشعوب البلقانية ، الا ان العنف والارهاب والتدمير الذي مارسه الجيش العثماني بالمقابل ، كان الى حد لا يمكن وصفه ، وكان السلاطين والقادة العسكريون يقصدون من هذا العنف ، ارهاب ابناء هذه الشعوب ، وتدمير جذور المقاومة في اعماقهم ، لمنعهم من

التفكير بمستقبلهم المستقل . فاحرقت المدن ، والقرى ، وقتل الشيوخ والاطفال والنســاء ، برغبـة صادقـة في التـدميـر . والمجلدات لا تتسـع لشـرح ما سببه الاحتـلال العثمـاني لبلغـاريـا من آلام ومـآسٍ . ويكفي ان نستشهـد بمـا كتبه المؤرخ البلغاري « نيكولاي تودورف » حول احتلال الجيش التركي للعاصمة « ترنوفو » :

« ... هاجم الملك « بايـزيـد » مدينة « ترنوفو » على حين غرة ، وحاصرها من جميـع الجهـات ، كان المتوحشون قد وسعوا رقعة انتشارهم ، وكان البربري في حالة هيجان شديد فكان يهدد باحراق السكان وبتمزيقهم ارباً ارباً ، او اي نوع من المـوت العنيف (..) اذا اصـروا على عدم الاستسـلام . وقـد بلغ هدفـه ، ودخـل المـديـنـة ، ودعـا العسكري الذي يحكم المدينة بامر من السلطان الرجال الـذين كانـوا يفـوقـون الآخـرين مكـانة ونبلاً ومزايا ، ليتشاور معهم حول بعض القضـايـا ذات النفـع العـام ، وقد انطلقت الحيلة عليهم ، فساروا وراء المتسلط الضـاري كالخـراف وراء جزارها ، كل يحمل دمه متعجلاً وضـع نفسه تحت رحمة الخـدع القـاتلة ، ولمـا وجـدهم الـوحش الـدمـوي بين يديـه ذبحهم في صحن الكنيسـة وتـرك السكـاكين تنغـرز في اعناقهم .. ولما خرج الناس كان المنظر يبكي حتى الحجـارة الصمـاء في هذه المـدينة ، ذلك لان الاطفال كانوا يفصلون عن آبـائهم ، والاقـارب عن اخـوتهم ، اذا لم يكـونوا منفيين الى نفس المكان .. كانـوا ينفـون هؤلاء الـذين يتميـزون عن الآخـرين بنسبهم او غنـاهم ، او جمال وجههم ، بينمـا يتـرك الآخـرون ، كانت ايـام بكـاء ، فاي شيء امـرُّ من النفي ، واصعب من فراق الاهل ، عندما تخترق القلب ذكرى الوطن والاقارب ؟ لقد كانوا يتعانقون ، ويتودعون ، وتمتلىء جوانب الامكنة باصداء نحيبهم »(٢) .

هذا المشهـد الجمـاعي بالاضافة الى تدمير وحرق المنازل ، وسبي النساء ، واعـدام الشبـاب ، كان يتكرر حيثما وصلت الجيوش العثمانية من قرى ومدن في جميع انحاء البلقان .

وفي تحليلنـا لدوافـع هذه السيـاسـة الـدموية التي مارسها العثمانيون ضد شعـوب البلقـان ، لا يمكننا الاكتفاء بالاعتقاد ان ذلك عائد فقط الى كون القبائل التركية متخلفة ، ومن الطبيعي ان تمارس هذا الاسلوب عندما تسيطر على شعوب

اكثـر حضـارة ورقيـاً ، ومـع تأكيدنا على اهمية هذا الدافع ، الا ان هناك دوافع « سيـاسيـة » لا تقل أهمية عنه ، واذا ما تتبعنا الاحداث فيما بعد يمكننا اجمال الدوافع بما يلي :

١ ـ موقـع دولـة البلقـان ، الـذي يجعل حدود الدولة العثمانية على تماس مع الدول الاوروبية الكبرى ، خاصة (روسيا ، المانيا وبيزنطة) .

٢ ـ نتيجـة لذلـك اراد العثمـانيـون تدميـر المقومات الشخصية لانسان هذه الشعوب ، لانتزاع اية نزعة للتمرد او العصيان في المستقبل .

٣ ـ تهيئـة هذه الشعـوب نفسيـاً عن طريق « الـرعب » واخضاعها للسياسة العثمـانيـة اللاحقة (اعتناق الاسلام ، والتتريك) وذلك عن طريق تدمير وتذويب الهوية القومية لهذه الشعوب .

٤ ـ ارهـاب الشعـوب والاقـوام الاخرى ، في اوروبا والشرق ، لجعلها نفسياً تستسلم للقوات العثمانية الزاحفة .

٥ ـ الحقـد القـومي على الاقـوام غيـر التركية ، مترافق مع نزعة دينية لتزعم العـالم الاسـلامي ، واقتناص الخلافة ، عن طريق نشر الاسلام بقوة السيف في المناطق غير المسلمة .

هذه الدوافع قد بصمت السياسة العثمانية ، ليس فقط ضد شعوب البلقان بل شملت جميع الشعوب والاقوام التي بسطت دولتهم نفوذها عليها ، الا ان العامل الجغـرافي والـديني ، زاد من بؤس الشعـوب البلقـانيـة ، وهكـذا خضعت هذه الشعـوب لثـلاثـة انمـاط رئيسيـة من الاضطهاد (حسب السياسة الاجتماعية العثمـانيـة) اضطهـاد طبقي على أيـدي الولاة الاتراك ، والشوربجيين ، وجباة الضـرائب ، والاقطاعيين ، واضطهاد قومي في اطار السياسة العنصرية التركية لسـلاطين وقـادة الـدولة العثمانية ، واضطهاد ديني (خارج عن اصول التعاليم الدينية الاسلامية) .

وعلى الرغم من تفكك دول البلقان وصراعاتها ، الا ان الاحتلال العثماني ، وما رافقـه من اضطهـاد وتـدميـر ، قد ولـد لدى شعـوبهـا شعور الاعتزاز القومي ، والتعاضد فيما بينها امام هذا الخطر الداهم ، الذي يستهدفها جميعها ، فقامت الثـورات والانتفـاضـات الشعبيـة المتعـددة في كل منطقـة ، بالاضـافـة الى

الانتفـاضات والثورات المشتركة ، التي شارك فيها مقاتلون من مختلف الشعوب البلقانية للتخلص من نير الاحتلال العثماني ، ولتتمكن في نهاية الامر من انتزاع حريتها واستقلالها . بعد ان قدمت مئات الآلاف من الضحايا ، واضعة بذلك حداً لمسلسـل الآلام الـدموية التي كانت تمارسها الدولة العثمانية ضد هذه الشعوب ضمن سياستها « الطورانية » العنصرية الحاقدة .

هذه الآلام الـدمـويـة التي سببتهـا السياسة العثمانية ، قد وقعت على كاهل شعـوب البلقـان دون استثناء . الا اننا في هذا الفصل سوف نتعرض بالتفصيل الى انعكاسات هذه السياسة على الشعب البلغاري ، لسببين رئيسيين :

الاول : حجم الآلام التي لحقت بالشعب البلغاري نتيجة الاحتلال العثماني ، انطـلاقـاً من موقع بلغاريا الاقرب الى عاصمة الدولة العثمانية واعتبارها امتدادا جغـرافيـاً لتـركيا . اي ان العثمانيين كانوا يفكرون باحتلال دائم لبلغاريا ، مهما كلف الامر .

الثـاني : لالقـاء الضـوء على اهـداف الحملة السياسية التي تقوم بها الدول الامبـريـاليـة بقيـادة الولايات المتحدة الاميركية اليوم ضد بلغاريا ، عبر تركيا ، مستغلة الجـذور التـاريخيـة للنزعة « الطورانية » العنصرية لدى الطبقة التركية الحاكمة ضد الشعب البلغاري .

فمنـذ بدايـة احتـلال العثمانيين لبلغاريا ، ادخلوا تغييرات كبيرة على تركيب المجتمـع البلغـاري ، لرسمـه حسب تركيب المجتمـع التركي نفسه ، واخضعوه بالتـالي لكـل قوانين الـدولـة النافذة ، من ضرائب مختلفة وغيرها ، وهكذا سيطر الحـزن على نفـوس البلغـار ، وهم يشاهدون بام اعينهم ان احتلالاً ثقيلاً وطويلاً سيجثم على صدورهم ، وان ممـارسـة عنيفـة قد بدأت ، لتـذويب شخصيتهم ، وهـويتهم القـومية (سياسة التتريك) . وقد استخدم الاتراك مختلف الوسائل واكثـر الاسـاليب « فاشيـة » في حملتهم لتتـريـك الشعب البلغـاري ، وتـدميـر شخصيتـه القومية مثل : الحملات العنيفة لحمل البلغار على اعتناق الاسلام وفرض ضريبة الدم ، وتفريق الاسر البلغارية عن طريق النفي المستمر . وزيادة الضـرائب لحمـل الفـلاحين على ترك اراضيهم . بالاضافة الى اغلاق المدارس البلغـاريـة ، والاستعاضة عنها بالمدارس التركية المتخلفة على اساس المناهج

التعليميـة العثمـانيـة ، ومنـع التخاطب إلا باللغة التركية في الولايات والسناجق البلغـارية ، بالاضافة الى تدمير المرافق الثقافية ، والكنائس ، ومنع الاحتفالات والمراسم المرتبطة بالتراث القومي البلغاري .. الخ .

غير ان سياسة التتريك هذه القائمة على العنف والارهاب ، لم تسر في الطريق الـذي رسمتـه السياسة العثمانية .. بل على العكس من ذلك خلقت ردة فعل عند السكان البلغار . واصبحت محرضا دائما لهم لاعلان التمرد والعصيان .

«لـذا وجـد الاحتلال التـركي نفسـه امام مقاومة ضارية شملت انحاء البلاد البلغارية كلها ، رفعت شعارات الحرية والتحرر باشكال مختلفة ، فانتشر رجال « الهـايـدوت »(*) في الجبـال والغابات ، وراحوا يغيرون بتشكيلات قتالية على مواقـع العثمـانيين ويـوقعـون فيهم الخسـائـر معـاقبين ايـاهم على جرائمهم ، وبـالاضـافـة الى ظاهـرة « الهايدوت » وقبلها فقد جرت انتفاضات كبرى قام بها الشعب البلغـاري ضد العثمـانيين في الاعـوام (١٤٠٣ ، ١٤٤٣ ، ١٩٤٤ ـ ١٩٤٤ ، ١٥٩٣ ، ١٥٩٨ ، ١٦٨٣ ، ١٦٨٦ ، ١٦٨٨) لكـن متتبـع هذه الانتفـاضـات يرى : انهـا لم تقم نتيجـة لنضوج الظرف الذاتي ، بل كانت مرافقة للحروب التي كانت تشنها روسيا والنمسا وهنغاريا ضد الدولة العثمانية ، فكانت الآمال تتفجر في نفـوس البلغـار فيثـورون على مضطهـديهم ومحتلي اراضيهم ، الا ان هذه الانتفـاضـات كانت تفشـل مع فشل الحملات نفسها امام الاتراك ، مع مزيد من المهاجرين والضحايا البلغار(٣) .

« ونستطيع القول ، ان أهم الانتفاضات والمقاومة التي قام بها البلغار هي تلك التي رافقت الحـرب الـروسيـة ـ التـركيـة بمـرحلتيهـا (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) و(١٧٨٧ ـ ١٧٩١) حيث ساد البلغـار شعـور جامـح نحو الحرية ، يحدوه أمل بانتصـار روسيـا على العثمـانيين ، فتـدفق آلارف المتطـوعين البلغـار وشكلوا الـوحـدات المقـاتلة ، بالاضـافة الى ازدياد اعداد « الهايدوت » المدعومين من السكـان المحليين ، واستمر هذا الشعور ، واتسعت المشاركة في المقاومة حتى نهاية الحرب الروسية ـ التركية »(٤) .

وعلى الـرغم من فشـل هذه الانتفـاضـات الا انها قد خلقت القاعدة الاساسية لتنـامي وتبلور الشعـور القومي .. لانها خلقت عملية مترابطة ومستمرة من الفعل

ورد الفعـل ، فالانتفـاضــات كانت تجعـل العثمـانيين يقومون بحملة قتل وتدمير جديـدة ، والنتيجـة بالنسبـة للبلغـار مزيـد من التمـرد والعصيـان والتـوق الى التحـرر .. ونتيجـة للاجـراءات القمعيـة المتصـاعـدة التي كان يقـوم بها الولاة والاقطـاعيـون ، كان الفلاحون نتيجة اوضاعهم الصعبة ، يغادرون ارضهم ، لا للعمل كعبيد عند الاقطاعيين ، بل الى « الهايدوت » .

« فالفـلاحـون الـذين يرهنـون اسناد ملكيتهم لقاء مائة قرش تغدو الفاً خلال سنوات ، فكانوا يفكرون بصورة مغايرة ، كانت أحمال التبن العشرة تسجل من قبل محصلي الضرائب خمسة عشرة وذلك لخدمة الحكام ، والعشر اغنام تسجل خمسـة عشـرة من قبـل جامعي ضرائب الاغنام ، كان اولئك الفلاحون في وضع صعب حتى انـك حينمـا تتكلم اليهم عن اي نوع من انـواع الثـورة يطيعـونـك ويسيرون معك الى حيث تقودهم على امل الخلاص من هذا الشر »(٥) .

ومنـذ منتصف القـرن السـابـع عشـر بدأت سمـات الضعف تعتـري الحكم الـعثمـاني ، وقـد ساهمت في هذا الضعف عدة عوامـل : تواصـل الحمـلات والصـدامـات العسكـريـة مع كل من روسياوالنمسا وهنغاريا ، وازدياد الصراع والتنـافس بين رجـال الـدولـة والاقطـاعيين وكبـار التجـار والقادة العسكريين . وتمردات الولاة ، والعمل على تكديس الثروة بعيداً عن مصلحة الدولة ، وتمردات وانتفاضات الشعوب المتعددة في الدولة العثمانية .

هذا الضعف خلق وضعاً صعباً بالنسبة لبلغاريا وشعبها :

١ ـ لجأ الـولاة الى ارغـام الفلاحين على العمل في اراضيهم محددين لهم ما يجب زرعه مقابل اسعار زهيدة .

٢ ـ ازديـاد الهجـرة الى الاراضي البلغـارية من الاقوام الاخرى داخل الدولة العثمانية ، وقيامهم بالاستيلاء على الاراضي بالقوة ، خاصة القبائل التركمانية .

٣ ـ قيـام الـزمـر العسكـرية ، ونتيجة للانحلال والتفكك الذي اصاب الجيش بالاعتـداء والنهب ، وخطف النســاء والاطفــال ، وقتـل الـرجـال والشيـوخ من المواطنين البلغار .

٤ ـ انتشـار عصـابات قطاع الطرق الاتراك ، من الجنود الهاربين والخارجين عن القانون والمطلوبين للدولة وقيامهم بالاعمال الارهابية ضد السكان البلغار .

كل هذه التطـورات بالاضـافـة الى سيـاسة الدولة العامة التي تميزت بالقمع الـداخلي بعـد كل هزيمـة على الجبهة العسكرية ، او انتفاضة جماهيرية خلقت اوضـاعـاً في غايـة الصعوبة والآلام بالنسبة للشعب البلغاري ، لكنها في الوقت نفسـه شكلت أيضـاً حافـزاً قويـاً للثورة ، فتعاقبت الانتفاضات القوية والمؤثرة انتفاضة « بيرون » ١٨٣٦ ، و« بيركوفيتسا » ١٨٣٧ ونيش ١٨٤١ ، وفيدين ١٨٥٠ .

ويعـود الفضـل لهـذه الانتفـاضـات في بث الشعـور القومي في نفوس ابناء الشعب البلغاري ، وتبلور النضـج السياسي لدى قادته ومناضليه فيما بعد .

النهضة القومية البلغارية :

ان الاحـداث والظروف التي مربهـا الشعب البلغـاري تحت نيـر الاحتـلال العثماني قد تركت آثاراً بالغة المرارة في نفسه ، ولعل التعبير الاكثر وضوحاً ، هو ان « الاغنيات الشعبية في بلغاريا باسرها لم تكن تتكلم عن الحب الفتي وافراح الحيـاة العـادية واتراحها وحسب ، بل عن المخاوف التي تروى ببساطة متناهية تجعـل الـدمـاء تتجلد والقلب ينعصـر حتى يومنـا هذا . انهـا تتحدث عن فتيات ينتـزعن من بيـوتهن ويختطفن من اطفـالهن ويتم سوقهن بعيـداً مكبلات باغلال الاستـرقاق ، عن الحبيبات المخطوفات ، عن ارغام قهري لاعتناق الاسلام ، عن العذابات والاستجوابات . عن السجن والشنق »(٦) .

« وفي مراجعتنـا لكتب الادب البلغـاري ، من شعر ، وشعر شعبي ، وقصص وروايـات ، التي تحـدثت عن تلك المـرحلة ، نعـاين حجم الرعب الذي كان يتركه العثمـانيـون في نفـوس ابنـاء الشعب البلغـاري ومدى الوحشية والهمجية التي مورست ضده »(٧) .

الا ان هذه الآلام والمصائب التي حلت بابناء الشعب البلغاري بالمقابل ، قد ساهمت مساهمة فعالة في استنهاض الشعور القومي لديه ، ويرتبط هذا النضج بانتصـار التيار الثوري الديمقراطي في حركة التحرر القومي ، الذي كان الفضل يعود فيه الى «جيورجي راكوفسكي » (١٨٢١ ـ ١٨٦٧) الذي يعتبر اول قائد

ومنظر أيدولوجي للثورة القومية البلغارية ، حيث اعد خطة لتحرير بلغاريا عن طريق الكفاح المسلح ، واستثمار العوامل الخارجية التي كانت تعصف بالبلقان عموماً ، فانشأ الوحدات المسلحة التي عرفت باسم « الشتا » وراحت تقوم بعمليات عسكرية خاطفة بحماسة وجرأة .

وبعد وفاة « راكوفسكي » جاء « لوبين كاراميلوف» و« فاسيل ليفسكي » فوضعا بدايات مرحلة جديدة لتطوير حركة التحرر القومي ، وكتبا العديد من المقالات التثويرية التحريضية في الصحف والمجلات والنشرات ، وقام « ليفسكي » بتنظيم البلغار بجهد كبير في خلايا ثورية .. في هذه المرحلة تم التوفيق لاول مرة بين الافكار الثورية والممارسة النضالية للتحرر من نير الاحتلال ، ونستطيع القول ان هذه المرحلة هي بداية المسيرة الفعلية والصحيحة باتجاه التحرر ، وانجاز الثورة الديمقراطية فيما بعد .

وعلى الرغم من اعدام «.ليفسكي » (١٨٧٣) الا ان المسيرة استمرت لانها كانت قد بدأت بشكل عميق وراسخ ، فجاء الشاعر « خريستو بوتيف » الذي بدأ يعد لانتفاضة بلغارية شاملة ضد الاحتلال ، بشعارات قومية ضخمة « ما من سلطة على الرأس المستعد ان ينفصل عن منكبه من اجل الحرية وسعادة الانسانية جمعاء »(*) لقد الهب هذا الشعار وغيره مشاعر المناضلين البلغار ، فكانت انتفاضة نيسان ١٨٧٦ ذروة العداء للاحتلال العثماني في مسيرة حركة التحرر البلغارية خلال القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من ان العثمانيين قد انهوا هذه الانتفاضة بشكل وحشي ودموي ، الا انها تظل علامة بارزة في مسيرة الشعب البلغاري نحو التحرر واثبات ذاته القومية .

ولقد تميزت هذه المرحلة من الناحية الفكرية والنضالية بانضمام غالبية الكتاب والفنانين الى النضال ، ليس فقط بنتاجاتهم الابداعية ، بل وبانخراطهم الفعلي في صفوف المناضلين المقاتلين ، فكانت الغالبية العظمى من ابطال بلغاريا الوطنيين والشخصيات التاريخية الاكثر وقاراً رجالاً من رجال النهضة الثوريين ، اما الرهبان والمعلمون والفنانون والمهندسون فقد احتسبوا من بين هؤلاء ذلك ان النهضة لم تكن مجرد عصر من الاضطرابات واراقة الدماء وحسب ، بل كانت ايضاً عصراً للجمال والعلم ورمز اليها بصورة متساوية بين

اطفـال المـدارس الـذين ينشـدون الترانيم لمبدعي الابجدية السلافية والفتيان الذين يتدلون من حبال المشانق »(٨) .

« لقـد كان « البطـل » في الادب البلغـاري ـ من شعرونثر ـ هوذلك الانسان الـذي ينـاضـل ضد العثمـانيين الـذين يحتلون بلاده ، بدوافـع قوميـة بالدرجة الاولى ، ويتـوق شوقـاً الى رؤيـة اليـوم الـذي ترفـرف فيـه في سماء بلاده راية الاستقـلال والحـريـة ، دون ان ينسى الظـروف القـاسية التي يعيشها السواد الاعظم من أمته مّن فاقة وحرمان ، بسبب خضوع بلاده للباشوات الاجانب الذين كانوا يسرقون قوت الناس بالتعاون مع « الشوربجين » اي الاقطاعيين المحليين المرتبطين بالمحتلين »(٩) .

لقـد لعبت الثقـافـة والمثقفـون دوراً بارزاً في وضـع القاعدة الفكرية الصلبة لانبعـاث الفكـر القـومي البلغـاري الجديد ، وقد انطلقت هذه الثقافة اساساً من التمسـك باللغـة السـلافيـة (البلغارية) فانشأ المعلمون المدارس وقام الكتاب بوضع المناهج مركزين على جماليات هذه اللغة ، وعلى الرغم من ان هذه النهضة القـوميـة ، والثقـافية كانت متأخرة عن ثقافة ونهضة شعوب اوروبا الغربية ، الا انها تبقى موضع اعتزازوفخر بالنسبة للشعب البلغاري ، لان تلك الشعوب لم تكن تتعـرض للاحتـلال وسيـاسـة التتـريـك وتـدمير الحضارة ، كما كان يحدث في بلغـاريـا .. وهذا هومغزى صرخة « جيورجي ديمتروف » امام الفاشيين الالمان في « محكمـة لايبـزغ ، بعـد اتهامه بحريق « الرايخستاغ » ليسمع من كان في القاعة وعلى رأسهم النازيون :

« ... صحيح ان الفاشية البلغارية متوحشة وبربرية ، لكن العمال والفلاحين البلغـار لكن المثقفين البلغـار ليسوا متوحشين ولا برابرة، واعترف ديمتروف ان ثقـافـة البلقـانيين التعليميـة هي الآن ادنى مستـوى من ثقـافـة باقي البلدان الاوروبيـة الاخـرى ، لكن ثقـافـة الجمـاهيـر البلغـارية ليست ادنى مستوى لا سيـاسيـاً ولا روحياً ، من ثقافة الجماهير الاوروبية ، فأردف : في زمن موغل في القـدم وقبـل ان يقـول الامبراطور الالماني « كارل » انه لا يكلم بالالمانية سوى جيـاده ، وحين كانت الحاشية والمتعلمون يكتبون بالاتينيه في المانيا ويخجلون من لغتهم الالمـانيـة ، كان الـراهبان « كيرل » و« ميثودي » قد وضعا ونشرا في

بلغاريا ـ الكتابة البلغارية القديمة ـ ومضى ديمتروف قائلاً : انا فخور كل الفخر باني ابن هذا الشعب الذي عاش ٥٠٠ سنة تحت حكم اجنبي ، دون ان يفقد لغته وقوميته »(١٠) .

وحسب دراستنا لتاريخ تلك المرحلة ، وتحليلنا لمعطياتها ، فان انبعاث اليقظة القومية ، وانطلاق الثقافة القومية البلغارية الجديدة قد بدأ فعلياً اعتباراً من النصف الثاني للقرن الثامن عشر ، حيث بدأت المرحلة الاولى من التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي للشعب البلغاري ، وشواهد هذه اليقظة هي التالية :

١ ـ بدء مرحلة الانتقال من عصر الاقطاع الى عصر رأس المال ، وما رافقها من تطور مضطرد في الصناعة ، والزراعة والتجارة مما جعل ثورة الشعب البلغاري في تلك المرحلة : ثورة برجوازية وطنية ديمقراطية معادية للاقطاع والسيطرة والاحتلال الاجنبي من اجل التحرر الوطني والاستقلال السياسي والسيادة الوطنية .

٢ ـ ظهور التضامن البلقاني ، ضد الاحتلال العثماني ، وارتباط انتفاضات شعوب دول البلقان مع بعضها ، ومشاركة مناضلين من دول بلقانية متعددة في انتفاضة شعب بلقاني آخر .

٣ ـ نضال من اجل التعليم العلماني المستقل ، بعيداً عن المدارس الدينية التي لعبت دورها كمدارس للتعليم طوال فترة طويلة من نير الاحتلال العثماني في مواجهة المدارس التعليمية اليونانية التي كانت تجتذب عدداً كبيراً من الفتيان البلغار ، فأقيمت اول مدرسة علمانية بلغارية عام ١٨٣٥ في مدينة « غابروفو » وبعد مدة لم يعد هناك اي تجمع سكاني بلغاري في جميع انحاء بلغاريا بدون مدرسة علمانية .

٤ ـ تطور الادب والصحافة الدورية الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الاعمال التربوية ، مما خلق الارضية الموضوعية لانتشار الثقافة القومية فبلغ عدد الكتب التي نشرت في بلغاريا ما بين الاعوام ١٨٠٦ ـ ١٨٦٩ (١٨٧١) كتاباً مختلفاً باللغة البلغارية .

كما بلغ عدد الدوريات الصحفية ما بين الاعوام ١٨٢٨ ـ ١٨٧٨ (١١٠) دورية صحافية مختلفة .

٥ ـ النضـال من اجـل كنيسة قومية مستقلة .. حيث كانت الكنيسة اليونانية هي المسيطـرة على الكنيسـة البلغارية ، وقد قام بهذا النضـال الرهبان البلغار ، ورجال الفكر والمثقفون ، وخلفهم الشعب البلغاري باسره ، وقد تكلل هذا النضال بالنجـاح : ففي عام ١٨٤٨ شيـدت في القسطنطينية الكنيسة البلغارية الاولى ، والتي غدت منـذ ذلـك التـاريـخ مركـز نضـال مستمر في سبيل كنيسة مستقلة ، والاعتراف بالقومية البلغارية .

٦ ـ نضال ثوري مسلح ، على قاعدة استنهاض الشعور القومي البلغاري من اجل التحرر والسيادة القومية (كما سبق واشرنا) .

هذا النهـوض القومي ، كان قد وضـع فعلاً البدايات الحقيقية لرحيل الاحتلال العثماني ، بكل ما سببه من آلام ومجازر وحشية دامية(*) .

بلغاريا والمصالح الامبريالية

« الحـريـة والاستقـلال » كانـا أمل الشعب البلغاري الدائم منذ اليوم الاول للاحتـلال العثمـاني ، وقـد عبر ابناء الشعب البلغاري عن التطلع اليها بمختلف الاشكـال والـوسـائـل ، ابتـداء من تصاعد الشعور القومي المعادي للمحتلين ، وحتى الكفاح المسلح ، والتضحية اللامحدودة للتخلص من هذا الاحتلال ، لكن القوة العثمانية المتعاظمة كانت دائماً تحول دون تحقيق هذا الامل ، بل وتفرض بدلاً عنـه مزيـداً من القتـل والتـدمير والتتريك والتهجير ، لذا كان البلغار دائما ، وعبـر قواهم الثـوريـة يتطلعـون الى بروز ظرف موضـوعي يساعدهم على تحرير بلادهم ، وكما اشرنا سابقاً فاننا نلاحظ ان غالبية الانتفاضات التي قام بها ابناء الشعب البلغـاري ترافقت مع الحـرب الـروسيـة ، والنمساوية ، والهنغارية ضد الامبراطورية العثمانية .

الا ان الشعب البلغاري كان يركز رهانه دائما على روسيا ، وهذا الشعور يعود اسـاسـا الى اواصـر الصـداقة التي تربط بين الشعبين الروسي والبلغاري عبر التـاريـخ والجـذور الثقـافيـة العميقـة (اللغـة السـلافيـة ، ومواجهة الغزوات الهمجيـة .. الـخ) لقـد كانت روسيـا في ذلـك الـوقت قوة كبيـرة ، تهـابهـا

الامبـراطـوريـات الاخـرى ، لذا فان غالبية القوى الثورية كانت تطالب بعلاقات متميزة مع الروس .

لهذا السبب فقد استقبل الشعب البلغاري بحماسة جنونية خبر اعلان الحرب الـروسيـة ـ التـركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) على اعتبار انها الامل القوي والممكن لتحـريـر بلغاريا ، بغض النظر عن أهداف القيصرية الروسية السياسية من تلك الحرب . لقد رأى البلغار ثلاثة ركائز لهذا الامل الجديد :

١ ـ ضعف القـوة التـركية ، نتيجة الخلافات الداخلية ، والتفسخ الاجتماعي داخل الامبراطورية .

٢ ـ تزايد القوة العسكرية الروسية ، وتأثيرها السياسي على مسرح اوروبا السياسي .

٣ ـ نضـوج الظرف التاريخي للحركة التحررية الوطنية البلغارية ، وامتلاكها القدرة على المساهمة بفعالية في هذه الحرب .

انـدفع المناضلون البلغار الى التطوع ، وتشكيل القوات العسكرية البلغارية للمشـاركـة في القتال جنباً الى جنب مع القوات الروسية ، وقد اضطرت الحكومة العثمـانيـة تحت ضغـط الضـربات العسكرية التي واجهتها الى طلب الصلح في معـاهـدة « سان ستيفـان » بتاريخ ١٢ آذار ١٨٧٨ ، حيث نصت المعاهدة على انشاء دولة بلغارية حرة .

نتيجـة لذلـك عمت الفـرحـة كافة انحاء البلاد البلغارية ، واقيمت الاحتفالات والمهـرجـانـات ، وارتفعت الاعـلام والزينات ، وخرج ابناء الشعب البلغاري عن بكرة أبيهم الى الساحات العامة ، متشابكي الايدي في رقصة « الهورو »(*) .

الا ان هذه الفـرحـة لم تدم ، ولكن هذه المرة ليس من قبل الاحتلال العثماني المبـاشـر ، بل من قبل الدول الامبريالية الغربية ، وخاصة بريطانيا التي رفضت الاعتـراف بهـذه المعـاهـدة ، وفي مؤتمـر « برلين » الذي انعقد لبحث المسألة البلقـانيـة بتـاريـخ ١٣ نيسان ١٨٧٨ ، ونتيجة لتفرد الموقف الروسي ، وتكالب الامبراطوريات الاخرى عليه ، عدلت الاتفاقية بحيث قسمت بلغاريا الى ثلاثة اجزاء :

١ ـ بلغاريا ـ امارة خاضعة للباب العالي .

٢ ـ روميليا الشرقية ـ منطقة مستقلة ادارياً تحت سيطرة السلطان .

٣ ـ يعاد ضم الاراضي الاخرى الى الامبراطورية العثمانية .

« ومن المهم التنويه في تلك الفترة الى انه في سياسة فرنسا وبريطانيا المتعلقة ببلغاريا والعلاقة بينهما وبين روسيا ، كان للدولتين سياسة ذات وجهين فبرغم ان فرنسا وبريطانيا كانتا متحالفتين مع روسيا الا ان الدولتين كانتا تمهدان لابقاء بلغاريا بعيدة عن روسيا ، وبناء على ذلك عملتا على ابعادها لقناعتهما انه حتى لو انضمت بلغاريا الى معسكرهما فان التأثير المباشر عليها سيكون لروسيا . وفي هذه الحالة سيكون بمقدور روسيا من خلال بلغاريا الوصول الى الممرات المائية ، مما يعطيها امكانية ودوراً مؤثراً في البحر الابيض المتوسط ، وبذلك تشكل روسيا تهديداً للمصالح الفرنسية والبريطانية »(١١) .

ومنذ هذا التاريخ بدأ التطور المستقل لبلغاريا ، ووضع لها أول دستور عام ١٨٧٩ وبالمقابل اصبحت بلغاريا محط انظار الدول الكبرى ، ومجالاً رئيسياً لتنافسها السياسي والعسكري والاقتصادي ، خاصة وانها تدرك ان حرباً عالمية اصبحت على الابواب . وعلى الرغم من ذلك فقد حصلت تطورات مؤقتة كانت في صالح الشعب البلغاري .

وعندما قامت ثورة « تركيا الفتاة » عام ١٩٠٨ ، رافق هذا الحدث اضراب عام لعمال الشركة الشرقية لتحديد خط سكة حديد جنوب بلغاريا ، وكذلك قامت وزارة الخارجية التركية بتنظيم حفل كبير للسلك الدبلوماسي ، ولم تدع الممثل السياسي البلغاري ، ورداً على هذه الخطوات ، اجرت الدولة البلغارية تفاهماً سريعاً مع الدولة النمساوية ، فاستولت على الشركة الشرقية ، وقدمت مذكرة احتجاج لوزارة الخارجية التركية على عدم دعوة ممثلها ، معتبرة ذلك اهانة لا يمكن السكوت عليها ، وبالفعل اعلنت الدولة البغارية استقلال بلادها في ٢٢ ايلول ١٩٠٨ .

وقد تميزت هذه الفترة من التاريخ بالنسبة لبلغاريا بالمميزات التالية :

١ ـ تطور اقتصادي سريع ، رافق الحرب الروسية ـ التركية ، قضى على العلاقات الاقطاعية لصالح التطور الراسمالي ، كان من نتيجته ان اصبحت بلغاريا سوقاً للمنافسة الاوروبية .

٢ ـ ادى هذا التطـور الى نمـو البـرجوازية الوطنية البلغارية ، وكذلك اتساع قطاع وفعالية الطبقة العاملة في المجتمع .

٣ ـ نضــال من اجـل التوحيد الوطني ، والتخلص من نتائج معاهدة « برلين » واعادة توحيد بلغاريا .

٤ ـ بروز قضيـة البلقـان ، واهميـة توحيـد شعـوبها للتحرر من نير الاحتلال العثماني كضرورة سياسية بالرغم من الاختلافات فيما بينها التي رسختها الدول الكبرى .

٥ ـ بروز الاحـزاب السيـاسيـة الاكثـر ثوريـة وديمقراطية ، خاصة حزبي : الاشتـراكية الديمقراطي (الذي تأسس عام ١٨٨٣ ، والذي تحول فيما بعد الى الحزب الشيوعي) وحزب الاتحاد الزراعي (الذي تأسس عام ١٩٠٠ والذي بدأ نشاطه كنقابة ، ثم تحول الى حزب سياسي) .

وقد لعب هذان الحزبان دوراً بارزاً ومتميزاً واساسياً في رسم مستقبل الشعب البلغاري ، منذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا .

٦ ـ على الرغم من الشعور باهمية التوحيد الوطني ، فقد ازدادت التناقضات الى حد كبير داخل الدولة البلغارية نفسها . وبين بلغاريا ودول البلقان وقد لعبت الدول الكبرى دوراً بارزاً في تأجيج هذه التناقضات .

ونلاحظ ان تطور الاحداث على الصعيد السياسي العسكري ، وعلى الصعيد الاجتمـاعي كان سريعـاً ، ولكن نتيجته وقعت على كاهل الشعب البلغاري ، فبعد اعلان الاستقلال ، ووضع أول دستور ، انتخب ، الكسندر باتنبرغ « اميراً على البـلاد » ثم وقـع اول انقلاب عسكري اطاح بالامير المنتخب ، بزعامة (ستيفان ستامبولوف) واختير (فرديناندي غوتا) اميراً لبلغاريا .

امـا على الصعيـد الآخـر ، فقـد تميـزت هذه المرحلة ـ كما اسلفنا ـ بتنامي الشعـور البلقـاني وبضـرورة تحـالف هذه الـدول ضد الحكم العثماني ، الا ان التنـاقضـات قد ازدادت بينها وكان اخطرها ما قام به ملك بلغاريا (فرديناندي) من مغـامـرة طائشـة حيث بدأ حربـه غربـاً وجنـوبـاً وانقض على بلاد الصـرب واليـونـان ، ضارباً بعرض الحائط مصالح بلغاريا ـ ونتيجة لفشله على الجبهتين تحملت بلغـاريـا نتـائـج كارثيـة فقـد اقتطعت بعض اراضيهـا حسب معـاهـدة

« بوخـارست » ممـا ادى الى سخـط شعبي بلغـاري واسع النطاق . فقام الجنود بانتفـاضـة ، رفضـوا معهـا القتـال على الجبهات ووجهوا سلاحهم نحو السلطة فاطـاحـوا بالملك واعـوانه ، واعلنوا جمهورية الجنود التي دامت اربعة ايام ، ثم قمعت بوحشيـة لم يسبق لهـا مثيـل ، لكن الملك بعـدهـا اضطـر للتنـازل لابنـة « بوريس » عن الـعـرش ، وارغم ابنـه ان يكلف زعيم حزب الاتحـاد الـزراعي لتشكيل الحكومة .

لقد بدات حكومة الاتحاد الزراعي بتحالف مع الحزب الشيوعي البلغاري ، ثم انتهت الى خلاف عنيف معه ، الامر الذي سرع الاحداث البلغارية وخلق الفرصة المنـاسبـة للقـوى اليمينيـة ، والضبـاط المغـامـرين ، ذوي النـزعـة الفـاشية للانقضـاض على السلطـة ، ناقلين بلغـاريا الى مرحلة جديدة في غاية الخطورة والتعقيـد . الا ان القـرار الاخطر الذي اتخذته الدولة في تلك الفترة ، هو الدخول في الحرب البلقانية عام ١٩١٢ ، ومن ثم الدخول في الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ انصيـاعـاً لرغبـة الـدول العظمى ، التي كانت قد شكلت معسكـريين رئيسيين (الحلف الثـلاثي ، والـوفـاق الثـلاثي) . فقـد كان هدف دول الـوفاق (روسيا ، بريطانيا ، فرنسا) اقامة سد مانع من دول البلقان بين المانيا وتركيا ، في حين كانت دول الحلف الثلاثي (المانيا ، تركيا ، النمسا) تريد تشكيل جبهة عسكـريـة واحـدة ومتـرابطـة من تركيـا الى المانيا . لكن السلطة الفاشية في النهـايـة اختـارت الـوقـوف الى جانب الحلف الثـلاثي في الحرب على الرغم من المعارضة الشديدة لابناء الشعب البلغاري .

« ان الـوثـائق الـدبلومـاسيـة والتـاريخيـة على اختـلافها تؤكد ، ان فقدان السياسة والدبلوماسية المرنة الواسعة الافق في ذلك الوقت من قبل حكومة رئيس مجلس الـوزراء ـ فاسيـل رادوسـلاف ـ ومن قبل الامير « فرديناندي » شخصياً هي التي كانت العـامـل الـرئيسي في عدم تحقيق حيـاد بلغاريا في الحرب ، مما عجـل في انضمـامهـا الى دول الحلف المـركزية ، ويكمن خلف هذا الدافع ظمأ البرجوازية البلغارية الى الثأر لهزيمتها القومية ، في حرب البلقان »(١٢) .

وعلى الـرغم من هزيمـة تركيـا في الحـرب العالمية الاولى ، وانتهاء احتلالها لبلغـاريـا ، الا ان بلغـاريا نفسها اصبحت اسيرة المصـالح الامبريالية المتعددة

الانحراف والاوجه ، واسيرة التخبط والاستغلال الذي مارسته البرجوازية البلغارية التي تحولت الى فاشية سوداء حملت الشعب البلغاري مزيداً من الآلام والفواجع .. والتي لم تتوقف الا عند انتصار الثورة الاشتراكية بقيادة الحزب الشيوعي البلغاري ، واعلان الدولة الاشتراكية الشعبية بقيادة « جيورجي دمتروف » رئيس الحزب ، وقائد الثورة ومنظرها . .

نضال الشعب البلغاري في تركيا الاوروبية :

حسب معاهدة برلين ، فان مقدونيا وتراقيا قد اعيدتا الى الاحتلال العثماني لكن ومنذ ذلك التاريخ ، وعلى الرغم من التطورات غير المواتية في الوطن البلغاري الام ، فان ابناء الشعب البلغاري في ذلك الجزء رفض الانصياع لهذا الضم القسري ، وكان حلمه الدائم هو التحرر ، والالتحاق مجدداً بوطنه وشعبه .

ففي عام ١٨٩٣ تأسست منظمة الثورة ، التي راحت تعمل على تعبئة واستنهاض الشعور القومي لسكان تلك المنطقة ، وراحت تعد العدة لانتفاضة شاملة للتحرر من الاحتلال العثماني ، الى ان وجد قادتها المجربون الفرصة السانحة فاعلنوا انتفاضتهم الشاملة ، التي عرفت باسم « انتفاضة ايليندينسلو »(*)

« انطلقت الانتفاضة الثورية في ٢ آب عام ١٩٠٣ وعمت كافة المدن والقرى في مقدونيا ، وتمكن الثوار من هزيمة الحاميات التركية ، وتم نسف الخطوط الحديدية وقطع الخطوط البرقية والهاتفية ، واحراق ثكنات الجيش التركي والسيطرة على التجهيزات العسكرية ، وتحرير مدن وقرى باكملها ، واعلن النظام الجمهوري في « كروشيفو» وجرت تحولات ثورية بقيادة الاشتراكي « نيقولا كاريف» . وقام السكان بانتخاب حكومة مؤقتة ، واطلق على المناطق المحررة اسم « كومونة استرانجا » لكن الحكومة السلطانية وجهت جيشاً جراراً يعد ٣٠٠ الف جندي لمواجهة ٢٦ الف ثائر .

لم يقف رد فعل السلطة العثمانية عند حد قمع الانتفاضة والتنكيل بالثوار ، بل صارت النتائج الى مصائب فادحة وقعت على كاهل الامة البلغارية في « مقدونيا

واردينسكـو » وعملت يد العسكـريـة الانكشارية بابشع اشكال القمع في المدن والقـرى البلغـارية ، وضد المواطنين البلغارفي مقدونيا ـ فقد احرقت ٢٠١ قرية بشكل تام و٠ ١٢٤٤ منزلاً في هذه المدن والقرى تحولت الى رماد ، كما ان ٤٦٤٤ شخصـاً قد قتلوا ، وقسمـاً كبيراً منهم احرقوا احياء ، كذلك ٣١٢٢ امرأة وصبية اعتـدي عليهن و١٧٦ امـرأة وفتاة اخذن كسبايا و٧٠٨٣٥ انساناً ترك في العراء و٣٠٠٠٠ شردوا من مقدونيا الى بقية انحاء بلغاريا »(١٣) .

« حتى ان هذه المصـائب التي حلت في المنطقـة نتيجـة القمـع الـوحشي العثماني لانتفاضة الشعب البلغاري ، لم تنل المواطنين البلغاروحدهم بل امتدت نتائجها الى بعض المواطنين والاملاك التركية في ذات المناطق »(١٤) .

لقـد اثـارت هذه المـذابـح موجـة عارمة من الاستنكار العالمي ، حتى داخل المعسكـر الامبريالي نفسه ، وخاصة بريطانيا ، وكان من الممكن الاستفادة الى ابعد الحدود من هذا الاستنكار لصالح الشعب البلغاري ووحدته القومية ، الا ان التطـورات ومـواقف الـدولـة البلغارية نفسها لم تكن على مستوى طموح ابنائها القـومي والتحـرري ، فكـان على ابنـاء هذه المنطقة ان يتحملوا اعباء عنصرية الحكم التركي ، ومصالح الدول الكبرى ، وتخلي البورجوازية البلغارية عنهم .

من هم المسلمون في بلغاريا ؟

تحـاول تركيـا الاستفـادة من الـرأي الخـاطيء الذي كان منتشراً في اوروبا المسيحية ، في اواخر عهد الدولة العثمانية (والبعض ما زال متمسكاً بهذا الرأي بهـدف توظيفـه لاغـراض سيـاسيـة) ومفاده بان المسلمين في اوروبا يجب ان يذهبوا الى آسيا التي جاؤوا منها ، لكي تبقى اوروبا مسيحية .

وبصـدد ذلـك يقـول المـؤرخ والباحث الفرنسي « آميبوية » الذي قام بثلاث رحـلات استكشافية في شبه جزيرة البلقان لاجراء دراسات ميدانية شاملة حول « اصل المسلمين » فيها :

« ... ان الاوروبيين ينسـون دائمـاً ان اكثرية المسلمين في تركيا الاوروبية هم من السـلاف ، او الالبـان ، الذين ينتمون الى هذه الاراضي منذ قديم الزمان

مثـل بقيـة المسيحيين من قوميتهم ، وجنسيتهم وان الاتـراك من آسيـا يشكلون جزءاً صغيراً من الـ « ٥ر٣ ـ ٤ » ملايين من المسلمين »(١٥) .

ويمضي « اميبوية » مؤكداً :

« .. ان الاكثرية الساحقة من المسلمين في بلغاريا الشرقية هم من المسلمين البلغار »(١٦) .

ليس فقـط « اميبـويـة » هو الـذي دحض هذا الرأي الخاطيء ، بل ان جميع الـوثـائق المـوجـودة في وزارة الخـارجية ، والمتاحف البلغارية ، التي اصبحت بمتنـاول المهتمين بهذا الموضوع ، من باحثين وصحافيين .. الخ ، تؤكد ذلك ، والاهم هو شعـور المسلمين البلغـار ، واعتزازهم بقوميتهم ، ورفضهم الربط بين اعتناقهم الاسلام ، والانسلاخ عن جذورهم القومية .

هذه الحقيقة الماثلة في بلغاريا اليوم ، والتي يؤكدها المسلمون هناك ، في كل يوم تقودنا الى سؤال : كيف اعتنق هؤلاء البلغار الدين الاسلامي ؟

لقـد وصـل المبشـرون بالـدين الاسـلامي الى شبه جزيرة البلقان منذ نهاية القـرن الثـالث عشـر وبـدايـة القـرن الـرابـع عشر الميلادي ، واستطاع هؤلاء المبشـرون ان يجـدوا لدعـوتهم صدى في بلغاريا ، واعتنق عدد قليل من البلغار الدين الاسلامي ، وغالبيتهم من انصار الحركة « البوغوميلية* » وكان من الممكن ان يستمـر ذلـك ، بهـذه الطريقة المعروفة في نشر الدعوة الاسلامية التي تعتمد على الحـديث النبـوي « لا اكراه في الدين » الا ان عام ١٣٩٦ قلب الامور رأساً على عقب .

في هذا العـام اصبحت بلغـاريـا المسيحيـة (ارثـوذكسيـة) بكاملها تحت الاحتـلال العثمـاني (المسلم) واخـذت عمليـة اعتنـاق الاسـلام من قبـل المسيحيين البلغـار منحى آخـر . فانطـلاقـاً من سيـاسـة التتريك « الرسمية » العثمـانيـة ضد الشعـوب الـواقعـة تحت احتلالها القسري . بدات عملية ارغام السكـان البلغار على اعتناق الدين الاسـلامي . كخطوة اولى لتتريكهم ، وسلخهم عن جذورهم القـوميـة ، تمهيداً لدمجهم في المجتمع « الطوراني » التركي(*) . وقد ادرك الاتراك منذ البداية ان وصولهم لهذه الغاية لا يمكن ان يتم الا عن طريق العنف ، وارهـاب النـاس ، واغـلاق منـافذ الحياة والحرية امامهم ، وابقاء منفذ

اعتناق الاسلام فقط مفتوحاً امامهم حتى يحصلوا على بعض حقوقهم .

وقد استخدم الاتراك طريقتين اساسيتين في حمل البلغار على اعتناق الاسلام :

الاولى : عن طريق ضريبة الدم .. حيث كانوا يأخذون من كل عائلة اجمل واقوى اطفالها وفتيانها ، ويسوقونهم الى مدارس تركية ويعدونهم اعداداً « طورانياً » يبدأ من تلقينهم الدروس الدينية وينتهي بانتمائهم الى السياسة العثمانية ، الحاقدة على الشعوب غير التركية . وكان هؤلاء من اشرس جنود الانكشارية ، بعد ان ينسوا انتماءهم القومي والديني ، وقد ضم الجيش الانكشاري خلال ٣٠٠ سنة ولغاية حله عام ١٨٢٦ اكثر من ٠٠٠ر٥٠٠ من الاطفال والشباب المسيحيين .

الثانية : قيام الولاة ، والفرق الانكشارية ، بحملات واسعة ، عنيفة لارغام الناس على اعتناق الاسلام ، حتى ان الوثائق التركية نفسها تذكر ان الوالي « محمد احجي » قد حول اثناء قيامة برحلة صيد ٢٦٠ شخصاً الى الاسلام .

ولقد ابتكر الولاة ، وقادة الفرق الانكشارية عدة وسائل لحمل البلغار على اعتناق الاسلام :

١ ـ ضريبة الجزية : التي كان الولاة يأخذونها من السكان المسيحيين باعنف الوسائل ، ويرفعونها حسب رغبتهم بحيث تصبح في غير مقدور المواطن .. فكان عدد من السكان يدخلون الاسلام لكي لا يدفعوا الجزية .

٢ ـ التمييز بين المسيحيين والمسلمين في مختلف اوجه الحياة ، حتى انه كان لا يسمح للمواطن المسيحي ان يبني بيتاً بنفس مساحة بيت المسلم ، وكانت قرارات المحاكم دائماً الى جانب المسلمين في المشاجرات والاختلافات على الاملاك وغيرها .

٣ ـ تشجيع المسلمين على حمل المسيحيين على اعتناق الاسلام ، على اعتبار ان هذا الامر واجب ديني مقدس .

٤ ـ عدم تأمين الحماية والامن للمواطنين البلغار المسيحيين ، بحيث يظل هؤلاء عرضة للقتل ، والنهب ، وتدمير بيوتهم .

« يقول المؤرخ التركي « يو . ل . باركان » ان احد اهم اسباب التتريك هو

حالة الفوضى التي كانت منتشرة في اراضي الامبراطورية العثمانية ، وانتشار العصابات والقراصنة ، فكان الناس يلجأون الى الاسلام احتماءً من هذه العصابات وكذلك انتشار الفرق الاسلامية المتصوفة ، مثل فرقة الدراويش ، وكذلك انتشار الانتفاضات والتمردات بين الشعوب الخاضعة للامبراطورية خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر »(١٧) .

ومما زاد في حالة الفوضى هذه ، لجوء الدولة العثمانية كجزء من سياسة « التتريك » ولمنع الترابط القومي ، وتشتت العائلات واضعافها ، وكرد على التمردات والعصيانات ، الى نفي اعداد كبيرة من العائلات من اماكنها التاريخية الى ولايات بعيدة مختلفة قومياً عنها ، وان « اخطر ما واجهته بلغاريا هو الرعاع الذين هاجروا من بلادهم ورفضوا الاقامة في الاناضول فذهبوا الى بلغاريا ، ومارسوا الاعتداءات والسلب والنهب ، بهدف الاستيلاء على المناطق الافضل ، خصوصاً اولئك الذين كانوا قد تركوا من قبل ، مثل ـ التركمان »(١٨) .

لقد استخدم العثمانيون الاتراك كل الوسائل التي تبتكرها همجيتهم لحمل الناس في بلغاريا على اعتناق الاسلام ، بما يشكل ابتعاداً حقيقياً عن جوهر الاسلام واساليب الدعوة اليه التي تقوم على مبدأ « لا إكراه في الدين » وعلى مبدأ المساواة بين المواطنين المسيحيين الذين يدفعون « الجزية » مع المواطنين المسلمين في الحقوق والواجبات ، وعلى تحريم الاعتداء على حياة وممتلكات واعراض المسيحيين ضمن الدولة الاسلامية .. وهذا هو الفارق الحضاري والديني بين الفتوحات الاسلامية العربية ، وبين الفتوحات العثمانية .

لقد استخدم العرب«الاسلام» كاساس للعدل والمساواة والتطور ، في حين رفعه الاتراك العثمانيون شعاراً لارهاب الشعوب والتمييز بينهم . وقد رافقت حملات ارغام المسيحيين على اعتناق الاسلام في بلغاريا وغيرها خلافات داخل دوائر الحكم العثماني ، ويعود هذا الخلاف الى ان بعض القائمين على التخطيط الاقتصادي كانوا يرون ان تزايد تحول المسيحيين الى مسلمين يعقبه تناقص في « ضريبة الجزية » مما سيترك آثاراً سيئة على الاقتصاد العثماني المتدهور ، يقول المؤرخ التركي « ش . س . ايديمير: انه في عهد السلطان

سليمـان القـانـوني ، اضطـر شيـخ الاسـلام « ابو السعود افندي » الى تقديم اقتـراحـات حول اجـراءات لتحـديـد وايقاف عملية تحويل السكان المسيحيين المحليين الى الـدين الاسـلامي ، وذلـك خشيـة من ان يقـل عدد الذين يدفعون ضريبة ـ الجزية ـ »(١٩) .

غيـر ان هذه الاصـوات كانت تخنقها السيـاسة العامة للدولة التي تقوم على « التتريك » وتذويب القوميات المختلفة وصهرها في القومية التركية .

لم يكتف الاتراك العثمانيون بارغام بعض السكان البلغار على اعتناق الاسلام بل راحـوا في مرحلة لاحقـة يرغمـونهم على تبـديـل اسمـائهم البلغارية باسماء اسلامية « عربية » كخطوة اخرى على طريق اجتثاث الارتباط القومي للسكان البلغار .

وحتى بداية القرن السادس عشر لا يوجد في سجلات القرى والمدن البلغارية اسماء « عربية » على الرغم من ان بعض سكانها مسلمون ، بل ان مواليد الاسر المسلمـة الجـدد كانـوا يعطـون اسمـاء بلغـاريـة ، كتلك التي يحملهـا آبـاؤهم واجـدادهم الا ان الاتـراك العثمـانيين شنـوا في مرحلة لاحقة حملة جديدة ضد الـمسلمين انفسهم لحملهم على تغييـر اسمـائهم الى الاسمـاء الاسـلاميـة « العـربيـة » وارغمـوهم على اختيار اسم عربي لكل مولود جديد لكي يسجل في السجـلات المـدنيـة ، فاصبـح الانسـان المسلم يحمـل اسماً مزدوجاً ، الاول عربي ، واسم الـوالـد والعـائلة بلغـاريـان . فحملت شواهد القبور اسماء مثل : محمـد بوكـاروف ، او علي بن ايفـان جورجييف .. وهكـذا . ليست فقـط المقابر تحمـل شواهـدهـا هذه الاسمـاء المختلطـة ، بل وايضـاً السجـلات المـدنيـة في القرى والمـدن ، والنـاس انفسهم الـذين ما زالـوا احيـاء كانت اسماؤهم وكذلك اسماء آبائهم عربية ، بينما عائلاتهم تحمل اسماء بلغارية .. هذا الوضـع الشاذ لم يكن ليـذكـر المسلمين البلغار بدينهم فقط ، بل كان يؤكد لهم انتمائهم القومي ويعمق شعورهم البلغاري ، بمعنى انهم كانوا يفرقون بين الدين الذي اختاروه بانفسهم سواء بقنـاعـة منهم ، او تحت وطأة الارهـاب والخـوف ، وبين انتمائهم القومي . فاحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ، حتى ان الكثير من المعابد مقدسة عند المسلمين والمسيحيين ويمارسون فيها طقوساً مشتركة .

وهكذا نرى ان الدين الاسلامي الذي اعتنقه بعض البلغار لم يجدوا فيه سبباً يدعوهم الى الابتعاد عن قوميتهم .. بل على العكس من ذلك شارك المسلمون البلغار في النضال ضد الاحتلال العثماني جنباً الى جنب مع باقي اخوانهم من مسيحيين وغيرهم ، فشكلوا منظماتهم الخاصة للنضال والتحرر من الاحتلال العثماني ، واحياناً كانت هذه المنظمات تندمج مع المنظمات البلغارية المسيحية ، كتعبير عن وحدة الشعب في مواجهة المحتل . ولقد رفع الثوريون الديمقراطيون البلغار امثال « فاسيل ليفسكي » و« خريستوبوتيف » وغيرهم شعار الحفاظ على القومية والهوية البلغارية « .. يا بلغاري لا تنسى جيشك ووطنك ، لانك بلغاري قبل كل شيء » فكانوا يوجهون النداءات ، ويشكلون المنظمات من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ، فانتشر - حسب المناطق - رجال العصابات المسيحيين والمسلمين ، ضمن تحالف واحد ، وهدف واحد ، واحياناً تكون هذه المنظمات واحدة . حتى ان « فاسيل ليفسكي » كان يدعو المسلمين الاتراك وغيرهم للمشاركة في الثورة ضد الطغمة العثمانية الحاكمة ، فوزع بياناً باللغتين البلغارية والتركية في نيسان ١٨٦٩ ، من ضمن ما جاء فيه :

« ... وانتم ايها الاخوة في العقيدة الاسلامية ، اين هي الحقوق التي تتفيأوون ظلالها ؟ اين هي الاملاك التي تملكون ؟ ماذا جنيتم من اراقتكم الدماء على الدوام ؟ انتم ، ايضاً ، اخوة مسحوقون بالاقدام ، خدعوكم مثلما خدعونا . كل ما كنتم تملكون مرة تلاشى في هذه الدولة التي لا تعرف العدالة ، حيث يسود البطش والعنف ، وتحكم الرهبة والقرارات بدلاً من الحق والعدل ، وهما البداية لكل فهم صحيح .

« الله خلقكم وخلقنا ، ولا نرى فيكم غير اخوة عاشوا معنا طوال ما يزيد عن اربعة قرون في الوطن ذاته ، وقاسوا معنا العذابات ذاتها ، نحن البلغاريين نمد اليكم يد الاخوة ، لا نريد ان نتشاجر معكم بخصوص الدين ، مباركون اولئك الذين هم سعداء في ايمانهم ، اذهبوا ، ايها الاخوة ، الى مساجدكم وفق عاداتكم ، وارفعوا صلواتكم الى الله بطريقتكم الخاصة .

« ايها الاخوة المسلمون : في بلغاريا الحرة متسع لنا جميعاً . واولئك الذين

يطعنون صدوركم وصدور نسائنا واطفالنا بسلاح قاتل هم اعداؤنا واعداؤكم ، هم يريدون السيطرة علينا لامتصاص دمائكم ودمائنا . هيا - انهضوا معنا في سبيل حريتكم وحريتنا »(٢٠)(*) .

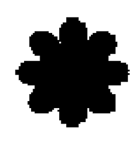
لقد كتب الكثير من الرحالة ، والبحاثة ، والسياسيين عن أصل المسلمين الذين يعيشون في بلغاريا ، واكدوا ان غالبيتهم العظمى من البلغار اعتنقوا الدين الاسلامي تحت وطأة الاحتلال العثماني .

ويكفي ان نستشهد هنا بما كتبه « مدحت باشا » رئيس وزراء الدولة التركية نفسها في مجلة « لا ريفيو سيانتفيك دي لافرانس لاترانجيه » بتاريخ ٨ حزيران ١٨٧٨ م :

« ... ينبغي النظر بعين الاعتبار الى ان هناك بين البلغار الذين هم موضع مثل هذا الاهتمام الكبير ، زهاء مليون مسلم ، ولم يجيء هؤلاء المسلمون من آسيا للاقامة في بلغاريا كما يعتقد في كل مكان . اذ انهم ورثة اولئك البلغار الذين جرى تتريكهم ، واعتنقوا الاسلام ابان الفتح وما بعده ، انهم ابناء هذا البلد ونفس الشعب ، وينحدرون من نفس السلالة ، ومن بينهم من لا يتكلمون الا البلغارية ، واذا ما رغب انسان في انتزاع هؤلاء من ديارهم والحكم عليهم بطردهم خارجها ، فان ذلك يعني حسب رايي ارتكاب أبشع عمل لانساني بحقهم »(٢١) .

واذا كان الرأي العام الخارجي هو الذي بحاجة الى تأكيد مثل هذه الحقيقة من قبل رئيس الوزراء التركي ، فان مسلمي الشعب البلغاري يؤكدونها عبر حياتهم اليومية المنخرطة تماماً في حياة وأمال الشعب البلغاري عامة .

فتاريخ الثورة البلغارية ضد الاحتلال العثماني يحتفظ باسماء آلاف المناضلين المسلمين الذي لم يُعقْهُم الدين المشترك مع الاتراك عن مقاتلتهم على انهم اعداء قوميتهم ومحتلوا اراضيهم ، مثلما لم يُعِقْ المسلمين العرب ايضاً الذين قاتلوا الدولة التركية في سبيل انتزاع حريتهم ، والدفاع عن انتمائهم القومي .



المسلمون البلغار في عهدي الحكومات البورجوازية والفاشية

بعـد رحيـل الاحتـلال العثمـاني عن الاراضي البلغارية ، عمت الفرحة جميع ابنـاء الشعب بمسيحييـة ومسلميـة ، الا ان المسلمين ، وكـذلـك حكومة الدولة البلغارية الجديدة قد وجدوا انفسهم امام مشكلة معقدة فيما يتعلق بوضع المسلمين .

١ ـ على الـرغم من ان غالبيـة المسلمين فوق الاراضي البلغـاريـة ، هم من الاصل البلغاري ، وعلى الرغم من ان عدداً كبيراً من الاتراك الذين كانوا يقطنون الاراضي البلغـاريـة كانوا قد رحلوا مع رحيل الاحتلال العثماني .. الا ان مشكلة اجتماعية مزدوجة كانت قد برزت بشكل واضح .

فمن ناحية بقي عدد ليس بالقليل من الاتراك ومواطني القوميات الاخرى الذين كانـوا قد استقـروا في الاراضي البلغارية في ظل الدولة العثمانية الواحدة ، اما عن طريق نقـل مصـالحهم الاقتصـادية اليها ، او عن طريق المصاهرة مع الاسر البلغـاريـة ، ومن ناحيـة اخـرى كان هنـاك ايضـاً عدد ليس قليلاً من المواطنين البلغار قد استقر داخل تركيا نفسها لاسباب مماثلة .

٢ ـ نتيجـة الاحتـلال العثماني الطويل (حوالي ٥٠٠ سنة) واضطرار بعض البلغـار الى اعتنـاق الاسـلام ، فان عدداً كبيراً من البلغار والاتراك قد تصاهروا (رجـال اتـراك تزوجـوا من نسـاء بلغـاريـات ، او رجـال بلغار تزوجوا من نساء تركيـات) . واذا كانت هذه العمليـة مفيدة ومنسجمة مع سياسة « التتريك » في ظل الدولة العثمانية الواحدة ، الا انها في غاية التعقيد والخطورة الاجتماعية في ظل دولتين منفصلتين سيـاسيـاً واجتمـاعيـاً ، بل وتكن الواحدة للاخرى العداء التـاريخي النـاجم عن ظروف الاحتـلال العثمـاني ، فوجـد المسلمـون البلغـار انفسهم ضمن اسـر مشتتـة بين بلغـاريـا ، وتركيا ، حتى ان الاشقاء ، بعضهم يسكن بلغاريا ، والبعض الآخر يسكن تركيا ، وكذلك الامر بالنسبة لبعض الاسر التركية .

٣ ـ ولقـد زاد في تفـاقم هذه المشكلة انئ عدداً كبيـراً من الاتراك المرتبطين

باسـرهم البلغـاريـة رفضوا العودة الى تركيا ، وآثروا البقاء عند عائلاتهم وضمن الحيـاة البلغـاريـة التي تعـودوا واحبوها من ناحية ، ومن ناحية ثانية لخوفهم من المصير المجهول الذي تتجه نحوه الدولة العثمانية التي اصبحت اسيرة مصالح الدول الكبرى وصراعاتها . وغدت مثل جزيرة محاطة بالاعداء .

هذه المشكلة الاجتمـاعيـة ، من الطبيعي ان تقـود الى مشكلة سياسية اكثر تعقيداً بين الدولتين البلغارية ، والتركية .

فمن ناحيـة لم تكن تركيـا قد تخلت عن سيـاسـة الاحتلال ، والاستعمار على الـرغم من الانهيـار الـذي تعاني منه في جميع المجالات ، فلجأت الى استغلال هذه المشكلة ، لادامة مبررات التدخل في الشؤون البلغارية . ومن ناحية ثانية ، فان الحكـومات البورجوازية (١٩٠٨ ـ ١٩٢٣) والفاشية (١٩٢٣ ـ ١٩٤٤) ارادت هي الاخـرى ، الـتخلص من هذه المشكلة باي ثمن ، حتى ولـوكان على حساب البلغار المسلمين انفسهم .

ونتيجة لتعصب الحكومات البورجوازية والفاشية القومي ، والديني ، اندفعت لممـارسـة عمليـات الضغط على السكان المسلمين ، لحملهم على ترك اسمائهم العربية ، والعودة لاعتناق الدين المسيحي .

امـا بالنسبـة للمسلمين ، فقـد كانوا يفصلون بين اسمائهم « العربية » التي كانوا يشعرون انها ثقل عليهم ، تساهم في تجزئة « شجرة عائلاتهم » البلغارية ، ويفضلون التخلي عنها ، وبين اعتناقهم الدين الاسلامي الذي كان قد تعمق في نفوسهم . خاصة عند العائلات التي اعتنقت الاسلام في مراحل مبكرة .

وهكذا ، فان سياسة الحكومات البورجوازية والفاشية قد ساهمت بشكل فعال في تأخير عملية انصهار المسلمين في المجتمع البلغاري ، وحالت دون استعادة المسلمين البلغـار لاسمـاء عائـلاتهم الاصليـة ، لانهـا كانت تربـط بين الـدين والاسم ، لذا ظلت ترفض طلبات المسلمين البلغار المتكررة لاستعادة اسمائهم .

وهكـذا وجـد المسلمـون البلغار انفسهم في وضـع صـعب ومعقد ، فبالاضافة الى تدني مستواهم الاجتماعي (نسبة الاميين كانت قد وصلت الى ٩٩٪) فقد كانت الحكـومـات البـورجـوازيـة والفاشية ، والشرائح الاجتماعية المرتبطة بها تعتبرهم خارج القومية البلغارية ، طالما انهم يدينون بالدين الاسلامي ، مما كان

يترك الالم والمرارة في نفوسهم .

وعلى الـرغم من هذه المـرارة ، الا ان المسلمين ، كانـوا يدركـون من خلال شعـورهم القومي العفوي، انهم ابناء هذا الشعب (البلغاري) وقد ساهم في تعمق هذا الشعور عاملان في غاية الاهمية :

الاول : عدم انصياع رجال الدين والمواطنين المسيحيين لسياسة حكوماتهم تجاه المسلمين .

الثـاني : سيـاسـة القمـع والارهـاب التي مارستهـا الحكـومات البورجوازية والفاشية ضد المواطنين البلغار المعارضين لها ، سواء كانوا مسيحيين او مسلمين .

هذان العاملان، قد تركا آثاراً كبيرة على وحدة الشعب البلغاري وفئاته التحتية في نضـالهـا ضد اشكـال الظلم والاستعبـاد ، خاصة في عهد الحكم الفاشي ، وساهما في تكتيل ابناء الشعب البلغاري باسره (مسيحييه ، ومسلميه وغيرهم) خلف الحـزب الشيـوعي ، وحـزب الاتحـاد الزراعي في النضال من اجل اسقاط الحكم الفـاشي ، وقـامت المنظمـات الثـوريـة التي تمارس الكفاح المسلح على امتـداد الاراضي البلغـارية ، وتدفق عشرات الآلاف من المتطوعين ، واصبحت قضية النضال ضد الفاشية بالنسبة لهم مسألة حياة او موت .

ازاء ذلك ، كان موقف المسلمين البلغار يقع في سياق الموقف الشعبي العام ضد الحكم الفـاشي ، وفي النضـال الثـوري المسلح من اجـل اسقاطه ، وبناء المجتمع الجديد الذي تنتفي فيه كل اشكال الظلم الاجتماعي ، والديني ، والعرقي(*) .

ونتيجـة لهـذا الشعور ، فقد قام المسلمون بانفسهم في عام ١٩٣٧ بتأسيس انـديـة وجمعيات باسم « الـوطن » وتقـدمـوا بطلبـات يصـرون فيها على تغيير اسمـائهم ، مع الاحتفـاظ بالـدين ، وتخلوا عن بعض العادات التي اكتسبوها او ارغمـوا على اتبـاعهـا ابـان الحكم التـركي . وهذه اول مرة تم فيها التفريق بين الدين ، والاسم ، وتم فيها تاكيد الهوية القومية .

الحياة الداخلية للمسلمين البلغار في ظل الاشتراكية :

بعد نضال مسلح مرير ، استطاع الشعب البلغاري بقيادة الحزب الشيوعي وبمساعدة الجيش الاحمر السوفياتي ان يهزم نظام الحكم الفاشي الذي هيمن على بلغاريا فترة من الزمن ، كانت من افظع صفحات تاريخه التي لا تختلف كثيراً عن فترة الاحتلال العثماني، بل على العكس، كانت اشد ايلاماً، من حيث كون العثمانيين محتلين خارجيين ، اما الحكم الفاشي ، فانه هووأدواته من ابناء الشعب البلغاري الذين تنكروا لمصلحة شعبهم ، فأذاقوه اشكال الظلم والاستعباد وربطوا مصالحهم بمصالح الدول الاستعمارية الرجعية والفاشية .

لقد عمل نظام الحكم الفاشي بكل جهد على زرع التفرقة بين ابناء الشعب البلغاري وتحريض فئة على فئة على قاعدة « فرق تسد » الا ان النتيجة التي لاقاها كانت عكسية تماماً فتوحد ابناء الشعب الواحد بغض النظر عن معتقدهم الديني ، وانتمائهم الطبقي (ما عدا فئة البورجوازية الكبيرة التي كانت قد ارتبطت نهائياً مع مصالح رأس المال الامبريالي) خلف ثورتهم المسلحة التي غطت طول البلاد وعرضها ، حتى اذا جاء التاسع من ايلول عام ١٩٤٤ كانت قيادة الثورة تعلن بيانها عبر محطة « خريستو بوتيف » الاذاعية « السرية » بسقوط نظام الحكم الفاشي ، وقيام سلطة الثورة الشعبية البلغارية بقيادة الحزب الشيوعي المتحالف مع حزب الاتحاد الزراعي وتوليها زمام ادارة البلاد ، على قاعدة البرنامج الاشتراكي الذي كان قد اعلن عنه « والذي تحول الى وثيقة ميدانية ديمقراطية وطنية عامة ، بهدف تحرير البلد من الفاشية وتخليصها من القوات الالمانية الهتلرية ، والحرب العالمية الثانية »(*) .

فوق هذا فقد قام برنامج الجبهة على اساس المساواة التامة بين افراد الشعب البلغاري في الحقوق والواجبات بغض النظر عن الانتماء الديني ، ولضمان ذلك فقد اعلن رسمياً عن الفصل التام والنهائي بين الدين(**) والدولة . وهكذا وجد المسلمون انفسهم منذ تحرير بلغاريا من الاحتلال العثماني يتمتعون

بحق المواطنية الكاملة ، دون ان يطلب منهم التخلي عن دينهم ، ووجدوا الفرصة مناسبة للبدء بتحويل اسمائهم طالما ان الدولة لا تشترط عليهم التحول الديني .

لقد وجدت الدولة الاشتراكية نفسها منذ انتصار ثورة التاسع من ايلول أمام وضع صعب فيما يتعلق بالمسلمين البلغار ، فيما يلي ابرز مقوماته :

١ ـ وضع اجتماعي متخلف جداً (نسبة الاميين ٩٩٪) بالاضافة الى الفقر المدقع ، بفعل اهمال الدولة ـ التاريخي ـ لهم واضطهادها اياهم في عهد الحكومات البرجوازية والفاشية ، التي كانت تعاقب المسلمين (من منطلق ديني) وتعتبرهم تابعين ، وأيضاً ، نقص كبير بالمدارس والمرافق الحيوية الاجتماعية الاخرى .

٢ ـ نتيجة لهذا الاهمال بقي المسلمون على وضعهم القديم ، وكانت اللغة التركية التي فرضت عليهم خلال ٥٠٠ سنة هي لغة التخاطب بينهم .

٣ ـ تشتت العائلات البلغارية المسلمة بين بلغاريا وتركيا ـ كما سبق واشرنا ـ بما يستتبع ذلك من آثار اجتماعية سلبية على تطور حياتهم الطبيعي .

أمام هذا الوضع وجدت الدولة الاشتراكية نفسها أمام مهمة تاريخية ملحة ، فالى جانب الغاء العلاقات الاقتصادية القديمة ، توجهت بكل ثقلها لرفع المستوى الثقافي لدى ابناء الشعب ، خاصة في المناطق الاكثر تخلفاً ، وفي مقدمتها « مناطق المسلمين » ففتحت المدارس ، واعدت البرامج القائمة على العلمانية ، وتعميق الشعور القومي البلغاري ، وكذلك ومنذ انتصار الثورة الاشتراكية ، صدرت عدة مطبوعات دورية ، مركزية او على مستوى المناطق ، توجه بعضها الى المسلمين ، لتعميق الوعي عندهم ، ورفع مستواهم الثقافي ، وابرز هذه الدوريات هي جريدة « النور الجديد »(*) التي تصدر مركزياً عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري ـ منذ شهر ايار ١٩٤٥ ، والموجهة اساساً الى المسلمين البلغار . وقد لعبت هذه الصحيفة دوراً بالغ الاهمية بين البلغار المسلمين ، بهدف : تنمية الشعور القومي ، والتربية الوطنية والايدولوجية الصحيحة ، ورفع مستوى المعرفة والتعليم والثقافة للقارىء . بالاضافة الى توجيه التربية الدينية نحو رفض التعصب الديني بما يمليه « الدستور » والقوانين البلغارية السارية .

وفي عام ١٩٤٧ أقر ممثلو العشب البلغاري اول دستور اشتراكي في بلادهم ، وقد أعطيت المسألة الدينية جانباً من الاهمية ، سواء ما يتعلق بالمسيحيين او المسلمين . وفي عام ١٩٧١ عندما جرى تطوير الدستور بما يتلاءم مع مستجدات التطور داخل المجتمع البلغاري ، وعلى مستوى العلاقات الدولية ، جرى ايضاً التأكيد على المسألة الدينية في عدة فقرات :

ـ **الفصل الثالث** : ـ

- المادة ٣٥ ـ الفقرة ٢ :

« لا يسمح بأي امتيازات تقوم على اساس تقييد الحقوق ، اوتقوم على اساس القومية والأصل والدين والجنس والعرق والتعليم والوضع الاجتماعي والمادي »

- المادة ٣٥ ـ الفقرة ٤ :

« ان كل دعوة للكراهية ، أو اذلال الانسان بسبب من الانتماء العرقي والقومي والديني محظورة ويعاقب عليها »

- المادة ٥٣ ، الفقرة ١ :

« إن حرية الضمير والاعتقاد الديني مضمونه للمواطنين . وفي مقدورهم ممارسة الشعائر الدينية والقيام بالدعاية المناهضة للدين أيضاً »

- المادة ٥٣ ، الفقرة ٢ :

« الكنيسة منفصلة عن الدولة »

- المادة ٥٣ ، الفقرة ٥ :

« لا يمكن للدين أن يصبح اساساً لرفض تأدية الواجبات المنصوص عليها في الدستور او القوانين »

- المادة ١٦٤ :

« يعاقب بالسجن لمدة تصل الى ٣ سنوات كل من يدعو الى البغضاء على اساس ديني عن طريق الكلام والصحافة ، والأنشطة ، وكل وسائل أخرى » .

- المادة ١٦٥ :

« يعاقب بالسجن لمدة تصل الى عام كل من يمنع بالقوة والتهديد المواطنين من ممارسة اعتقادهم أو من اجراء مراسيمهم وشعائرهم الدينية[٢٢] »

واستنـادا الى فقـرات الـدستـور الآنفـة الذكر ، فان للمواطنين حق ممارسة شعائرهم الدينية . بما لا يتعارض مع واجبات المواطنيه البلغارية ، وبما يضمن وحدة الشعب ، وعدم التناحر على اساس ديني .

وعلى هذا الأســاس ايضاً يقوم المسلمون بتنظيم حياتهم الدينية ، بما يتعلق بالشعائر والمراسيم ، ضمن هيئات منتخبة تشرف على ديمومة وتأطير الممارسة اليومية لهذه الشعائر .

في ظل هذه الهيئـات التنظيميـة ، وتحت إشرافها ـ يقوم المسلمون بممارسة شعائرهم الدينية كاملة في جميع اماكن تواجدهم على الأراضي البلغارية .

أما فيما يتعلق بالمساجد ، فالدولة هي المسؤولة عن الترميمات اللازمة لها ، وتأمين الاخصائيين والبنائين والمواد اللازمة لذلك حسب الأولويات التي يقررها المفتي العـام ، ففي بلغـاريـا ، يوجـد (٨٠٠) ثمـانمـائـة مسجد ، وأغلبية هذه المساجد بنيت بعد رحيل الأتراك ـ وخاصة في ظل النظام الاشتراكي ـ وقد اعلن رسميـا في بلغـاريـا ان (١٠٠) من هذه المســاجد معلنة كآثار تاريخية وثقافية . وهـذا يعني ان الـدولـة مسـؤولة عن المحافظة عليها للأجيال القادمة الى جانب الشعائر الدينية التي تقام فيها .

إن حجم ، ومساحة ، وبناء هذه الجوامع يختلف من مكان لآخر ، بما يتناسب مع عدد المسلمين ، والظروف التاريخية لبنائه ، فبعض الجوامع كبيرة وذات بناء فني ورفيع المستوى ، وبعضها متواضع .

وفي عام ١٩٥١ اقـر قانـون النظـام الأساسي لقانون العبادات في بلغاريا ، وفيما يتعلق بالمسلمين ، فالنظام الحالي يختلف جذريا من حيث الروح عن مثيله القـديم الـذي اقر عام ١٩١٩ ، ففي النظام القديم كان يجري تعيين معظم رجال الـدين المسلمين بمن فيهم المفتي العـام من قبـل أجهزة الدولة ، كما كان يترتب عليهم الخضـوع لتلك الاجهـزة ، وتتمثـل اهم ميزة للنظام الاساسي الجديد في ديمقراطيته المستمدة من روح الاسلام(٢٢) .

وقد ساوى هذا القانون بين المسلمين والمسيحيين ، والاديان الاخرى بشكل كامـل ، واصبحت الـدولـة تدفـع ميـزانيـة خاصة لدائرة الافتاء ، بالاضافة الى

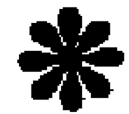
الـرواتب للأئمـة ، بمـا في ذلـك رواتب التقـاعـد ، الامر الذي ساهم في تعميق الشعور القومي لدى المسلمين البلغار .

وبـالاضـافـة الى المتغيـرات الاسـاسية التي سبق واشرنا اليها ، فان هناك عاملين ، ساهمـا في تبلور الشخصيـة البلغـاريـة للمسلمين الـذي كانوا عرضة للصراع السياسي المتعلق بقوميتهم ، وجذورهم التاريخية .

العـامـل الأول : ارتفـاع المستـوى الثقافي ـ ففي حين كانت نسبة الأميين المسلمين عند انتصار الثورة تبلغ ٩٩ ٪ ، اصبحت الآن نسبة خريجي المدارس الاعدادية الذين يواصلون تعليمهم الى الثانوية تصل الى ٩٥ ٪ ، وهذا الانقلاب الكبير الذي تم خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً (اربعة عقود) يعتبر انجازاً كبيراً وضـع القـاعدة الصلبة لانبعاث الشخصية البلغارية عند المسلمين . فاصبحت حيـاتهم الخـاصـة لا تنفصـل عن حياة وحركة تطور المجتمع بشكل عام ، وصار منهم ، الشعـراء والفنـانـون ، والكتـاب ، والاطباء ، واعضاء بارزون في الحزب الشيوعي ، وحزب اتحاد الزراعيين ، ونواب .... الخ . اي ان الانتماء الديني قد ذاب في الشعور القومي ، على اعتبار ان الانتماء الديني هو مسألة شخصية محضة .

العـامـل الثـاني : المسـاواة الشاملة بين المواطنين بغض النظر عن الانتماء الديني ، مما أتاح للمسلمين ولأول مرة ان يحولوا اسماءهم الى البلغارية ، دون ان يطلب منهم تغييـر دينهم الاسـلامي او انكـاره ، فاخـذت هذه العمليـة وضعا طبيعيـاً ، وغـدا المسلمـون (برضـا الـدولـة ، وتشجيعهـا) يقـومون بتحويل اسمـائهم ، كلمـا غيرت البطاقات الشخصية بين فترة ، واخرى ـ حسب القانون البلغاري ـ الى ان انتهت هذه العملية بشكل كامل ونهائي عام ١٩٨٥ .

ازاء ذلـك ، فانـه لا يمكن فصـل حيـاة المسلمين البلغار الدينية ، عن مجمل تطـور حيـاتهم العـام في ظل النظام الاشتراكي . وعن سياق تطور حياة الانسان البلغاري عموماً ، الاجتماعي ، والاقتصادي ، والثقافي .



المسلمون البلغار
والعلاقات البلغارية التركية

لم يتـوقف تأثيـروضـع العـائلات البلغارية المجزأة بين تركيا وبلغاريا ، على الـوضـع الاجتمـاعي الداخلي للمسلمين البلغار ، كما سبق واشرنا ، بل ظل هذا الوضع مدار خلافات سياسية حادة بين الدولتين ... في حين كانت بلغاريا ترغب دائماً : بتسوية نهائية لوضع عائلاتها المسلمة ، بل وتقدم تنازلات كبيرة في هذا المجال ، كانت تركيا لا تريد مثل هذه التسوية ، بل تريدها مشكلة سياسية دائمة مع بلغـاريـا ... خاصـة بعـد انضمـام تركيا بشكل نهائي الى المعسكر الغربي الامبـريـالي بقيـادة الـولايـات المتحدة الاميركية ، وانضمامها الى حلف شمال الأطلسي ، وضلوع تركيا بدور امبريالي متقدم في المنطقة .

واعتبـرت تركيـا ، تنفيـذاً للرغبة الامبريالية الاميركية ، ان بقاء هذه المشكلة قائمـة هي اسـاس توتير العلاقات الدولية متى رغبت ، على اعتبار ان بلغاريا هي الاخـرى ، عضواً مؤثراً في منظمة حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفياتي ومحور المـوقف التـركي ، هو اتبـار ان الغالبية العظمى للمسلمين البلغارهم من اصول تركية ، او حتى اعتبار مجرد اعتناقهم للاسلام دليل كاف على جذورهم التركية . وبتشجيـع من الـولايـات المتحـدة الاميـركيـة ، رفضت تركيـا اية تسوية لهذه المشكلة على الـرغم من رفض المسلمين البلغـار انفسهم لهذا المنطق التركي ، والـوقـوف في وجهـة في جميـع المجالات ، وعلى مختلف الأصعدة . « ففي عام ١٩١٣ وقعت كل من بلغاريا وتركيا معاهدة « استانبول » السلمية ، والتي نصت بعض موادهـا ، على انـه ولمدة اربع سنوات يمكن للمسلمين الذين يعيشون في بلغاريا الهجرة الى الامبراطورية العثمانية اذا رغبوا في ذلك[٢٤] » .

إلا ان أيـاً من العـائـلات البلغـاريـة المسلمـة لم يغادر بلغاريا . حتى بعض العـائـلات التـركيـة ، والأقوام غير البلغارية الاخرى ، وذلك لأن تركيا كانت على شفير الانهيار ، والمصالح الاستعمارية تتجاذبها في مختلف الاتجاهات ، وتركيا نفسهـا لم تكن جادة في هذا الأمـر ، لأنهـا كانت قد قررت الاشتـراك في الحرب العالمية الأولى .

وبعـد استقـرار الجمهـوريـة التـركية (على ما هي عليه الآن) بعد حربها مع اليـونـان وتـوقيع معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ عادت الى اللعب على الحبال القديمة انسياقاً وراء عنصريتها الشوفينية الجديدة ، ذات الجذور العثمانية .

ونظـراً لكـون الحكومة البلغارية البرجوازية هي الأخرى قد وضعت نفسها في المـوقـع السيـاسي غير الصحيح ، وجعلت بلغاريا (مثل تركيا) عرضة لتجاذب المصـالـح بين الـدول الاستعمـاريـة الكبرى ، فقد جرى في عام ١٩٢٥ توقيع معـاهـدة صداقة وتعاون بينهما ، وفيما يتعلق بوضع المسلمين البلغار : جاء في مواد بروتوكول التعاون ـ الملحق بالمعاهدة ـ ما يلي : ـ

(الفقرة الأولى) : ـ

« ان الحكـومتين تتعهـدان بضمـان حقـوق الأقليـات المسلمة في بلغاريا ، وتطبيق قرارات حمـايـة الاقليـات التي نصت عليهـا معـاهـدة « نوي » وبصدد الاقليـات البلغـاريـة في تركيا ، تطبق توصيات حماية الأقليات المتفق عليها في معاهدة « لوزان » .

وان تركيا وبلغاريا ، تعترفان بجميع النصوص المتعلقة بالأقليات التي نصت عليها معاهدتا ، « نوي » و « لوزان » .

ملاحظـة : ـ الأشخـاص المسيحيـون الذين لغتهم الأم هي البلغارية ، ولهم جنسية تركية يعتبرون من الأقلية البلغارية الموجودة في تركيا .

(الفقرة الثانية) : ـ

« تعتـرف الحكـومـة التـركية بصفة المواطنية البلغارية لجميع البلغار الذين ولدوا في الاراضي التركية بعد سنة ١٩١٢ ، وهاجروا الى بلغاريا قبل توقيع هذا البـرتـوكول . وحصلوا على الجنسية البلغارية على اساس القوانين والتشريعات الداخلية السارية في المملكة البلغارية »

« وتعترف الحكومة البلغارية بصفة المواطنية التركية لجميع المسلمين الذين ولـدوا في الأراضي البلغـاريـة بعد سنة ١٩١٢ ، وهاجروا الى تركيا ، قبل توقيع هذا البرتوكول ، وحصلوا على الجنسية التركية على اساس القوانين والتشريعات الداخلية السارية في الجمهورية التركية » .

« اذا رغب بعض البلغار الذين ولدوا في القسم الأوروبي من تركيا باستثناء ـ

محافظة استانبول ـ والذين هاجروا الى بلغاريا في العودة الى مسقط رأسهم في تركيا، فللحكومة التركية الحق الكامل في قبولهم او عدم قبولهم »

« وللحكومة البلغارية نفس الحق بشأن المسلمين الذين ولدوا في الأراضي البلغارية التي الحقت ببلغاريا في سنة ١٩١٢ وهاجروا الى تركيا ويريدون العودة الى مسقط رأسهم[٢٥] »

ان ما يلفت النظر في هذه الاتفاقية : ـ

١ ـ انها تعتبر المسيحيين الذين لهم جنسية تركية ، ولغتهم الأم هي البلغارية ، من الأقلية البلغارية في تركيا ، في حين لا تعتبر المسلمين الذين لغتهم الأم هي التركية ، ويحملون الجنسية البلغارية ضمن الأقلية التركية الموجودة في بلغاريا ... علماً بأن أغلبية المسلمين في بلغاريا يتكلمون التركية افضل من البلغارية نفسها بسبب من سياسة التتريك .

٢ ـ ان روح الاتفاقية تتعامل مع غالبية المسلمين في بلغاريا على اعتبار انهم من اصل بلغاري .

٣ ـ ان ربط رغبة الذين يريدون الهجرة من بلغاريا الى تركيا بموافقة الحكومة التركية أو عدمه ، لا يعني ان الحكومة تتعامل مع هؤلاء الراغبين في الهجرة على اعتبار انهم رعايا اتراك ، بل أنها لا تريد لهم العودة لتبقى المشكلة السياسية قائمة بين البلدين .

أما نتائج هذه الاتفاقية فكانت عودة اعداد كبيرة من البلغار الى بلغاريا ، في حين لم يغادر بلغاريا سوى عدد قليل من الأسر من اجل لم شمل اسرهم .

« وفي عام ١٩٥٠ تم تجديد هذه الاتفاقية ، بعدما طرحت مسألة الهجرة من جديد ، لكن وزارة الخارجية التركية أرسلت للحكومة البلغارية مذكرتين

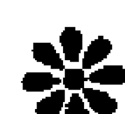
« .. لقد ناقشنا موضوع الهجرة ، ولكن ليس الجماعية[٢٦] »

وفي عام ١٩٦٤ طرح بين البلدين موضوع لم شمل الأسر المتفرقة ، وقد تم التوصل الى اتفاقية بين البلدين ، وقعت في انقرة من قبل وزيري خارجية البلدين بتاريخ ٢٢ آذار ١٩٦٨[٢٧] . ومدة صلاحية هذه الاتفاقية حسب بنودها الاساسية عشر سنوات اعتباراً من تاريخ التوقيع . ومما يلفت النظر في هذه

لاتفاقية ، انها لم تأت على ذكر « المسلمين » في بلغاريا كما كانت تتحدث تركيا في وسائل اعلامها ، بل تحدثت عن مواطنين بلغار من أصل تركي .

أما نتيجة هذه الاتفاقية فكانت : هجرة عدد قليل من العائلات الى تركيا على عكس ما كانت تتوقع او تدعي السلطات التركية ، على الرغم من الحملات الاعلامية التي شنتها لتشجيع هذه العملية ، فحتى العائلات المتحدرة من أصل تركي (وهي قليلة) آثرت الاستقرار في بلغاريا الاشتراكية على العودة الى المجهول التركي الذي يتهددها ، خاصة وأنها كانت على علم بالأوضاع التي تسيطر على الحياة الداخلية التركية اقتصاديا واجتماعياً وسياسياً عن طريق الأقارب والزيارات المتبادلة .

وعلى الرغم من « صدور تصريحات رسمية عن الدولتين ، تؤكد ان موضوع الهجرة بين تركيا وبلغاريا قد سوي نهائياً[٢٨] » وعلى الرغم من ان الجدال حول وجود سكان اتراك في بلغاريا قد توقف فترة طويلة ، وان حجته القانونية قد سقطت نهائياً بانتهاء مفعول الاتفاقية المشار اليها . إلا ان الجنرالات الذين وصلوا الى حكم تركيا عن طريق انقلاب ١٢ أيلول ١٩٨٠ ، وانسجاماً مع السياسة الأميركية في مواجهة دول المنظومة الاشتراكية ، عادوا للحديث عن « مشكلة اتراك في بلغاريا » وسط استهجان الراي العام العالمي ، مستخدمين ادعاءات غير مبررة ـ وهذه النقطة سنتناولها في القسم السادس من الكتاب .



الهوامش

١ ـ تودروف بروفسور نيكولاي : موجز تاريخ بلغاريا (ترجمة د . احمد سليمان الاحمد) اصدار دار الثقافة ـ دمشق ١٩٨١ .
الصفحات ٥٣ ـ ٥٨ .

٢ ـ المصدر نفسه : ص ٦٠ ـ ٦١

* الهايدوت : هذه الظاهرة انتشرت في جميع انحاء بلغاريا خلال القرن الثامن عشر ، فقد كان الرجال يصعدون الى الجبال ويختبئون في الغابات ، ومن هناك

يقومون باعمال التصفية للمسؤولين الاتراك وعملائهم المحليين ، وقد تميزت هذه الظاهرة بالعفوية . وعدم التنظيم في البداية (كل مقاتل يعمل لوحده) إلا انها اتخذت جانبا من القوة فيما بعد ، عندما راح رجال الهايدوت يعملون على شكل جماعات . إلا انها لم تشكل قوة فعلية لعدم وجود تنظيم سياسي خلفها . وعلى الرغم من ذلك فقد شكلت ازعاجا كبيرا للاحتلال العثماني ، مثلما شكلت حافزا لليقظة الثورية عند البلغار

٣ ـ صالح جهاد : ربيع مزهر .. وتاريخ مكتوب بالدم (دراسة) ـ مجلة نضال الشعب ، العدد ٤١٤ تاريخ ١٦ ايلول ١٩٨٥ ص ٢٥

٤ ـ المصدر نفسه : ص ٢٥

٥ ـ مكديرموت ميرسيا : رسول الحرية (فاسيل ليفسكي : البطل الاسطوري في بلغاريا القرن التاسع عشر) اصدار دار طلاس / دمشق ١٩٨٦ ، ترجمة المحامي سهيل ايوب . ص ٦٢٣ .

(مكديرموت ، كاتبة وباحثة بريطانية ، لفتت نظرها شخصية القائد الثوري البلغاري ، فاسيل ليفسكي ، فقررت اعداد كتاب شامل عن تطور حياته ، وافكاره ، فاصدرت هذا الكتاب باللغة الانكليزية عام ١٩٧٩) .

٦ ـ المصدر نفسه : ص ٢٨ ـ ٢٩

٧ ـ صالح جهاد : مصدر سابق ص ٢٤

* من اقوال ـ خريستو بوتيف ، الشعرية الماثورة الذي اصبح يردده كل مناضل بلغاري ، سواء في مرحلة النضال ضد الاحتلال العثماني ، وسواء في مرحلة النضال ضد الفاشية .

٨ ـ مكديرموت ميرسيا : مصدر سابق ص ١٨

٩ ـ راجـي حسـيـن : الادب البـلـغـاري (أراء ونـمـاذج) منـشـورات دار الثقافة / دمشق ١٩٨٢ ص ١٥ ـ ١٦ .

١٠ ـ سيمكـون ميلين : ديمتـروف ومحـاكمـة لايبـزغ ـ اصدار دار بن خلدون بيروت ١٩٨٢ (ترجمة ميخائيل عيد) ص ١٨٩ ـ ١٩٠

* لقـد اعتمـدت في هذا التحليـل ، واستخـلاص سمـات تلك المـرحلة (مرحلة اليقظة القومية البلغارية) على اسس الوقائع التاريخية الواردة في كتاب : ـ
تودوروف نيكولايَ : مصدر سابق ـ الصفحات من ٧٩ ـ ١٠٨

* الهـورو : رقصـة شعبيـة بلغـاريـة ، يشارك فيها الرجال والنساء معاً (رجل وامراة ... وهكذا) وهي شبيهة الى حد كبير بالدبكة الفلسطينية ـ حبل مودع ـ .

١١ ـ الشـريف عبـد الكـريم : صفحات من كفاح الشعب البلغاري / انتفاضة ايليندينسكو / . اصدار دمشق ١٩٨٣ ص ٥٩ .

١٢ ـ المصدر نفسه : ص ٥٨ ـ ٥٩

* نسبة الى يوم القديس ـ ايليا ـ ـ المؤلف .

١٣ ـ المصدر نفسه : ص ١٠٢ ـ ١٠٣

١٤ ـ المصدر نفسه : ص ١٣١ .

١٥ ـ بيتـروف بروفسـور بيتـر (د . علم التاريخ في جامعة صوفيا) : البلغار قبل قرن ونصف / ماذا تقول الوثائق (دراسة) ـ جريدة الجبهة الوطنية (باللغة البلغارية) العدد ١٢٢١١ ـ تاريخ ٢٩ آب ١٩٨٥

١٦ ـ المصدر نفسه

* البوغوميلية : نسبة الى مؤسسها الكاهن ـ بوغوميل ـ وهي اول حركة فكرية ظهـرت في الكنيسـة البلغـاريـة بطـابـع ديني تبشيـري تدعو الى المساواة بين النـاس ، وتنـادي باصـلاح الكنيسة ، ودعت الفلاحين الى النضال ضد كل اشكال الظلم والسخـرة التي يمـارسهـا رجال السلطة والكنيسة ، وحرضت الفلاحين على عدم دفع الضرائب ، والوقوف ضد الحروب العدوانية وسفك الدماء وقد انتشرت هذه الحركة بسرعة مذهلة داخل بلغاريا وخارجها ، وتحولت الى منظمة جماهيرية لعبت دوراً بارزاً في توعيـه الفـلاحيـة لمصـالحهم ، إلا ان هذه الحركة قد ضربت بقسوة في منتصف القرن السابع عشر .

* انطلاقاً من ان الدين المشترك ، هو من مقومات القومية ، بالاضافة الى اللغة ، والتاريخ المشترك ، والاقتصاد الموحد ... الخ .

١٧ -زاغوروف اورلين : التاريخ التركي - عن سياسة التذويب للمحتل التركي ، / الماضي والوقت الراهن (دراسة) / مجلة - الازمنة - تصدر عن جمعية المؤرخين في بلغاريا (باللغة البلغارية) العدد ٦/١٩٨٥ .

١٨ - المصدر نفسه

١٩ - المصدر نفسه

٢٠ * -وردت هذه الوثيقة في كتاب :

ماكديموت ميرسيا : مصدر سابق - ص ٢٤٧ - ٢٤٨

وهي بيان شامل باسم « الحكومة المؤقتة في البلقان »

٢١ - من يقلق بشأن المسلمين في بلغاريا ، ولماذا ؟ مصدر سابق - ص ٩

* ان زيارة واحدة لبعض المتاحف البلغارية التي تحتفظ بصور واسماء ابطال التحرر البلغار ضد حكم الاستبداد والقهر الفاشي ، تعطي صورة واضحة وكافية عن مشاركة المسلمين البلغار في النضال ضد الفاشية ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : تتصدر متحف قرية « غورسكو سليفوفو » في محافظة « لوفيتش » صور ابطال النضال ضد الفاشية، وهم التالية اسماؤهم: خريستوكرباتسيف ، دراغومير بينسكوفسكي ، ياسين سليمانوف موتكوف ، ديتسو ديمتروف التونوف ، تيردور كونوف ، فاسيلين فاتسيف ، دانكا مينوفا ، فاسيلين كراييف ، جيورجي مينوف ، يوردان ميتسيف ، جيورجي بابازوف ، ايفان دوشكوف ، تودور ميتوف ، مارين دوموزوف ، محمد تشافداروف ، احمد سليمانوف كراسانوف ، ابراهيم كويلييف ، محمد اسماعيل مولاسانوف ، محمد علي محمدوف مولاسانوف ، ياسين اسماعينوف ، (وولديه : ابراهيم ، ومحمد) تودور ديتسيف .

ويمكن ملاحظة ، اختلاط أسماء بعض هؤلاء الابطال المسلمين ، حيث تبدأ الاسماء ، عربية ، بينما العائلات واسماء الجدود بلغارية صرفة . وهذا بسبب سياسة التتريك العثمانية التي كان تغيير الأسماء أحد اشكالها الرئيسية بعد تغيير الدين .

* كان القيصر البلغاري « بوريس » وحكومته قد اعلن عن انضمام بلغاريا الى دول المحور الفاشي بزعامة المانيا الهتلرية ، وسط استياء شعبي عام . وفي نفس الوقت اعلن الحزب الشيوعي البلغاري عن رفضه العنيف لهذا الانضمام واعلن

عن تشكيل « جيش انقاذ بلغاريا) لاسقاط النظام

** بالاضافة الى المسيحية (الارثوذكسية) والمسلمين في بلغاريا ، فانه يوجد عدد من الطوائف المسيحية المختلفة ، وينطبق عليها نفس الحقوق والواجبات ، فالمذهب البروتستانتي ، فانه ممثل من قبل كنيسة جماعة العنصره وجماعة المستقلين (اي من قبل كنيسة المجموع) والكنائس المعمدانية والميثودية والسبتية ، ويوجد في بلغاريا ٣٠ قس من هذه الجماعة

وللكاثوليك اسقفيتان شرقيتان في بلوفديف ونيكوبول ، ويشرف على الاسقفية الرسولية رجل دين بدرجة اسقف .

وعلى خلاف ما كان عليه الامر في الماضي (كان هناك عدد كبير من المعابد) يوجد في بلغاريا معبدان فقط لليهود في صوفيا وبلوفديف ، ويتولى الاشراف على الدين اليهودي مجلس كهنوتي مركزي (في السابق كان اليهود يتمتعون بامتيازات كبيرة جداً ، وكانوا من اشد انصار الحكومات البرجوازية والفاشية وعندما انتصرت الثورة الاشتركية هاجر عدد كبيرة منهم الى فلسطين المحتلة ـ ملاحظة المؤلف) .

وكذلك يوجد عدد كبير من الارمن اتباع الرسول « بولص » ولهم سبع كنائس يتولى الاشراف عليها مجلس كهنوتي .

(من يقلق بشأن المسلمين في بلغاريا ولماذا : مصدر سابق ص ٢١ ـ ٢٢)

* « النور الجديد » جريدة مركزية ـ تصدر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري وهي واسعة الانتشار في بلغاريا ، خاصة ضمن مناطق المسلمين ، وتصدر ثلاثة مرات في الاسبوع ، بنسخ يبلغ عددها ٦٠ ـ ٧٠ الف نسخة

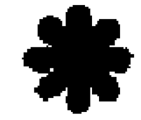
٢٢ ـ دستور جمهورية بلغاريا الشعبية : إصدار صوفيا برس ١٩٧١ (باللغة العربية) الصفحات : ١٤ ـ ١٩

٢٣ ـ توبتشييف ميران (مفتي عام المسلمين في بلغاريا) : مقابلة صحيفة اجرتها صوفيا برس ـ ١٩٨٥ ـ كتيب خاص ـ ص ٢٢ .

٢٤ ـ زاغوروف اورلين : (مقابلة) الشوفينية التركية المعاصرة ، وعملية استعادة الاسماء جريدة ـ خاسكومنسكا تريبونا ـ البلغارية ـ بتاريخ ١٩/٦/١٩٨٦م .

٢٥ ـ نص المعاهدة ـ كما ورد في الجريدة الرسمية البلغارية ـ العدد ١١٠ ص ٢ ـ ٩ (باللغة البلغارية) .

٢٦ ـ زاغوروف اورلين ـ مصدر سابق : ـ
حسب وثائق وزارة الخارجية البلغارية .
٢٧ ـ الاتفاقية كما وردت في مجلة TURKISH REVIEW الصفحات ١٤٨ ـ ١٥١
(باللغة الانجليزية)
٢٨ ـ زاغوروف اورلين ـ مصدر سابق .



القسم الرابع

قضايا الاقليات القومية
في الدولة التركية

القضية الكردية :

تعتبر القضية الكردية من اكثر القضايا تعقيداً ، فعلى الرغم من تبلور الشخصية الكردية القومية ، وتنامي مقوماتها ، الا انها كانت وما زالت محرومة من ان يكون لها وطن مستقل ، وعلى الرغم من ان الاكراد يعيشون في مناطقهم القومية التاريخية ، الا انهم موزعون مع تلك المناطق على اربع دول : تركيا ، العراق ، ايران ، الاتحاد السوفياتي ، وباستثناء اكراد الاتحاد السوفياتي الذين يمارسون حريتهم القومية (اللغة ـ الثقافة ـ الخ) ضمن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، فان الاكراد يعانون من اضطهاد قومي في الدول الثلاثة الاخرى ، وخاصة في تركيا ، منذ العهد العثماني وحتى يومنا هذا .

يبلغ عدد الاكراد في تركيا حوالي عشرة ملايين نسمة ، يشكلون بالنسبة لمجموع السكان في تركيا نسبة ٢٣,٨٪ ، اي انهم القومية الثانية بعد التركية ، والغالبية العظمى من الاكراد هم مسلمون (سنة) وحوالي ربعهم من المسلمين الشيعة .

وعند العودة الى جذور القضية الكردية ، وعلاقتها بالعنصرية التركية ، نجد الاكراد دائماً في مقدمة المضطهدين في ملف الاضطهاد الشوفيني التركي . فمنذ تشكيل الامارة العثمانية وضع سلاطينها نصب اعينهم دائماً السيطرة على الاكراد واخضاعهم لسياستهم الداخلية والخارجية . وذلك للاسباب الجوهرية التالية : ـ

١ ـ أن الطبيعة الجغرافية للمناطق التي يعيش فيها الاكراد ، قد جعلت منهم مقاتلين اشداء ، وقادرين على تحمل الصعاب ، والصبر على الآلام ، فارادت الدولة العثمانية الاستفادة منهم وتجنيدهم في فتوحاتها ضد الشعوب الاخرى .

٢ ـ الموقع الهام لمناطق الاكراد كفاصل يفصلهم عن بلاد « فارس » فاراد العثمانيون جعل هذه المنطقة بمثابة حاجز جغرافي وبشري في وجه الغزوات الفارسية ، وفي نفس الوقت استخدامها نقطة انطلاق للغزوات العثمانية ، وقد ازدادت اهمية الاكراد ومناطقهم عندما بدأ نافسة بين العثمانيين والامبراطورية الروسية .

٣ ـ الاكـراد ، بغـالبيتهم ، مسلمون ، واستثارة الناحية الدينية فيهم تجعلهم يقـاتلون بقـوة من اجـل سياسة الدولة الاسلامية العثمانية ، خاصة في مواجهة الدول والاقوام غير المسلمة .

٤ ـ ان الطبيعـة القبليـة التي كانت تسـود الحيـاة الكردية في ذلك الوقت قد وزعت الاكراد الى قبائل وعشائر متناحرة ، والى مدن وقرى تقيم العداء والغزوات بعضهـا ضد بعض ، وهـذا ما جعل مهمة السلاطين العثمانيين اكثر سهولة واقل مقاومة ، خاصة في البدايات الاولى من تأسيس الدولة العثمانية .

٥ ـ تعرض المناطق الكردية للكثير من المجازر الوحشية نتيجة غزوات الفرس واطماع ملوكهم ، وتدمير القرى والمدن ، وقتل الآلاف من الرجال والشيوخ وسبي النسـاء ، كل هذه المجـازر جعلت الكثيـر من القبـائـل الكـردية تتجه نحو الدولة العثمانية لتأمين حمايتها .

وبـالفعـل كان للدفاع الديني ـ لدى الاكراد ـ دوراً في قبولهم الدولة العثمانية على انها الحامي لهم ، باعتبارها الدولة الاسلامية الاقوى ، وكانوا يأملون في ان القتال مع العثمانيين يؤمن امبراطورية اسلامية عظمى ، ترفع شأن المسلمين ، وتحمي ديـارهم ، وهـذا بحـد ذاتـه اعتبـره الأكـراد ـ بعد تأثرهم بحملة التعبئة والـدعـايـة العثمـانية ـ واجباً دينياً مقدساً ـ . خاصة وان السلاطين العثمانيين استخـدمـوا الوعود ، ومنح الامتيازات والالقاب الفخمة ، لزعماء العشائر الكردية ورجـالاتهـا المهمّين . لاستمـالتهم للسياسية العثمانية ، ووقوفهم الى جانبها ، وبالفعل منح سلاطين العثمانيين الحكم الذاتي للمناطق الكردية . الامر الذي أثار حمّية وتعاطف الاكراد . فاندفعوا للتطوع في صفوف القوات العثمانية ، حتى ان زعمـاء العشـائـر كانـوا يتنـافسـون في تجنيـد الاعـداد الكبيـرة من رجـال عشـائـرهم الكـرديـة للمشاركة في غزوات وفتوحات القوات العثمانية . وهكذا نجد ان الدولة العثمانية قد حققت مآربهـا كاملة ، عن طريق إثـارة الحميّة الدينية عند الاكراد ، واستمالة زعمائهم . لتجنيدهم . كمحاربين اشداء في الجيوش العثمانية .

من هنـا ، فان الخـاصيّـة التي يجب النظـر اليهـا بدقـة ، هي اتخاذ الاتراك العثمانيين الاكراد سنداً قوياً لهم ، سواء في دك القوة السياسية لايران، او في دك القوة السياسية للعرب (هزيمة المماليك في حلب ومصر ، والسيطرة على الدول

العربية) . اذ اعطوا ادواراً هامة للاكراد في صفوف جيشهم الغازي ، وان كانت الامبراطورية العثمانية قد منحت الحكم الذاتي لعملائها من الباكوات الاكراد ، الا انها ضيقت اطار هذا الحكم باستمرار لتصل الى درجة خطيرة جداً ، بحيث ولدت فئة كردية عميلة لها ، لعبت ادواراً لا يستهان بها في سحق مقاومة الشعوب المجاورة وفي عمليات الغزو الهادفة الى قهر هذه الشعوب »[1]

ولقد ادرك الاكراد انفسهن انهم وقعوا ضحية السياسة الدموية العثمانية ضد الشعوب الاخرى ، فانقلبت هذه السياسة ضدهم ، فبعد ان استقرت الدولة العثمانية كامبراطورية عظمى في الشرق والغرب ، وانسجاماً مع جوهر سياستها العنصرية ، انتفت حاجتها الى استمالة زعماء الاكراد ، فجيوشها اصبحت لا تقاوم ، والجنود الاكراد تم ربطهم جيداً بالمؤسسة العسكرية العثمانية ، فلم يعودوا خاضعين لمشيئة زعماء العشائر ، بل لقادة وحداتهم ، لذا شرعت الدولة العثمانية في سياسة التتريك ضد الشعب الكردي ، فالغت نظام الحكم الذاتي للمناطق ، وعينت ولاة اتراكاً محل الولاة الاكراد ، وفرضت اللغة التركية في المدارس ومعاملات الدولة ، ومنعت تدريس اللغة الكردية ، وكل ما يساهم في اظهار مقومات القومية الكردية وهكذا ادرك الاكراد الطبيعة العنصرية ـ للدولة العثمانية، وان الدين الاسلامي لم يكن سوى الوسيلة لتمرير هذه السياسة ضد الشعوب الاسلامية الاخرى ، وضد الشعوب غير الاسلامية .

وتعبيراً عن الطبيعة العنصرية التركية ، ومنذ بداية ظهور التململ والعصيانات لدى الاكراد ، قرر السلاطين العثمانيين استخدام الوجه الاخر لسياستهم ـ بل الوجه الحقيقي ـ فجهزوا الحملات لاخضاع الاكراد بشكل نهائي ، والسيطرة على مناطقهم بالقوة العسكرية ، وليس بالتنظيمات الادارية وارتكبوا الفظائع ، والمجازر بسبب اوبدون سبب ، لان هدف الحملات الاساسي هو خلق الرعب والخوف عند الاكراد لتشكيل الارضية الصالحة لتتريكهم .

« فالدور الذي لعبته هجمات الابادة الفتاكة والمذابح التي شنتها الاقوام التركية الهمجية ـ لم تكن مختلفة من ناحية التطور التاريخي ـ بالنسبة للشعب الكردي ، عما هي عليه بالنسبة للشعوب المستقرة التي واجهتها اثناء انتشارها في الشرق الاوسط ـ عند مداخل الاناضول ، فهذه الاقوام التركية الهمجية

اتجهت الى كردستــان باطــلاق العنــان لهجماتها ، ولكن حصل في فترة السيطرة الاقطـاعيـة التي دامت سنـوات طوالاً ، استمـرت العشــائر الكردية في المقاومة كشكـل لا يمكن التخلي عنـه للبقــاء ، ضد غزوات الاقــوام التـركيــة ، فجغرافية كردستان الملائمة ، وتمتعها بجبال وعرة شاهقة لا يمكن التحكم فيها على مدى التاريخ[٢] » .

لقد وقفت جغرافية كردستان ، وجبالها الوعرة الشاهقة ، ومقاتلوها الاشداء ، عقبة في وجه حملات الاتراك في البداية ، الا ان طبيعة الحياة القبلية قد قدمت لهم خدمــة تاريخيــة لا تقــدر بثمن « فكان من جراء الشقاق الداخلي ، والتحاسد القـومي الكـردي ، ان قضت الدولة العثمانية بالقوات والجنود الاكراد انفسهم ، على الانتفاضات الكردية ، مثل انتفاضة الامير « بدرجان » الشهيرة[٢] »

●●●

بشكـل عام استطـاعت القـوات العثمــانيــة السيطـرة على غالبيــة الاراضي الكــرديــة، واخـضـعــتـهــا لسـلطــانـهــا، وولاتــهــا الــذيـن مارســوا كل اشكــال الفظــائــع والارهــاب والقمــع ، فاخضعــوا الفلاحين لضرائب جائرة كانت تؤدي في الغالب بفقــراء الفــلاحين الى بيــع اراضيهم لكبــار المــلاك (وهم مرتبطــون بالسياسة العثمــانيــة) وتقــودهم حاجتهم ، امــا للعمــل كعبيد عند الولاة والاقطاعيين ، او للرحيـل الى المــدن الكبــرى ليعملوا عبيــدا عنــد اربــاب العمل الصناعيين ، او يتطـوعـوا في الجيش . هذه الخيــارات الثلاثة التي لا رابعة لها (غالبية السكان الاكـراد هم من الفــلاحين) كانت تفـرض على اســرهم الجــوع والحرمان والفقر المــدقــع ، وشيئــاً فشيئــا كانــوا يتحــولــون الى عبيــد يؤمرون فيطيعون ، حيث يصبحون لقمة سائغة لسياسة التتريك .

الا ان هذه الصورة ، وهذا الواقع الذي استطاعت الدولة العثمانية ان تفرضه على الشعب الكردي (الاكثر حضارة من الاتراك انفسهم) لم يكن قدرياً فتوالت الانتفــاضــات ضد الـدولــة العثمــانية . واظهر الاكراد رفضهم العنيف للسياسة العثمــانيــة ، واعلنــوا عن تمسكهم بقوميتهم ، فكان ما ان يسري خبر الانتفاضة حتى تتوسع رقعة انتشارها في مناطق كردية مختلفة ، وخلال المرحلة الاخيرة من السيطرة العثمانية قامت الانتفاضات التالية (باسماء قادتها) :

١ ـ انتفاضة عبد الرحمن باشا البابان ١٧٨٨

٢ ـ محمد باشا الراوندزي ١٨٢٦

٣ ـ اسماعيل باشا البهادياني ١٨٣٥

٤ ـ احمد باشا البابان

٥ ـ بدرخان باشا (١٨١٢ ـ ١٨٤٩)

٦ ـ انتفاضة البدرخانيين بعد الامير بدرخان : عثمان بدرخان ١٨٧٩ ـ امين عالي بك ، ومدحت بك ، أنجال الامير بدرخان الكبير) ١٨٨٩ .

٧ ـ عز الدين شير البوتاني ١٨٦٤

٨ ـ الشيخ عبيد الله النقشبندي ١٨٨٠ ـ ١٨٨٣ .

٩ ـ ابراهيم باشا المللي ١٩٠٨

١٠ ـ ثورة بدليس / بزعامة الشيخ سليم ـ قبيل الحرب العظمى الاولى بفترة وجيزة ـ(٤) .

●●●

وفي تحليلنا لهذه الانتفاضات ، نرى انها اظهرت بشكل واضح وجهي الصراع ، وجوهر مواقف طرفيه : فمن ناحية اظهرت صلابة المقاتلين الاكراد ، ورفض سياسة التتريك ، والانصهار في المجتمع العثماني العنصري ، والتمسك بالهوية القومية ، ورفض الانصياع للشعار الزائف ، وغير الصحيح الذي رفعه السلاطين العثمانيون ، والداعي الى انصهار القوميات المسلمة ، وتقبل السيادة المطلقة للاتراك على اعتبار ان الخلافة الاسلامية بيدهم ، اي التسليم القومي بدافع ديني . فكانت غالبية الانتفاضات يقودها اويرفدها رجال الدين الاكراد كتعبير عن رفض المنطق العثماني .

ومن ناحية اخرى اظهرت الانتفاضات من خلال الطريقة التي قمعت بها، والوسائل الوحشية من مجازر ، وقتل ، وتدمير ، وحرق للمدن والقرى ، وسبي النساء ، واعدامات في الساحات العامة لرجال الانتفاضات البارزين كل هذه الوسائل اظهرت همجية العنصرية التركية العثمانية ، وبعدها ـ في الجوهر ـ عن تعاليم الاسلام الصحيحة ... وكما اسلفنا اسهمت الاختلافات والتناحرات

القبليـة في افشـال غالبية هذه الانتفاضات ، فبعض القبائل لم تكتف بعدم تأييد بعض الانتفاضات ، بل ناصبتها العداء بتشجيع من السلطات العثمانية.

واسهاماً منها في سياسة اضعاف القوميات المختلفة داخل الامبراطورية العثمانيـة لتسهيل السيطرة المطلقة عليها فقد ، اوجدت الدولة العثمانية شيئاً كثيراً من الشقاق والاحقاد بين هؤلاء الكرد الارمن من ابناء الوطن الواحد ، وادت هذه الاحقاد فيما بعد الى سلسلة من الوقائع والاحداث الدامية ، فمن ذلك انه في صيف سنة ١٨٩٤ قامت ثورات كبيرة، ووقعت حوادث دامية بين الكرد والارمن في منطقة « صاصون » اصيب من جرائها الطرفان بكثير من الاضرار في الاموال والارواح ، ودمرت قرى آهلة بالسكان تدميراً تاماً ، ثم صارت هذه الواقعة مقدمة لحوادث دامية اخرى جرت بين العنصرين (٥) .

وعندما وقعت ثورة « تركيا الفتاة» عام ١٩٠٨ استقبل الاكراد شعارها « حرية ، عدالة ، مساواة » بفرح عارم ، شمل المدن ، والقرى ، والارياف ، وشكلوا جمعيات الاخاء الكردي ، التركي . الا انهم اصيبوا بخيبة امل كبيرة ـ شأنهم في ذلك القوميات الاخرى في البلاد العثمانية ـ عندما انقلبت سلطة الجمهورية التركية ، الى السياسة « الطورانية » التي تهدف الى التذويب القسري للقوميات الاخرى ضمن القومية التركية ،فعمت الانتفاضات الغاضبة جميع المناطق الكردية « الا ان البورجوازية التركية لم تكتف بسحق الانتفاضات التي عمت كردستان في اولى سنوات الجمهورية ، وذلك بقتل مئات الآلاف ، بل تم اخضاع الباقي لعمليات الاسكان الاجبارية ، واقتلاع الشعب من طبيعته التي تعتبر بالنسبة له المصدر الوحيد لقوة وامكانيات المقاومة ، ونقله الى بنية قومية غريبة ، وتركه للصهر . واسكنت بالقوة العشائر المقاومة في الاماكن المختارة للتمركز في تركيا ... وفرضت سياسة صهر نشيطة ، وبأساليب متنوعة من اجل خلق قومية واحدة ضمن « الميثاق ـ الملي(٦) » .

وعلى الرغم من هذه المصائب التي تعرض لها الشعب الكردي على يد العنصرية العثمانية التركية ، فقد كان عليه ان يتحمل مصيبة اخرى اشد وطأة . وكان عليه ان يدفع ثمن كونه شعباً مسلماً خاضعاً لدولة اسلامية ، شكل ابناؤه ـ في جيشها قوة كبيرة من الجنود ، ومن خلال تعرض مناطقه لحروب طاحنة ، فلقد

اصيب الشعب الكـردي بويـلات عظيمـة في الامـوال والانفس اثنـاء الحـرب العظمى ، حيث لا تقـدر خسـائره المادية لضخامتها ، ولا يقل مقدار خسائره في الارواح عن نصف مليون نسمة(٧) » .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وهزيمة الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من المصـائب والآلام التي حلت بالشعب الكـردي نتيجـة لهـذه الحرب ، فقد انتابه شعور الغبطة ; وتجدد امله بالتحرر والاستقلال وتقرير مصيره بنفسه ، وبدأ يعد نفسـه مغمـوراً بالفـرح والامل لهذه المهمة التاريخية . « وفي عام ١٩٢٠ عقدت معـاهـدة « سيفر » في باريس ، بمشاركة وفد كردي ، ونصت المواد ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ على منـح الشعب الكـردي نوعـاً من الحكم الذاتي ، لكن ذلك لم يدم طويلاً ، لان ما حققتـه معـاهـدة « سيفـر » من مكـاسب للشعب الكردي ، الغته معاهدة « لوزان » في تموز عام ١٩٢٣(٨) » بعد ان تمكنت تركيا من التقاط انفاسها بعد هزيمـة اليونان، وبعد ان بدلت دول الوفاق مواقفها السياسية خاصة ـ بريطاني.

وهكـذا كتب على الشعب الكـردي مرة اخـرى ان يظـل اسير الظلم والعنصرية ، ولكن هذه المرة بفعل صراع المصالح للدول الامبريالية الكبرى خاصة بريطانيا وفرنسا ، فرسمت معاهدة لوزان خارطة الاراضي الكردية السياسية على ما هي عليه الآن .

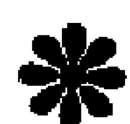
« وفي عام ١٩٢٥ قامت ثورة كردية ضد الاتراك في منطقة « دياربكر » بقيادة الشيخ «سعيد بيران» تم قمعها بقسوة شديدة واعدم الشيخ في احدى ساحات المـدينـة ، وفي عام ١٩٢٧ ـ ١٩٣١ قامت انتفـاضـة اخـرى بقيـادة الجنـرال « احسان يوري باشا » فقمعت هي الاخرى بقسوة(٩) » .

وهكـذا نرى ان اختـلاف الاتجـاهـات التي حكمت الجمهـوريـة التركية ، لم تختلف من حيث الجـوهـر من حيث نظـرتهـا الى قضيـة الشعب الكـردي ، فالاسـلاميون المتعصبون ، نظروا الى الاكراد من منطق انهم مسلمون ولا يحق لهم الانفصـال عن وطنهم ودولتهم (تركيـا) . والعلمانيون (الكماليون) نظروا الى الاكراد من منطلق الحاجة الى قوة اليد العاملة اللازمة للتحديث والعصرنـة ، والعسكـريـون نظـروا اليهم كجنـود في وحداتهم العسكرية ، واثبات حضورهم الجـديـد في حلف الناتو ، وتسخيرهم في الخارج (الاسواق الاوروبية) كعمال

لرفع الدخل القومي التركي من العملات الصعبة .

وعلى الـرغم من هذه الخـدمـات التي يقدمها الاكراد (في تركيا) بملايينهم الثمـانيـة ، فان ذلك لم يغير من احوالهم نحو الافضل « فهم لم يحصلوا على اي شيء ، وبقي وضعهم كمـا كان سابقـاً دون اي تطـور ، بالاضـافة الى ذلك حرم عليهم الظهور بملابسهم الوطنية ، ومنعوا من ان يدرسوا بلغتهم الكردية ، اوطبع المنشـورات الادبيـة بهـا ، وحسب المـراسيم الشـوفينيـة ، غالبـاً ما يسمـون بـ (اتـراك الجبـل) ويقمـع اي نشاط سياسي لهم ، ويكفي ان نضرب مثلاً عن اوضـاعهم المعيشيـة السيئـة للغاية ففي عام ١٩٧٠ كان يوجد طبيب واحد لكل (١٠,٠٠٠) نسمة كردية ، يقابله (٤,٣) طبيب لنفس العدد من السكان الاتراك[١٠] » .

ولكن ... هذه الاوضاع التي يعيشها الاكراد في تركيا ، كنتيجة لسياسة القهر والاستغـلال والتـذويب القـومي التي تمـارسهـا البورجوازية التركية وحكوماتها المختلفـة ، خاصـة حكومة الاحكام العرفية بقيادة الجنرال « ايفرين » انصياعاً لرغبـة الامبـريـاليـة الاميـركيـة ، ودول حلف شمـال الاطلسي ،واشباعاً لنهم وعنصرية وفاشية أرباب الرأسمال التركي ، لم تثن الاكراد عن التمسك بهويتهم القـوميـة بمختلف الاشكال والوسائل ، وقد بدأت قواهم الاكثر ثورية في ممارسة الكفاح المسلح ضد العنصرية التركية ، وتتطور هذه المسيرة النضالية باستمرار على الرغم من اجراءات القمع والتنكيل والاعدامات .



القضية الأرمنية :

ما تعرض له الشعب الارمني من مذابح ، فاقت فظائعها القدرة على الوصف ، لهو من اكثر الصفحات سواداً ووحشية في تاريخ العنصرية الحاقدة ، والتي نفذتها الطبقات التركية الحاكمة ضد الشعوب ، رغم كل الخدمات العظيمة التي قدمها الشعب الارمني للمجتمع العثماني ، منذ وقوعه تحت نير عبوديته عام ١٥٢٠ ، فمنهم الفنانون ، والمحامون ، والكتاب ، والصحافيون ، والصناعيون والحرفيون المهرة ، بل ان هذا التمايز الحضاري لابناء الشعب الارمني هو احد الاسباب الرئيسية التي دفعت بالحسد والحقد العنصري القومي التركي لارتكاب المجازر المتتالية ضد هذا الشعب .

فالشعب الارمني من اقدم الشعوب التي قطنت منطقة الشرق الاوسط ، ومن اكثرها عراقة وحضارة « وهو تاريخياً موجود على ارضه منذ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد ، أسس أول دولة أرمنية مستقلة باسم « دولة ارارادو الملكية » ـ نسبة لجبل « ارارات » الموجود حالياً تحت السيطرة التركية ، وكان مركز هذه الدولة مدينة « فان » الموجودة ايضاً تحت السيطرة التركية . وعلى الرغم من الغزوات المتكررة التي تعرض لها من قبل الرومان ، والمنغوليين ، والعرب ، واخيراً العثمانيين الاتراك ، بقي الشعب الارمني مقيماً فوق ارضه ، والتطورات التاريخية تؤكد ان الشعب الارمني الذي هو من اصل « هندو ـ اوروبي » قد جاء وتكون عبر التاريخ وشروط تكون موجودة ايضاً ، فكان لهذا الشعب العريق حضارته الزاهرة التي احتلت مكانة في تاريخ المنطقة ، وله ثقافته الزاخرة المتمثلة بأدبه المتطور والرفيع[١١] » .

« وفي عام ٣٠١ بعد الميلاد ، تأسست الكنيسة الارمنية ، وبعد هذا التاريخ بمئة عام ، ونتيجة لتطورات المنطقة في ذلك العهد ، اوجد الارمن الابجدية الارمنية ـ وهي الابجدية الخاصة به كشعب ، وقد لعبت هذه الابجدية دوراً تاريخياً هاماً ، وميزت القومية الارمنية عن القوميات الاخرى[١٢] » .

« وبحلول عام ١٥٢٠ بسط السلطان العثماني ـ سليم ـ نفوذه على معظم مناطق ارمينيا . وعلى مدى ثلاثة قرون ، اي خلال الفترة الواقعة بين القرنين

السـادس عشـر والثـامن عشـر ، كانت ارمينيا بؤرة للتوتر ، ومسرحاً للصدامات والصـراعـات والحـروب التـوسعيـة العـدوانيـة (الحـرب التركية ـ الفارسية . والروسية الفارسية . والروسية ـ التركية) التي عانى منها الشعب الارمني الكثير من المحن والمصـائب ، وجلبت له الـدمـار والخـراب خصوصاً تلك الحروب التي جرت بين الدولتين الصفوية الفارسية ، والعثمانية .

وفي عام ١٦٣٩ قسمت ارمينيـا نهـائياً حيث الحق الجزء الشرقي منها بالدولة الفـارسيـة الصفـويـة ، ثم آل هذا الجـزء من ارمينيـا ودخـل في حوزة روسيـا القيصـريـة بمـوجب معـاهـدة (تركمان جاي) ، التي عقدت عام ١٨٢٨ نتيجة هزيمة الفرس في حروبهم مع الروس ، خلال الاعوام (١٨٢٦ - ١٨٢٨)(١٢) » .

امـا القسم البـاقي من الاراضي والشعب الارمني ، فقد بقي تحت نير الحكم العثماني ، وفي البداية حاول العثمانيون استمالة الارمن للاستفادة من مواهبهم وخبـراتهم ، ولكسب ولائهم ، وما ان استقرت امور الدولة العثمانية ، حتى انقلب سلاطينها وسـاستهـا ، والمتنفـذون فيهـا رأسـاً على عقب انقـلاباً يتناسب مع طبيعتهم الوحشية ، وسياستهم العنصرية الهمجية .

فذاق الـشـعـب الارمـني على ايـدي الحكم العثمـاني ، ثلاثـة انـواع من الاضطهـادات ـ شأنهم في ذلـك شأن الاقـوام المسيحيـة الاخرى ضمن الدولة العثمانية ـ واضطهاد قومي واضطهاد ديني.

وعنـدما بدأ العثمانيون سياسة « التتريك » ضد الارمن ، ادركوا منذ البداية صعـوبـة هذه المهمة ، نظراً للفارق الحضاري بين القوميتين الارمنية والتركية ، إذ ليس سهـلاً ان ينصهـر شعب متحضر ضمن شعب اقل تحضراً، ومن ناحية اخـرى وجدوا ان الارمن شديدو التمسك والتعصب لقوميتهم ودينهم . لذا تفتقت العقليـة العنصـريـة لحكام الدولة العثمانية عن ابشع اساليب الارهاب والتنكيل ونفي الاسر ، ومصادرة الاراضي تحت وطأة الضرائب الباهظة ووسائل جمعها وسلبوا الاطفال الارمن باسم « ضريبة الدم » وفرضوا عليهم اللغة التركية . الخ .

ومقـابـل سياسة التنكيل والقتل التي استخدمها الحكام العثمانيون وولاتهم

وفرقهم الانكشارية ، وكردة فعل طبيعية «فقد قامت عدة حركات شعبية عبّرت عن اصرار الجماهير الارمنية على رفض كافة اشكال الهيمنة والاستعباد وتمثلت بتلك الثورات والانتفاضات الفلاحية المسلمة في مناطق عديدة يسكنها الارمن وذلك في الاعوام (١٨٦٢ و ١٨٧٨ و ١٨٨٤ و ١٨٨٦) . الا ان كل هذه الثورات كان يتم اخمادها وقمعها بكل قسوة[١٤] » .

ولقد بلغت المجازر الدموية التي مورست ضد الارمن على يد السلطات العثمانية اوجها ، في عهد السلطان المستبد ،المتعصب دينياً، عبد الحميد الثاني ، فاطلق يد الكتائب الحميدية تارة ، والقوات العسكرية تارة اخرى ، وازلام الولاة تارة ثالثة ، وعمد الى اثارة النعرات الدينية والقومية بين الاكراد والارمن تارة رابعة (كحوادث منطقة صاصون الدامية وغيرها) . وقد راح ضحية هذه المجازر خلال عامي ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ ما يقارب الـ ٣٠٠ الف مواطن ارمني . وأخضع الباقون لظروف معيشية قاسية ، من الخوف ، والجوع والتشرد ، وتشتت العائلات والاسر .

لذا كان الارمن من اكثر الشعوب ارتياحاً واستبشاراً بعد عزل السلطان عبد الحميد ، واستقبلوا ثورة « تركيا الفتاة » بارتياح كبير ، أسوة بباقي الشعوب من رعايا الامبراطورية ، وشكلوا جمعيات « الاخاء الارمني التركي » عام ١٩٠٨ غير ان انقلاب سياسة الاتحاديين عن شعاراتهم في العدل ، والحرية ، والمساواة ، وكشفهم عن نواياهم العنصرية تجاه الشعوب غير التركية ، قد خيّب آمال الارمن ، الذين كانوا أول الشعوب التي استهدفتها سياسة الاتحاديين الاجرامية التي تميزت بالوحشية والهمجية التي لا حدود لها . « فارتكب الاتحاديون مذبحة جديدة في نيسان عام ١٩٠٩ ذهب ضحيتها ٣٠ الف أرمني[١٥] »

وفي عام ١٩١٥ ارتكب الاتحاديون افظع مجزرة عرفها التاريخ بحق الشعب الارمني ، كاشفين عن وجههم الاجرامي الوحشي . وسياستهم العنصرية المعادية للجنس البشري بشكل عام .

وقبل الدخول في تفاصيل هذه المجزرة ، تجدر الاشارة الى ان تطورات في غاية الاهمية قد حدثت منذ استلام الاتحاديين الحكم وحتى الشروع في تنفيذها ، وهذه التطورات شكلت الدوافع الذرائعية لارتكابها : ـ

١ ـ في ٢٢ ايلول عام ١٩٠٨ وبعد انقلاب تركيا الفتاة مباشرة ، اعلنت بلغاريا استقلالها وانفصالها عن الامبراطورية العثمانية .

٢ ـ في ايلول عام ١٩١٢ حشدت دول البلقان الثلاثة (بلغاريا ، وصربيا واليونان) قواتها على الحدود التركية ، وطلبت من تركيا منح السكان المسيحيين الحق في الحكم الذاتي .

٣ ـ في ٥ تشرين الاول عام ١٩١٢ ونتيجة لرفض تركيا انذار الدول الثلاث المشار اليه ، زحفت قوات هذه الدول ، وتوغلت في عمق اراضي تركيا مجبرة إياها على توقيع معاهدة « لندن » في ١٧ ايار ١٩١٣ والتي فرضت على تركيا منح الحكم الاداري للمسيحيين ضمن اراضيها .

٤ ـ في عام ١٩١٣ بدأت الحرب البلقانية بين الدول الثلاث بتشجيع من الدول الامبريالية الكبرى .

٥ ـ في عام ١٩١٤ بدأت الحرب العالمية الاولى ، واعلنت تركيا انضمامها الى دول الحلف المركزي (المانيا ـ النمسا ـ ايطاليا) .

٦ ـ في نفس العام اخترقت القوات الروسية الاراضي التركية .

●●●

هذه التطورات ، بالاضافة الى ان الارمن انفسهم استبشروا من نتائج الحرب واستقبلوا القوات الروسية المتقدمة بفرح ، وهم يرون انهيار وتراجع القوات التركية . اتاحت الفرصة السانحة امام السلطة التركية للتخلص نهائياً من احدَى مشاكلها الداخلية المزمنة « مشكلة الارمن » .

لذا « لم تكن القضية قضية ذبح شعب « على الهوية » فحسب ، بل كانت ايضاً وبصفة خاصة تخلصاً ونهائيا منه بحيث لا يعود قادراً على الرجوع، ولا حتى راغباً فيه ، من هنا الفظائع التي ارتكبت قصداً وعمداً(١٦) » .

«ففي ٢٤ نيسان ١٩١٥ القي القبض في استانبول على حوالي ٢٥٠ شخصية ارمنية ، والذين اعتقلوا كانوا صحافيين ومحامين ورجال دين وكتاباً ورجال اعمال دوهمت منازلهم ، وابعدوا عن العاصمة ، ثم تم اعدام اكثرهم دون محاكمة(١٧) » .

« وفي اليوم التالي القي القبض على ٨٠٠ شخص ارمني تمت تصفيتهم

جميعاً وهم في الطريق الى الاناضول ، وهكذا توالت حملات الاعتقال والابادة في استانبول ، حيث شملت جميع المواطنين الارمن الذين كان يبلغ تعدادهم آنذاك ١٥٠ الف أرمني .

وفي الشهـر التـالي « ١٥ أيـار » بدأت حملات التهجير والابادة الجماعية في عدد من الولايات (كارين ـ طرابزون ـ سيواز ـ خاربيرد ـ دياربكر) وغيرها من الولايات الواقعة شرقي الاناضول[١٨] » .

« وتواصلت هذهِ المجازر الجماعية البشرية الرهيبة لتخلف في النهاية مليونا ونصف المليون قتيل من ابناء هذا الشعب من الرجال والشباب والشيوخ ، وحتى الاطفال الذين كان يتم ذبحهم امام أعين امهاتهم ، والنساء الحوامل اللاتي كان يجـري بقـر بطونهن ، والصغار الرضع ، بحقد اسود دفين ، ودون أدنى رحمة او شفقـة ، ورافقت حمـلات الابـادة الجمـاعيـة هذه عمليات تهجير وتشريد مكثفة خارج الـوطن الى العمق التـركي ، ومنـاطق أخرى ، بهدف اقتلاع جذور الشعب الارضي، وأدت الى إخـلاء ارمينيـا من سكـانها نتيجة هروب مئات الألوف الى الاقاليم المجاورة طلباً للنجاة[١٩] »

امـا طلب النجـاة هذا فلم يكن متـوفـراً الا لعـدد قليل ، فلقد ، « فقد في هذه الهجرات آلاف الناس حياتهم نتيجة المرض والجوع والتعرض للهجمات[٢٠] » .

وامعاناً في جريمة التقتيل والذبح والمجازر ضد هذا الشعب ، « ارسل طلعت باشا ـ بصفته وزيراً للداخلية ـ وقد اقترن اسمه بالمذابح الارمنية ـ برقية عاجلة وجهها بتـاريـخ ١٥ ايلول ١٩١٥ الى والي حلب شدّد فيهـا على وجـوب : إبادة العنصـر الارمني الـذي يسعى منـذ قرون الى تقـويض أسس الامبـراطـوريـة العثمـانيـة ، وأردف : كذلـك نطلب منكم ان تعملوا جاهدين للقضاء عليهم ولمحو الاسم الارمني بالذات ...[٢١] »

« لقـد بدأ الشتـات الارمني والنـزوح الجماعي ، نحو اجزاء اخرى من العالم عقب مذبحة ١٩١٥ ، إلا ان الارمن تشبثوا بتقاليدهم للاحتفاظ بروابطهم مع الوطن .

وان قمم أرارات* ، المغطـاة بالثلوج والمطلة على عاصمـة ارمينيـا القـديمـة «يريفان» هي ملهمة الغضب الارمني على تركيا ، وبؤرة للمشاعر الوطنيّة ، لا

سيما وانها تذكرهم بصورة دائمة بأهوال المذبحة[٢٢] »

ومما تجدر الاشارة اليه ، انه بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا عام ١٩١٧ ، وما اعقبها من اعلان لحقوق شعوب المستعمرات التابعة لروسيا القيصرية ، اقيمت فوق جزء من « ارمينيا الشرقية » ـ جمهورية ارمينيا السوفياتية ـ وتبلغ مساحة هذه الجمهورية ٢٩٨٠٠* كيلو متر مربع ، وعدد سكانها ثلاثة ملايين ارمني ، وعاصمتها «يريفان» .

« أما في المهجر فيبلغ عدد الارمن في كل انحاء العالم حوالي ثلاثة ملايين ، وكانت أكثريتهم ولغاية السبعينات موجودة في منطقة الشرق الاوسط ، ولكن بعد السبعينات تغير اتجاه الهجرة ، وأصبح اكبر تجمع للأرمن في المهجر في الولايات المتحدة الاميركية ، اذ يبلغ تعدادهم فيها اليوم حوالي ٧٥٠,٠٠٠ نسمة[٢٣] » .

ان تلك المذابح التي قام بها المتنفذون في الدولة التركية ، من رجال سلطة وأدواتهم ، ومن قوى فاشية ظلامية ، تنفيذاً لسياستهم العنصرية الحاقدة ، ضد شعب كان له دور هام في التطور الحضاري لمنطقة الشرق الاوسط ، وما اعقبها من تشتت وتشريد لمن تبقى في جميع انحاء العالم ، ستظل من احلك الصفحات سواداً في تاريخ العنصريين الأتراك .

فالشعب الارمني الذي ترك وراءه وطنه الذي هو اعظم قيمة لا يمكن للانسان ان يتخلى عنها بسهولة ، لن ينسى هذه المذابح ، ولن يفقد آماله ، وهو بالفعل قد بدأ يقتص من جلاديه .



القضية التركمانية :

تنحدر القبائل التركمانية من نفس اصول القبائل التركية ، وهاجرت الى الاناضول في نفس الفترة التي سكنته القبائل التركية تقريباً ، لذا عندما بدأ الاتراك في تأسيس دولتهم ، كان التركمان هم أول من تعرضوا لحملات الغزو التركية ، حيث جرت أولى عمليات التتريك ضد الاقوام غير التركية ، مستفيدين من ثلاثة عوامل رئيسية هي : -

١ - ان التركمان هم من نفس الأصول التركية ، ويدينون بالاسلام ، ولم تكن لهم حضارة متميزة ، بل يشاركون القبائل التركية بتخلفهم ، ولم يكونوا قد استقروا في منطقة محددة بعد هجرتهم الى الاناضول ، بل كانوا متفرقين جغرافياً ، ومختلفين عشائرياً ، مما سهل عملية فرض الطاعة عليهم من قبل السلاطين العثمانيين .

٢ - ان الكثير من العائلات التركمانية رأت في قوة الاتراك ، قوة للدين الاسلامي ، لذا برّرت خضوعها القومي بالواجب الديني . خاصة انها كانت ترى في توسع الدولة التركية ، استمراراً لاستقرارها وتزايد مصالحها ونفوذها ، على حساب القوميات الاخرى ، انطلاقاً من كونها القومية الاقرب الى القومية التركية .

٣ - أراد الاتراك من خلال إخضاع القبائل التركمانية بالقوة ، إرهاب القوميات الاخرى ، التي رفضت سياسة التتريك لذا لم تتأخر الطبقات الحاكمة التركية في التوجه الى الاقوام التركمانية ، فمع فرض طاعتها السياسية ، بدأت تغزو العشائر التركمانية ، وتركتها أمام اختيارين ، إما الانسحاب الى الجبال وإما الفناء[٢٤]، اذا ما رفضت الخضوع المطلق للدولة التركية، وتخليها عن قوميتها».

« وتعتبر الاقوام التركمانية إحدى أكثر الاقوام التي تعرضت لأشرس الهجمات من السلاطين العثمانيين . مما دفع بقسم كبير منهم الى الهرب ، وكانت هجرتهم الى ايران تصل الى مئات الألوف (على اعتبار ان إيران كانت في

صراع مع العثمانيين) . وان مقطع الشعر الذي كان يردده التركمان في ذلك الوقت ـ افتحي ابتها الابواب لنذهب الى الشاه ـ هو افضل الأمثلة على حقيقة ما كان يعانيه التركمان . وتركت حركة الالتجاء هذه ايضاً تأثيراتها على التركمان حتى يومنا هذا ، ومعروف انه ابيد الآلاف من الاشخاص خلال هذه الحركة الالتجائية(٢٥) ».

أما العائلات التي فضلت الخضوع للدولة العثمانية ، فقد كانت أولى القوميات التي طبقت عليها سياسة التتريك ، وبذلك انخرطت في الحياة التركية ـ العثمانية . وشيئاً فشيئاً بدات تفقد مميزاتها القومية حتى ذابت نهائياً في بعض جوانبها . وقد استخدمت هذه الأقوام من قبل السلاطين العثمانيين كقوة ضاربة في غزوات العثمانيين في البداية ، ثم في الاستقرار في الاماكن المفتوحة ، كجزء من سياسة التذويب القومي .

وقد لعب التركمان دوراً بارزاً في هذا المجال في جميع الاماكن التي وصلت اليها الفتوحات العثمانية ، خاصة في مناطق القوميات المسيحية (وتحديداً في منطقة البلقان) عن طريق دفعهم للاستقرار في المناطق الصالحة للزراعة بعد تخليصها بالقوة من أيدي اصحابها الأصليين ، تحت قانون « سيادة المنتصرين » فاصبحت نظرة القوميات الاخرى اليهم ـ وبالتحديد القوميات غير المسلمة ـ لا تختلف عن نظرتهم الى الاتراك انفسهم ، نتيجة قيامهم بأبشع المجازر ، والاعتداءات ضد المواطنين ، واملاكهم ، طمعاً في انتقال هذه الاملاك الى ايديهم .

وكذلك فقد لعب التركمان دوراً بارزاً في حملات إرغام هذه القوميات على أعتناق الاسلام ، من خلال انخراطهم الكثيف في مجتمعات تلك الاقوام .

وعلى الرغم من انتشار التركمان في جميع المناطق التي خضعت للدولة العثمانية ، فلم يكن لها نفس التأثير في المجتمعات ، بقدر تأثيرها في مناطق القوميات غير المسلمة . ففي الدول العربية ، استقر بعض التركمان في مناطق قريبة من المدن الرئيسية ، لكنهم ظلوا معزولين عن المشاركة في الحياة الاجتماعية بل ان الاغوات ، والولاة ، ورجال الاقطاع العرب ، استخدموهم كأيد عاملة رخيصة ، خاصة في مجال الزراعة . واذا كانوا قد استخدموا لفرض الاضطهاد القومي

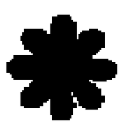
والديني على الاقوام غير المسلمة ، فانهم في المناطق العربية وفي تركيا نفسها ، كانـوا يتعـرضـون الى الاضطهاد الطبقي ، كون غالبيتهم العظمى من الفلاحين الفقراء ، والى اضطهاد قومي ، كونهم من قومية اكثر وضاعة .

وخلال فترة الحكم العثماني ، وحتى انهياره ، لم تتميز حياة التركمان ، بأكثر من ذلـك داخـل المجتمـع العثمـاني . وبعـد قيام الجمهورية التركية إثر إنقلاب « تركيا الفتاة » وبعدها ، حاول الاتراك الاستفادة من وضع التركمان وانتشارهم في بعض المنـاطق ، منهـا العـراق وبلغاريا ، كأقلية قومية تابعة لتركيا ، في تلك الدول انطلاقاً من سياستهم الطورانية .

« لقـد كانت سيـاسـة « فرق تسـد » هي القنـاة التي مرت عبـرهـا سمـوم الطورانية ، لكي تستقر في بعض الرؤوس (...) ولقد فشلت هذه السياسة في اغلب جوانبها ، لان الاغلبية الساحقة من التركمان مارست حياة عادية مسالمة لا تعكـرهـا أيـة نعـرة عنصرية (خاصة في الدول العربية ، وتحديداً العراق) ولم تنظـر هذه الاقليـة الى مصـالحهـا ومستقبلهـا ، إلاّ من خلال تآخيهـا البـديهي والطبيعي مع العرب والاكراد لذا انخرطوا في الحياة الاجتماعية بشكل كامل[٢٦] » .

ومـع مجيء سيـاسة الشركات النفطية ضمن السياسة الاستعمارية العامة ، التقت سوية ، مع النزعات الطائفية والقومية التركية التي كان سلاطين آل عثمان قد زرعـوهـا ، « فنجحت في احـدى جوانبها في اثارة النعرة التركمانية ، فكانت احدى الثمرات المرة ، تلك الاحداث المؤلمة التي وقعت في صيف عام ١٩٥٩ في العراق ، وراح ضحيتها المئات من الطرفين[٢٧] » .

وتحـاول السيـاسة التركية حتى اليوم الاستفادة من هذه الاقليات التركمانية في التأثيـر على استقـرار المجتمعـات الموجودة فيها ، بشتى الطرق ، ومختلف الوسائل ، الا انها فشلت لأن التركمان أنفسهم ربطوا مصيرهم بمصير تلك الدول .



هوامش

(١) مجلة « صوت كردستان » الناطقة بالعربية : العدد ٣٠٢ ص ٤٣ (تاريخ نيسان ـ ايار ١٩٨٦) .

(٢) آلان عبد الله اوج : مختارات « ١ » منشورات حزب العمال الكردستاني (PKK) ١٩٨٥ ـ ص ٢٩

(٣) زكي بك محمد امين : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (من اقدم العصور حتى الآن) (صدر عام ١٩٣١ باللغة الكردية ترجمه الى العربية ـ محمد علي عوني . اصدار لبنان ١٩٨٥ ـ ص ٢٤٧

(٤) المصدر نفسه : الصفحات من ٢١٨ ـ ٢٥٧ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

(٦) آلان عبد الله اوج : مصدر سابق ص ٤١ .

(٧) زكي بك محمد امين : مصدر سابق ص ٢٦٤ .

(٨) طه عامر : حركة التحرر الوطنية الكردية وآفاق المستقبل (دراسة) في صحيفة صوت الرافدين العراقية ـ تاريخ ١١/٢/١٩٨٥ العدد ٦٤ .

(٩) المصدر نفسه : العدد ٦٥ .

(١٠) لازيروف ـ البروفسور في العلوم التاريخية السوفياتية : حول المسالة الكردية (دراسة) عن مجلة آسيا وافريقيا : كما وردت في صحيفة صوت الرافدين العراقية العدد ٢٢ ترجمة مرتضى العلاك .

(١١) انظر بهذا الشان :

● طه عامر : القضية الارمنية تتبع تاريخي (دراسة) صحيفة صوت الرافدين العراقية ـ العدد ٧٤ تاريخ ٢٢/٤/٨٥ .

● صحيفة القاعدة الفلسطينية : العدد ١٢ تاريخ ١٠/٤/٨٥ ـ ص ٣٠ .

(١٢) صحيفة القاعدة : مصدر سابق ـ ص ٣٠

(١٣) طه عامر : مصدر سابق

(١٤) المصدر نفسه .

(١٥) المصدر نفسه .

(١٦) العلم حنا : الارمن مسالة قديمة (دراسة) مجلة الاسبوع العربي العدد ١١٦٣ تاريخ ١٩٨٢/١/٢٥ .

(١٧) المصدر نفسه .

(١٨) مجلة فتح : في الذكرى السعبين لمجزرة الشعب الارمني - العدد ٣٥ تاريخ ١٩٨٥/٤/٢٢ ص ٢٢ .

(١٩) طه عامر : مصدر سابق .

(٢٠) آلان عبد الله اوج : مصدر سابق ص ٣٩ .

(٢١) كالوستيان جوزف : الذكرى السبعون للمجزرة الارمنية الكبرى (دراسة) جريدة « السفير » اللبنانية - العدد ٣٩٢٧ تاريخ ١٩٨٥/٤/٢٤) .

* جبال ارارات ، تعتبر مقدسة بالنسبة للارمن ، وقد تنازل عنها الاتحاد السوفياتي لتركيا بموجب معاهدة « كارس » عام ١٩٢١ .

(٢٢) جريدة الشرق اللبنانية : الشعب الارمني لم ينسى مذبحة ١٩١٥ العدد ١٠٠٥٤ تاريخ ١٩٨٢/١١/٥ .

* هذه المساحة لا تشكل سوى ١٠٪ من مساحة الاراضي الارمنية التاريخية .

(٢٣) صحيفة القاعدة : مصدر سابق ص ١٢

(٢٤) آلان عبد الله اوج : مصدر سابق ص ٢٨

(٢٥) المصدر نفسه : ص ٢٨

(٢٦) الخالدي وسام : التركمانية لا تعني الطورانية (دراسة) صحيفة صوت الرافدين - العدد ٢٦ تاريخ ١٩٨٤/٤/٣٠ .

(٢٧) المصدر نفسه .

القسم الخامس

تركيا من التحديث الى الفاشية

وجهان متناقضان :

ان البنى الاجتماعية لا يمكن ان تكون معلقة في الهواء ، انما هي بالضرورة ستكـون مرتبطة بالظروف التي نشأت فيها ، وبالدوافع الداخلية والخارجية التي ساهمت في تبلورها .

من هنـا فان البـرجـوازيـة التـركيـة التي ولـدت وتـرعرعت في ظل السياسة الطـورانيـة العثمـانيـة ، قد حملت في اعمـاقهـا أثقـال هذه السياسة ، بل انها تصاعدت على هذا الأساس .

«ولقد اختـارت البرجوازية التركية مع ولادتها سياسة السلاطين الموجّهة ضد الشعـوب ، والمنظّمـة خلال مرحلة معينـة ، وواصلت الغزووالنهب الذي اختاره السـلاطين ·· ظـام للدولـة ، واتخـذت بهـدف خلق قومية واحدة ضمن ـ الميثاق المللي ـ العنف المكشوف كقاعدة لأساس تحركها ضد الشعوب[1] » .

لقـد راينـا كيف انقلب الاتحـاديـون إثـر انقـلاب « تركيا الفتاة » على شعار « عدالة ، حرية ، مساواة » وأثبتوا أنهم من احدى الطبقات الماهرة في ممارسة الابـادة والمـذابح ضد الشعوب ، إلى درجة أدهشت حتى أكثر القوى بطشاً في التـاريـخ وفي نهاية ١٩١٨ وجدت البروازية التركية أنها وجهاً لوجه أمام مازرعته يداها من ظلم وتفرقة بين الشعوب ، فوقفت هذه الشعوب ضد تركيا وأعلن الكثير منها انفصاله عنها ، أورغبته الملحّة بهذا الانفصـال ، بالاضافة الى ان تركيا قد وجدت نفسها أيضاً نتيجة اشتراكها في الحرب العالمية الأولى ـ أنها أمام قانون المنتصـرين الـذين راحـوا يقتطعـون الأراضي ممـا كان يسمى بالامبـراطورية العثمانية ، حتى أصبح يهدد الكيان التركي برمته .

غير أن هذا الكيان عاد وأنقذ مرة اخرى بفعل ثلاثة عوامل رئيسية :

١ ـ التنـافس بين بريطـانيـا وفـرنسـا على تقـاسم المصـالـح والأراضي ، والانتداب على التركة العثمانية .

٢ ـ قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية ، وتخوف الدول الغربية من تأثيراتها .

٣ ـ قيـام ثورة « مصطفى كمـال اتـاتـورك » الضـابط الألباني الأصل الذي انتصـر على اليـونـانيين سنـة ١٩٢١ ، ١٩٢٢ وحصـل على تكريس كيان تركيا

بواسطة معاهدة لوزان ، ٢٤ تموز ١٩٢٣

« لقد كان لانقلاب اتاتورك الاثر الكبير في عملية خلق تركيا المعاصرة ، اذ أدت الاصلاحات التي قام بها الى تصليب بنيان الدولة الحديثة عبر التركيز على فكرة القومية التركية من منظور « علماني تحديثي » ومن خلال انتهاج خطة تنمية اقتصادية شاملة ، كان من نتائجها خلق قاعدة اقتصادية متماسكة ، وتركت هذه القاعدة إنعكاسها الواضح على الأنظمة التشريعية والادارية التي شهدت بدورها عملية إصلاحات وتغيرات جذرية ، لتتوافق مع الاتجاه التحديثي للحكم الجمهوري الذي كرسّه إنقلاب اتاتورك[٢] » .

لقد أراد مصطفى كمال ان يصهر المجتمع التركي برمته ، وجعله أمّة من الغرب الحديث ، إلاّ ان هذا الهدف قد اصطدم بقوة مع طبيعة البرجوازية التركية (المثقلة بتقاليد الماضي ، فالتحديث وتخفيف وطأة العنصرية التركية اصطدام بالجذور العميقة لتركة السلاطين ، وطورانية البرجوازية التي كانت قد تحولت الى أحط أنواع الفاشية ، فوق ان محاولة جعل تركيا أمة من الغرب (المسيحي) قد كبحها ثقل الاسلام .

لذا « عندما اراد مصطفى كمال ان يجعل من التركي انسانا حرا (حسب المفهوم الأوروبي) ، كان في الوقت ذاته مضطرا لأن يجرده من حرية العبادة[٣] » .

لذا أسس مصطفى كمال « حزب الشعب التركي » ليكون الأداة السياسية الفعلية في تغيير بنية المجتمع التركي ، إلا ان شخصية « مصطفى كمال » القوية كان لها الدور الأكبر ، اذ بعد مجيء خلفائه ، ازدادت حدة التناقضات الداخلية ، وبدأ تراجع الأفكار الكمالية ، نتيجة تساهل « عصمت اينونو » ـ الذي خلف اتاتورك ـ مع التقاليد القديمة ، مما ادى الى ترك « حزب الشعب » الحكم لصالح « الحزب الديمقراطي » برئاسة جلال بايار وعدنان مندريس » عام ١٩٥٠ . وقد امتدت فترة تولي الديمقراطيين منذ عام ١٩٥٠ ـ ولغاية ١٩٦٠ عندما قام الجيش بانقلاب عسكري ضد حكومة « عدنان مندريس » الذي قدّم الى المحاكمة وأعدم .

ويمكننا ان نرصد التطورات الرئيسية التالية خلال هذه الفترة : ـ

اولاً : على الصعيد الخارجي : -

١ - في عام ١٩٥٢ انضمت تركيا الى دول حلف شمال الأطلسي انسجاماً مع سياسة التوجه نحو الغرب الرأسمالي ، وتحت شعار التخوف من الأطماع السوفياتية ، وللجم معارضة التيارات الاسلامية - انمعادية اساساً للشيوعية .

٢ - لم تكن السياسة الخارجية قائمة على تشديد التحالف مع الغرب وانما على الدعم الذي يجب تقديمه لقضية القبارصة الأتراك .

٣ - في عام ١٩٥٢ اعترفت الحكومة التركية بالكيان الصهيوني في فلسطين

٤ - وقفت تركيا موقفاً معادياً للاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية ، واصبحت تركية ساحة « ساخنة » للحرب الباردة .

٥ - وقفت موقفاً معادياً لمسألة تحرر شعوب آسيا وأفريقيا .

٦ - في عام ١٩٥٥ شاركت تركيا في حلف بغداد الذي كان يستهدف ضرب حركة التحرر العربية .

ثانياً : على الصعيد الداخلي :

١ - سيطرة التقاليد القديمة بوجهيها العنصري القومي ، والتعصب الديني « وحدث في عام ١٩٥٥ فورة من التعصب الديني كان ضحيتها الأقليات غير المسلمة في تركيا[٤] » واصبح الدين من جديد سلاحاً في التنافس السياسي .

٢ - بداية تبلور الرأسمال التركي المالي ، المرتبط بالرأسمال العالمي ، بعد ان استطاع توسيع قواعده في أرجاء الأرياف وسيطرته « وهكذا جرى تسليم اقتصاد تركيا الى احتكار الشركات ، وكان ٤٠ الف جرار ، و ١٠٠ الف سيارة ، وأعداد من محطات المحروقات عبارة عن مراسيم دخول تركيا تحت الانتداب الاميركي[٥] » .

٣ - معارضة شديدة من قبل الأحزاب المعارضة ، ومن قبل الجماهير التركية لسياسة الحكومة المؤيد لسياسة الولايات المتحدة ، وما نتج عنها من دخول تركيا في أحلاف عسكرية في منطقة الشرق الأوسط .

٤ - ردة فعل حادة وواسعة النطاق ضد الاجراءات القمعية التي قامت بها الحكومة ضد الأحزاب غير الموالية ، وضد النقابات .

٥ ـ تردي الوضع الاقتصادي التركي ، نتيجة لسياسة النهب المزدوجة التي يمارسها أرباب الرأسمال المالي ، والاقطاع التركي ، بالاضافة الى النهب الذي تتولاه الشركات الاحتكارية الاجنبية .

● ● ●

هذه التطورات الرئيسية على الصعيدين الخارجي والداخلي ، دفعت الجيش في ٢٧ أيلول ١٩٦٠ الى الاطاحة بالحكومة ، بالاضافة الى سبب جوهري آخر وهو « إحتواء أية محاولة تغيير جذري في المنطقة ، يؤدي الى تزايد نفوذ القوى الراديكالية (اليسارية ـ التلميح من عند المؤلف) في البلاد مما يعرض النظام القائم للخطر(٦) .

« لقد رفع انقلاب العسكريين من جديد شعار المبادىء الكمالية الكبرى ، وبخاصة العودة الى فصل دقيق بين الاسلام والدولة(٧) » .

« وفي شهر شباط عام ١٩٦١ دعت اللجنة العسكرية التي تتولى إدارة البلاد « مؤقتاً » الى تشكيل جمعية تأسيسية لاعداد دستور جديد للبلاد . وبالفعل أعدت هذه الجمعية بتاريخ ٩ تموز من العام نفسه الدستور الجديد ،وقد أكد النص من جديد على مبدأ الفصل بين الاسلام والدولة، معززاً الحواجز القانونية المخصصة لتجنب التعدي الفعلي على المبدأ ، فممارسة العبادة مسموح بها ، إلا أنها لا ينبغي ان تعكر النظام العام : لذلك يحظر من جديد النشاط الخارجي للجمعيات الدينية ، ويلغى التعليم الديني الرسمي الموزع على اساتذة الديانة . غير ان المشروع يبدي في الوقت ذاته اهتمامه للحؤول دون العودة الى اساليب فوضوية في المؤسسات الخاصة : ينبغي على هذه المؤسسات ان تكون مراقبة ومسموحاً بها من قبل الدولة ، وسيصار الى اغلاقها اذا كانت المواد التي تدرسها مخالفة للعلم في هذه الأيام . وأخيراً ، يحظر كل إستغلال للمشاعر الدينية لهدف سياسي ، كما تحظر كل دعاية تتناول نظام الدولة على أساس ديني(٨) » .

ان نظرة سريعة الى هذا النص من الدستور تؤكد مدى احتداد الصراع السياسي على اساس ديني في المجتمع التركي .

كما ان الدستور لم يستطع أن يكبح جماح القوى المعارضة ، بل على العكس

من ذلك فقد وجدت هذه القوى مناخاً جماهيرياً أكثر اتساعاً خاصة بعد وصول حزب العدالة الى الحكم عام ١٩٦٥ .

ولقد شهدت الفترة الممتدة بين الاعلان عن الدستور ، وحدوث الانقلاب العسكري بتاريخ ١٢ آذار ١٩٧٠ جملة تطورات في غاية الأهمية بالنسبة للحياة التركية .

فالى جانب الصراع بين القوى التقليدية المحافظة (الدينية والقومية) ، وبين قوى التحديث والتغريب ، ظهر صراع آخر لا يقل عنه أهمية وضرواة ، وهو الصراع بين القوى الديمقراطية اليسارية ، وبين القوى المحافظة اليمينية، وبرزت في أعماق هاتين المجموعتين من القوى تيارات (معتدلة ومتطرفة) ، ففي مقابل القوى المحافظة اليمينية (يسار الوسط في حزب الشعب ـ وغيرها) ظهرت القوى الديمقراطية اليسارية المعتدلة التي تسعى الى تحقيق مكاسبها عن طريق البرلمان ، والانتخابات الحرة ، والنقابات الشرعية . وفي مقابل القوى اليمينية المتطرفة (الدينية ، والقومية) ظهرت القوى اليسارية المتطرفة .

ففي هذه الفترة ، وعلى صعيد مواجهة القوى الديمقراطية « اليسارية » المتنامية ، « تم تأسيس حزب الحركة القومية ، وبذلك بدأت عملية تنظيم قوة ضاربة مدنية وعسكرية ضد أي تدخل قد يأتي من جهة غير خاضعة للسيطرة ، وللاشراف (مع خلق بديل لتدفق الشبيبة بشكل كثيف نحو الاشتراكية) ، وكذلك فقد تم اقحام عملاء المخابرات المركزية الأميركية وجواسيسها (تحت اقنعة الثورة والتقدم) بالتيار المعروف باسم « الجذري » لدى البعض ، والداعي الى توظيف تدخل الجيش لصالح القوى التقدمية (حسب الطريقة الناصرية ـ والبعثية ـ المؤلف) اما الاجراء الثالث فكان يتجسد في جعل ، حزب الشعب الجمهوري ، يطلق شعار « يسار الوسط » فالهدف من هذا الشعار كان منع تدفق الجماهير الكثيف الى مواقع تبني الاشتراكية(٩) » .

أما الجانب الآخر من الصراع السياسي فيتعلق بعلاقة تركيا مع الدول الغربية ، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية ، وسياستها المعادية للشعوب ، فقد بدأت الكثير من القوى السياسية تطالب الحكومة بعدم الارتباط مع السياسة الاميركية . وانطلاقاً من قضية قبرص التي تفجرت عام ١٩٦٥ ، والأحداث

الدامية بين الطائفتين اليونانية والتركية ، كانت هذه القوى ترى ضرورة التقارب مع مجموعة الدول الأفـرو ـ آسيـويـة لكسب تأييدها ، وطالبت الحكومة باتخاذ مواقف اكثر انفتاحاً وتفهماً تجاه هذه الدول .

اما على الصعيد الاقتصادي « فتركيا أصبحت فريسة للتضخم المالي ـ مما أدى الى انخفـاض قيمـة الليـرة التـركيـة بنسبة ٦٦ ٪ بتاريخ ١٠ آب ١٩٧٠ ـ والحمى الاجتمـاعيـة لم تكف عن التصـاعـد يغذيها تصنيع فوضوي لا تفيد منه سوى اقلية من ذوي الامتيازات[١٠] .

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى ان ما تميزت به هذه الفترة ايضا هو « زخم الجهود المبذولة من جانب راس المال المالي لاقامة هيمنته وتكريسها ، ففي هذه الفتـرة نشهـد العودة الى التخطيط ، والى تعاظم تدخل الدولة بصورة عامة . كما ظهـر العـديـد من المؤسسات والمشاريع المشتركة على المسرح ، مشتركة بين رأس المالي المالي و « العسكري » . فالمؤسسة التعاونية العسكرية للجيش في تركيـا شريـك مبـاشـر في هذا المجمع المشترك : بين الدولة والبنوك والصناعة والـرأسمال الأجنبي . فمجموعة الضباط التي تحتل المواقع القيادية في الجيش قد اندمجت وتوحدت مع رأس المال المالي[١١] » .

ان مجمـل هذه التطـورات قد أدت الى ردود فعـل واسعة « ففي شهر حزيران قامت التظـاهـرات العمـاليـة التي تحولت الى هياج شعبي دام ، بالاضافة الى الضيق الفـلاحي الـذي لم ترد عليـه حكـومـات أنقـرة باصلاح زراعي حقيقي ، والغليان المتطرف في الجامعات والمعاهد : كل شيء يبقى على جو من التوتر في المدن كما في الأرياف . وبعد الانذارات التي اطلقها الجنرال « صوناي » رئيس الجمهـوريـة تدخـل الجيش بتـاريـخ ١٢ آذار ١٩٧١ ، ليقيل السيد ديميريل ، ويفرض على البرلمان رئيس دولة منتخب من العسكريين[١٢] » .

ومنذ هذا الانقلاب العسكري ، ولغاية الانقلاب العسكري الجديد الذي قام به الجيش بزعـامة « الجنرال كنعان ايفرين » بتاريخ ١٢ أيلول ١٩٨٠ ، مرت تركيا بلحظـات حرجـة في مختلف نواحي الحيـاة الـداخليـة ، والسياسية الخارجية ، وضعت مصير الشعب التركي ، في كثير من الأحيان على مفترقات طرق ، صعبة الاختيار والمسالك . واتسمت الحياة في هذه الفترة بالفوضى اللامتناهية .

١ ـ على الصعيد الاقتصادي : ـ

لقد تميزت هذه الفترة من الناحية الاقتصادية بالسيطرة الكاملة للاحتكارات المتزاوجة بين الشركات الأجنبية والراسمال الأجنبي ، وبين الدولة ، والبنوك ، وبما أن الدولة هي شريك أساسي في نظام الاحتكارات ، فانها بالتالي سوف تخضع المجتمع برمته لسياسة النهب والاستلاب والفوضى الاقتصادية . وكذلك فان رأس المال المالي وأرباب البنوك يصبحون شركاء اصليين في توجيه سياسة الدولة ، وتصبح الشركات الأجنبية هي التي تحدد المسار الاجتماعي والاقتصادي للدولة على اساس كمية الارباح .

وهكذا « فان نشاط الدولة الهادف الى ضبط وتنظيم الاقتصاد بما يخدم المصالح العامة للاحتكارات، قد اتسع كثيراً ، فالدولة تستخدم مختلف الوسائل لتحقيق هذا الهدف ، مثل التوظيفات المباشرة ، وتقديم السلف للاحتكارات من الموازنة ، والاحالات والتعهدات والعقود وصفقات البيع والشراء والاعفاء من الرسوم ، وتدابير تشجيع استهلاك الدلة ، ونفقاتها والتعويضات ، وغير ذلك من الامتيازات .. ما هي إلا قنوات لارسال المداخيل المنتزعة من الشعب الى جيوب الاحتكارات[١٣] »

وخلال فترة قصيرة نسبياً أصبح « للاحتكارات سيطرة قوية على مجمل الاقتصاد : ان ٣ ـ ٥ ٪ من امكنة العمل تفرض سيطرتها على ٨٠ ـ ٨٥ ٪ من إجمالي راسمال الشركات المساهمة ، وتحقق سنوياً مالا يقل عن ٨٠ ٪ من مجموع أرباح كل أماكن العمل في البلاد[١٤] »

وكذلك تلعب البنوك دوراً كبيراً في سياسة الاحتكارات ، ونهب الشعب ، بالاضافة الى ان العديد من ارباب البنوك يسيطرون على الكثير من اماكن العمل نفسها ، «ان تاريخ البنوك في تركيا هو تاريخ طويل ايضاً، فالبنوك جنباً الى جنب مع راسمال الدولة والأجنبي ، لعبت أهم الأدوار في نشوء الاحتكارت وتطورها ، ولهذا السبب كانت عملية الاحتكار بالذات ، كما في المانيا واليابان هي عملية نشوء رأس المال المالي المحلي ، عبر اندماج الرساميل المصرفية والصناعية اندماجاً كاملاً. وهناك ٤٢ بنكا وما يقارب من ١٠٠ مؤسسة احتكارية في تركيا اليوم.

الا ان المؤسسات الاحتكارية العملاقة بين هذه المؤسسات لا تزيد عن ١٠ مؤسسات[١٥] .

أما أهم البنوك الموجودة في تركيا فهي على النحو التالي : ـ

١ ـ البنوك العائدة للدولة (الرساميل الخاصة قليلة نسبياً)

- بنك الأوقاف التركي
- بنك المعلمين
- البنك المركزي للجمهورية التركية
- البنك الزراعي في الجمهورية التركية

٢ ـ البنوك القومية الخاصة (رساميلها كاملة ، أو معظمها لأشخاص)

- بنك العمل التركي
- البنك الأبيض
- بنك الانشاء والتسليف

٣ ـ البنوك ذات الرساميل الأجنبية : ـ

- البنك العثماني
- البنك التجاري

٤ ـ بنوك التوظيف (وهي البنوك التي يرتكز نشاطها على توظيف الرساميل) .

- بنك التنمية الصناعية في تركيا
- البنك الصناعي للتوظيف

ان هذه البنـوك هي التي توحـد « الفئـة الاجتماعية الاحتكارية » والتي تضم أكبر ممثلي طبقة الرساميل ، وكبار الملاكين العقاريين ، وكبار التجار ، وأرباب المصارف .

لقـد ولـد ارتبـاط الاحتكـارات المحليـة مع الاحتكارات الأجنبية ، تناقضات اجتمـاعيـة حادة « فالارباح الامبريالية الاضافية الفاحشة في الغرب ، لا يأتي القسم الأكبـر منهـا من أربـاح استغلال طبقاتها العاملة بالذات ، بل يتحقق عبر استغـلال شعـوب العالم ونهبها، بما فيها الشعب التركي نفسه ، غير أن مصدر الاستغـلال الـرئيسي بالنسبـة لراس المـال المـالي التـركي ، هو العامل وسائر

الكـادحين في تركيـا (....) وهذا الواقع دفع بالاحتكارات في تركيا لأن تمارس ابشـع أشكـال الاستغـلال . وهـذه الأوضاع تعني بالنسبة للكادحين مزيداً من الانضباط الحديدي والقهر والاضطهاد والعنف[١٦] » .

«والظاهرة البارزة الثانية ، هي ظروف العمل اللاانسانية ، حيث أخذت عملية استغلال العاملات واستغلال الأطفال تحت اسم التدريب ، واستغلال العمال غير الشرعيين ، وغير الخاضعين لقوانين التأمينات ، أبعاداً لا تصدق[١٧] » !

هذا الوضع الاقتصادي ، المرتبط بمسيرة الاحتكارات في تركيا « قد ولد عدم الاستقرار بشكل دائم: من اختناق في تأمين القطع ، وهبوط الانتاج ، والتضخم الـذي اتخـذ ابعـاداً مخيفـة وحوادث إفلاس متكررة . وبالمقابل كانت الجماهير الفقيـرة تسحق تحت وطأة الغـلاء والبطـالـة ، ويصبـح الاقتصـاد في وضـع لا يستطيـع معـه الاستمـرار إلا بالحقن التي يتلقـاهـا من الخـارج ، أو القـروض الجـديـدة التي يتم تأمينهـا فتتحـول الى أعبـاء إضـافيـة ، لأنهـا لا توظف في الميادين الانتاجية[١٨] »

وهـذه المسيـرة الاقتصادية المتقهقرة عسكت نفسها على الحياة الاجتماعية للشعب التـركي ، خاصـة وأن الـدولة هي شريك في الاحتكارات ، لذا فهي تسن القـوانين التي من شأنهـا إمتصـاص دمـاء الشعب لانقـاذ الاحتكارات ، وتزايد ارباحها . « لذا أصدرت الدولة قانوناً يمنع سفر الأتراك الى خارج البلاد إلا مرة واحدة كل سنتين ، وهناك عدة أسباب لذلك من أهمها : نقص العملة الصعبة في خزائن الدولة . وثانيهما ان تركيا بحكم وضعها كعضو في حلف الأطلسي وأيضاً في مجموعة الدول الأوربية ترتبط مع بلاد كثيرة باتفاقيات عمل . وهي بالتالي لا تسمح للمواطن التركي بالعمل في الخارج ، إلا من خلال الحكومة ذاتها . ونسبة العمـال الاتراك في كل من المانيا والنمسا مرتفعة جداً لدرجة انهم يعيشون في أحيـاء كاملة خاصـة بهم ، ويطالبون الحكومات بحقوقهم ، وينظمون الاضرابات التي تكاد تصيب الحياة في بعض بلدان أوروبا الغربية بالشلل ، فالعامل التركي لا يقوم في أوروبا إلا بالأعمال التي تركها الأوروبيون مثل أعمال النظافة العامة ، وأعمال البناء ورصف الطرق والمجاري ... الخ[١٩] »

« وفي السنـوات الاخيـرة أصبحت حكـومتـا المانيا الغربية والنمسا تطالبان

باعداد اقل من العمال الاتراك ، وذلك بسبب المشاكل العديدة التي يسببونها للحكومات . بالاضافة الى نقص الاحتياج الفعلي للعمال الاجانب ، وهكذا أصبح المخرج الوحيد للأزمة الاقتصادية الخانقة امام الشباب الاتراك هو في الخروج على القانون ، ولم يعد لديهم سوى طريق البطالة ، والتجمع حول النواصي منذ الصباح الباكر لترتيب وتدبير السرقات ، ولعل هذه الحال المتدهورة للاقتصاد هي التي أدت الى تفشي الوسائل غير القانونية للحصول على الأموال[٢٠] .

إزاء هذا التدهور انخفضت قيمة الليرة التركية بشكل كبير* ، وأصبح دخل الفرد منخفضاً جداً عن مستوى تأمين الحاجيات الضرورية للحياة (سكن ، مواصلات ، ملابس ، غذاء ، دواء) .

وقد ولّد هذا التدهور الكثير من المشكلات الاجتماعية التي عصفت بالمجتمع التركي .

٢ ـ على الصعيد السياسي : ـ

لقد شهدت هذه الفترة تطورات سياسية حادة ، سواء على صعيد مواقف الحكومة التركية ، أو على صعيد القوى السياسية ، وردود فعلها المتباينة من هذه المواقف .

وقد تمحورت التباينات والتعارضات بين القوى السياسية وصراعها داخل المجتمع التركي، حول أربع قضايا اساسية:

الأولى : الارتباط بالسياسة الغربية ـ وتحديداً الولايات المتحدة الامريكية ـ ففي حين كانت الحكومات المتعاقبة خلال هذه الفترة ، تتجه في سياستها الخارجية نحو الولايات المتحدة ، ومجموعة الدول الأوروبية الغربية ، بدفع من أرباب الاحتكار والشركات الاجنبية ، والقوى الأكثريميينية . كانت القوى الديمقراطية المتعددة مدعومة من رأي عام تركي واسع تعارض هذا التوجه ، وتطالب باتخاذ مواقف سياسية تنسجم مع المصلحة التركية . بغض النظر عن الموقف الغربي . وقد تسلحت هذه القوى بطبيعة المساعدات التي يقدمها الغرب لتركيا والتي تساهم في تكريس سياسة الاحتكارات ، ونهب الشعب ومقارنتها بالمساعدات التي يقدمها الاتحاد السوفياتي من بناء مصانع ودعم عملية

الانتاج .

الثــانيــة : قضيــة غزوقبــرص ، والـخلاف مع اليونان ، التي اعتبرتها القوى الـديمقــراطيــة خدمــة للمصــالــح الاميــركية وليس لها مبرر ، وقامت هذه القوى بمظاهرات اتسمت بالعنف احتجاجاً على هذه الخطوة .

وقد تعرضت تركيا الى عزلة سياسية نتيجة لهذه الخطوة التي عارضتها الدول الاشتــراكيــة ، ودول عدم الانحيــاز ، والأمم المتحــدة ، وحتى غالبيــة الـدول الغــربيــة ، بالاضافة الى التوتر الذي وصل الى الاستنفار العسكري مع الشريك الأطلسي اليوناني (وسنتعرض لقضية قبرص في مكان آخر من الكتاب) .

الثــالثــة : النظـرة الى القــوميات غير التركية داخل المجتمع التركي ... لقد صعــدت القــوى اليمينية ، خاصة الحزب القومي ، وحزب العدالة ، وحزب حماية الجمهورية من عدائها للشعوب والقوميات غير التركية التي تعيش فوق الأراضي التركية ، تحت شعار العودة « للطورانية » خاصة ضد الأكراد والعرب . وانشأت هذه الأحــزاب بدعم من اربــاب الاحتكــار المالي الميليشيات الخاصة بها ، التي راحت تعتــدي وتقتــل الـذين يعــارضون هذه العنصرية القومية . وبدأت عمليات عسكــريــة واسعــة ضد مواقع الأكراد . ووقعت حوادث دامية في تلك المناطق . بالاضافة الى اعتقالات ، وتصفية كوادر وعناصر القوى الديمقراطية المعارضة . خالقــة بذلــك جواً ارهــابيــاً محمــومــاً ، شكل قاعدة أساسية لانقلاب الجنرالات الفاشي فيما بعد .

بالمقــابـل تصــدت القــوى المعــارضــة لهذه السياسة ، واستخدمت بعضها اسلوب العنف في مواجهــة القــوى الفاشية ، الأمر الذي كاد ان يوصل تركيا الى حرب أهلية دامية .

وقد فرضت الحكومة الأحكام العرفية على عدد كبير من المناطق والمدن ، إلا ان توظيف هذه الاحكــام كان لحماية القوى اليمينية ولمواجهة القوى اليســارية ، واستهدافها اعتقالاً واعداماً ، فامتلأت السجون بالمعتقلين السياسيين ، وتوالت الاعدامات ، واستخدمت اكثر وسائل التعذيب فاشية ، الأمر الذي أدى الى ردود فعـل عنيفة في صفوف الأكراد ، وقواهم الثورية ، وبدأوا يشنون حرب عصابات ضد مواقع القــوات التــركيــة . وكــذلك أعلن جيش التحرير الأرمني السري ، عن

قراره بالتصدي للدولة التركية ، وضرب سفاراتها ومكاتبها في الخارج ، وبالفعل بدأت عمليـة اغتيـالات واسعة ضد الدبلوماسيين الأتراك ، والسفارات التركية لا سيمـا في أوروبـا الغربية من قبل الجيش السري الأرمني ، لدرجة ان وجود هذه السفارات أصبح عبئاً على الدول المضيفة .

الرابعة : بروز التيارات والقوى الدينية المتعصبة . وكانت هذه القوى تلتقي مع القوى العنصرية اليمينية من حيث النظرة الى الشعوب والأقوام الأخرى ، إلا أنها كانت تطالب بعلاقات أفضل مع العالم الاسلامي المعتدل . وفي حين كانت تقف بقـوة ضد الاتحـاد السوفياتي و « الشيوعية » ،كانت تطالب بعدم الانجرار وراء السياسة الأميركية ، خاصة ضد العالم الاسلامي ، إلا بمقدار ما يحقق ذلك من مصالح تركية .

وبـالـرغم من عدم تبلور هذه التيـارات في قوة سيـاسيـة منظمة ، فأنها كانت منتشـرة في صفـوف غالبيـة الأحـزاب ، ورجالات الدولة وقادة الجيش . وأرباب الاحتكـارات المـاليـة . الـذين كانت تنـاسبهم العـودة لسيـاسـة السـلاطين « الطـورانيـة » ويحلمـون باعـادة أمجـادها غير ان هذه التيارات ، ودعواتها قد اصطـدمت بدعـاة التحـديث على الطـراز الاوروبي . كمـا اصطدمت مع القوى اليسـاريـة والـديمقراطية المختلفة ، وعلى الرغم من العاطفة الجماهيرية معها ، انطـلاقـاً من ثقـل الاسـلام في المجتمع التركي ، إلا أنها لم تصل الى أبعد من التعاطف الحذر إزاء دعواتها .

●●●

هذه الاتجـاهـات الأربعـة ، والمـواقف المتبـاينـة منهـا ، والنتـائج الدامية لصـراعهـا سواء داخـل السلطـة وأحـزابها ، أوبين الجماهير التركية ، ساهمت بشكـل اسـاسي . في نمـو «الفاشية» التركية الجديدة، في مقابل الاحساس الشعبي العميق بالحاجة الى الديمقراطية .

وتحت وطأة المناداة الشعبية بالديمقراطية ، اضطرت الحكومة نفسها « حزب الشعب الجمهـوري » الى المطـالبـة بهذه الديمقراطية ، لكسب تأييد جماهيري يمنـع انهيـار سلطتـه وشعبيتـه . لكن هذه المطالبة كانت تخفي بين طياتها عداء

قوياً للديمقراطيين التقدميين ،

« فليس في تركيا وحسب ، بل في جميع أرجاء العالم تلجأ الاشتراكية الديمقراطية من جهة اعلان مواقف شكلية ضد الفاشية. ومن الجهة الاخرى تبادر الى اتخاذ الاجراءات والتدابير ضد الشيوعيين والثوريين ، لأنها تخاف من الاطاحة بالرأسمالية ، مثل خوفها من الموت . ولسوء الحظ هناك ارتباط وثيق بين خوف الاشتراكية الديمقراطية من الطبقة العاملة والكادحين ، والتمرد الشعبي وبين مجيء الفاشية الى السلطة[٢١] » لقد فشلت القوى الفاشية التركية في الوصول الى السلطة عن طريق قوتها المنظمة على الرغم من محاولاتها المحمومة للبروز كقوة جماهيرية* لكنها دفعت بأوضاع البلاد لايصال الفاشية الى السلطة عن طريق السلطة نفسها ، فخلقت الذرائع لوصول « جنرالات » الجيش الى السلطة باسم « وقف الارهاب » .

٣ ـ على الصعيد الاجتماعي : ـ

لقد خلقت سياسة الاحتكارات جواً مرعباً داخل المجتمع التركي « وتحولت تركيا الى مرعى أو معلف مشترك للاحتكارات المحلية والأجنبية[٢٢] » فباستثناء ١٢ عائلة تلعب بالملايين* . فان غالبية أبناء الشعب وصلت الى حالة فقر مدقع ، ففي الأرياف ، وضواحي المدن الفقيرة وصلت الحالة الاجتماعية الى درجة المجاعة الحقيقية ، « وتفشت الوسائل غير القانونية للحصول على الأموال من سرقة، واحتيال ، وأعمال السوق السوداء ، والمتاجرة بالنساء .. وغيرها[٢٣] » وامتلأت الشوارع، وخاصة استانبول ، بالمتسولين الذين غالبيتهم من فلاحي الاناضول ، الذين يهاجرون في جماعات غفيرة الى العاصمة الثانية بحثا عن الثراء فيصابون بخيبة أمل شديدة لتفشي البطالة وارتفاع الأسعار[٢٤] » وبدلا عن الحلم بالثراء يبدأوون بالبحث عن لقمة العيش عن طريق التسول .

ان ازمة البطالة قد رافقها انخفاض في الأجور ، ونقص كبير في التأمينات الاجتماعية ، وارتفاع الحوادث الخطيرة اثناء العمل ، بحيث « اصبحت نسبة هذه الحوادث اكبر نسبة في العالم[٢٥] » . ونتيجة لهذا الواقع انتشر الى جانب العنف السياسي ، العنف الاجتماعي المرافق لأعمال السرقة . والمتاجرة غير

المشـروعـة والتهـريب ، واصبحت نسبـة الاغتيـالات في تركيـا أعلى نسبة في العالم ، فالمفقودون لا يعرف مصيرهم ، والذين يعرف مصيرهم يكونون قد تحولوا الى جثث في المناطق المهجورة او الآبار او المجاري .

امـا على صعيـد الصـراع السيـاسي ، فقد اتسم بأبعاد خطيرة عندما بدأت القوى العنصرية الفاشية تمارس مختلف اشكال العنف ضد القوى الديمقراطية المعـارضة ، الأمر الذي دفع بالقوى الديمقراطية للشروع في الدفاع عن نفسها بنفس الـوسـائـل، ونظـراً لقيـام اجهـزة الدولة القمعية من جيش وشرطة ورجال مخابرات بأعمال العنف بحجة السيطرة على الوضع، فقد اصبحت تركيا برمتها مسرحاً كبيراً لاعمال العنف والاغتيالات والتصفيات بشكل لم تشهده أية دولة في العـالم خلال العصـر الحـديث . وأصبـح الـرعب هو سيـد الموقف ، وأصبحت الاشتبـاكـات الليليـة لا تنقطـع في المـدن والقـرى ، ولا تسمـع سوى أصوات الرصاص وسيارات الاسعاف ، ودوريات الجيش والشرطة .

وقـد طال هذا العنف مختلف جوانب الحيـاة التـركيـة ، وكافة فئات الشعب ، واصبـح المفقـودون يعدون بالآلاف ، وعائلاتهم لا تعرف ما اذا كانوا في سجون السلطـة، أو في المقـابر الرسمية، او جثثاً على جنبات الطرق . بكل ما يشكله ذلك من مآسٍ اجتماعية على صعيد العائلات . وتحولت المدن الكبيرة في الليل . الى مقابر تسكنها الاشباح .

بالاضـافـة الى ذلـك فقـد شلّت الاضـرابات والتظاهرات الاحتجاجية الأوضاع الاقتصـاديـة والاجتمـاعية في تركيا ، وكانت تنعكس أساساً على حساب الطبقة العاملة ، والكادحين ، نتيجة الفصل عن العمل الذي كانت تتخذه إدارة الشركات الاحتكارية .

* * *

ونتيجـة لهذه الأوضاع الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، فقد تسارع نمو القوى اليسارية وتبلور ، وتصاعد النضال الطبقي ، وزاد تأثير القوى الثورية بين صفوف الطبقة العاملة ، وسائر الفئات الكادحة . واخذت تفرض نفسها بقوة في الحيـاة السيـاسيـة ، ورفعت الشعـارات التحـررية ، المضادة للدكتاتورية

والفـاشيـة . والمنـاديـة بالديمقراطية والاشتراكية ، كحل وحيد لانقاذ المجتمع التركي من الاندفاع السريع نحو المجهول .

وظهـرت القـوى اليسـاريـة أكثر توحداً من أي وقت مضى في مواجهة العنف الفـاشي من مصـدريـة : أجهزة السلطة ، والقوى العنصرية اليمينية ، وبدا ان تغييـراً جذريـاً سوف يعصف بالمجتمـع التـركي ، بكـل انعكـاسـاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وعلى صعيـد القـوميـات غيـر التركية ضمن الأراضي التركية ـ ونتيجة للقمع والارهـاب الجـديـدين ـ فقـد أستنهضت مرة أخرى وبقوة رغبتها في التحرر من الاستعمـار والعبـوديـة ، وانطلقت قواهـا الثـورية لممارسة الكفاح المسلح ضد القـوات التـركيـة ، خاصـة على صعيد الأكراد الذين تفجرت ثورتهم من جديد ، بانـدفـاعـة أكبر واشمل ، وبتوحد سياسي بين الفصائل الكردية وبالأخص على صعيد الفصائل اليسـارية .

والـذي أرعب السلطـة ، والقـوى اليمينية التركية ، هو التنسيق المشترك في تحقيق الأهـداف والمنطلقـات المشتـركـة بين فصائل اليسار التركي ، وفصائل اليسار للأقليات غير التركية .

• أما على صعيد الحكومة ، فلقد دخلت تركيا في السنوات الأخيرة ، ولا سيما بعـد عام ١٩٧٣ في مأزق لا مخـرج منـه في اطار البرلمان ، مثلما هي حالها في سائـر المجالات الأخرى . فخلال السنوات الأخيرة تعاقبت على حكم البلاد عدة حكـومـات . ومختلف الأزمـات الاقتصـادية والسياسية المتزايدة بلغت حدودها القصـوى ، وقـد قوبلت جميـع المحـاولات التي بذلت من أجـل الحصـول على المساعدات والقروض من المؤسسات الدولية المختلفة حتى حكومة « أجاويد » الأخيرة بالرفض ، بحجة عدم تقديم المساعدة للحكومات غير القادرة على تحقيق الاستقرار في بلدانها(٢٦).

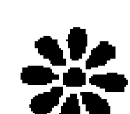
من هنا يبدو واضحاً أن العنف الفاشي الذي مارسته القوى اليمينية التركية ، ومـوقف الدول الامبريالية ، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية الرافضة لتقديم أيـة مسـاعـدات اقتصـاديـة او قروض لانقاذ الوضع الاقتصادي من الانهيار ، وانقـاذ الحكـومـة نفسهـا من السقـوط ، بالاضـافـة الى ضلوع قادة الجيش

والمخابرات والشرطة باعمال العنف . لم تكن سوى خلق المناخ الملائم لقيام « الجنرالات » الفاشيين بالاستيلاء على السلطة ، فيما يبدو وكأنه مطلب ملح من اجل وقف العنف ، ومن اجل الاستقرار حتى تتمكن الدول الامبريالية من تقديم المساعدات الاقتصادية لتركيا .

لكن هذه الاسباب الظاهرية التي أدت الى وصول الفاشيين الى السلطة . لم تستطع ان تخفي السبب الجوهري الذي يقف وراء تسريع هذه الأحداث بدفع وتخطيط من الادارة الاميركية ، ورجال مخابراتها المنتشرين في تركيا « فالفاشية لم تكن . ولا يمكن أن تكون خطرا حقيقيا في فترات وفي بلدان تسير فيها الأمور بشكل مريح نوعا ما ـ أي عندما تكون حدة الصراع الطبقي منخفضة ـ أما حينما يتصاعد النضال الطبقي في هذا البلد أو ذاك ويكتسب حدته ، وحينما تسير الجماهير على طريق التحرر ، وحينما تصبح البرجوازية عاجزة عن الاستمرار في الحكم . بالوسائل الاعتيادية « فعندئذ ترى القوى الحاكمة مصلحتها في الفاشية .

فالبرجوازية تلجأ الى الدكتاتورية المفضوحة ـ الى الفاشية ـ عندما ترى سلطتها مهددة بالخطر . لأنه لا يمكن الفصل بين الخطر الفاشي المتصاعد والوضع الثوري الذي يتكامل نضجا[٢٧] » .

إذن إن هذه الاوضاع والدوافع بمجملها . قد سرعت في وصول الفاشية التركية الى الحكم بتاريخ ١٢ أيلول ١٩٨٠ . لتنجز المهام الداخلية ـ تصفية اليسار والقوى التقدمية الثورية ـ وتنخرط في المهام الخارجية في اطار وخدمة السياسة الامريكية إزاء المنطقة .



الانقلاب العسكري الفاشي :

في الثاني عشر من أيلول ١٩٨٠ استفاق الشعب التركي على « البلاغ الأول » الذي اعلن ان الجيش أطاح بالحكومة التركية المدنية ، وعيّن مجلساً عسكرياً من خمسة جنرالات بقيادة « الجنرال كنعان ايفرين » لقيادة البلاد ، حتى يستتب الأمن وتجرى انتخابات جديدة تعود بعدها تركيا الى « الديمقراطية » .

وقد اعلن الجنرالات فور وقوع الانقلاب ان هدفهم ليس الحكم بحد ذاته ، بل أنهم مصممون على إنهاء حالة العنف ، والتدهور الاقتصادي ، بعد ان فشلت الحكومة المدنية بتحقيق هذين الهدفين . وتحت هذا الاعلان انتشر الجيش في جميع الأرجاء التركية ، معلناً الاحكام العرفية ، ومحذراً كل من يتجاوز التعليمات . ومنع نشاط كافة الاحزاب التركية ، وقام بسلسلة واسعة النطاق من الاعتقالات ، اعقبتها موجة من الاعدامات شملت الكثير من كوادر الأحزاب ، والشخصيات اليسارية ، بحجة أنهم مارسوا العنف في فترات سابقة .

وقد أصبح واضحاً منذ البداية ان الجيش لم يقم بانقلابة لتحقيق الأهداف التي أعلن عنها . فالجيش قد أوقف الكثير من أعمال العنف ، لكنه مارس قهراً وظلماً لم يشهد لهما التاريخ التركي الحديث مثيلاً ، وعلى الرغم من انه استطاع ان يضع حداً لأزمة الحكم ، لكنه بالمقابل ألغى الحياة السياسية التركية برمتها ، عندما منع نشاط الأحزاب السياسية ، خاصة حزبي « الشعب الجمهوري » و « العدالة » اللذين يعتبر تاريخ نشاطهما هو تاريخ الجمهورية التركية نفسه ، لما لعباه من أدوار مختلفة ، شكلت بمجملها حامل التطور في مختلف جوانب الحياة التركية ، وصراعاتها .

ونتيجة لذلك فقد ازداد الانهيار الاقتصادي خاصة وان الطريقة الفاشية ، وسياسة الاعتقالات ، والاعدامات ، والتعذيب ، وإلغاء الحياة الديمقراطية ، كانت حافزاً لدى الدول الأوروبية الغربية ، والمنظمات الدولية الاقتصادية لوقف المساعدات عن تركيا . إلا أن « الجنرالات » كانوا في ذلك ماضون في تحقيق هدفهم الفعلي . والذي يتلخص بضرب القوى اليسارية ، والمعارضة لسياسة

الارتبـاط الكلي بالسياسة الأميركية ، وتهيئة الوضع الداخلي التركي للعب دور « الشرطي المتقدم » لتحقيق المصالح الأميركية في المنطقة .

لقـد سـاعـد في نجـاح مهمـة الجيش (شمولية الاعتقالات) انه طوال عامين (منذ القرار الاميركي لتهيئة تركيا للعب دور أساسي في المنطقة بعد سقوط نظام شاه ايـران) وأجهـزة المخـابـرات المختلفـة ، بالاضافة الى عملاء المخابرات المركزية الاميركية ، تجمع المعلومات الدقيقة والشاملة حول نشاط وحياة قيادات وكـوادر وعناصر جميع الاحزاب والقوى والنقابات اليسارية ، والوطنية المعارضة للارتبـاط بعجلة السيـاسـة الاميـركيـة . « الأمـر الـذي تكشف عن ان حملات الاعتقـالات والبطش والتصفيـة كانت موجهـة ضد القـوى اليسـاريـة ، والقوى الكـرديـة ، بينمـا تركت التجمعات والأحزاب اليمينية والفاشية التي ظلت تمارس نشاطها بصورة شبه علنية[٢٧] » .

وقـد استخـدم الجنـرالات كل امكانيات الجيش والاجهزة التابعة له في تنفيذ سيـاستهم هذه ، خاصـة أنهم كانـوا يدركـون بأن دورهم موضع اختبار من قبل « البنتـاغون » الأميركي لاثبات قدرتهم أولاً : على لجم الحالة الثورية ، وتصفية رمـوز وكـوادر اليسـار ، وثـانياً : في قدرتهم على نشر سلطانهم في عموم تركيا ، كشرط لزجهم في مشروع السياسة الأميركية الخاص بالمنطقة .

لقـد بدا الجيش التركي في عملية انتشـاره ، وأحكامه العرفية ، وكأنه جيش أجنبي قد احتل تركيا بعد مقاومة عنيفة .

ولعل أوضح وصف لصـورة الأحكـام العـرفيـة هو ما جاء على لسـان السيدة البلجيكية « هانكية » عضو « اللجنة الأوروبية للدفاع عن اللاجئين والمعتقلين » بعـد زيـارتهـا لتركيا مع وفد من اللجنة للتحقيق بشأن الاعتقالات والتعذيب ، اذ قالت في مؤتمر صحفي بتاريخ ٨ تشرين الثاني ١٩٨٣ : « انني هناك استذكرت الاحتـلال الالمـاني لبلجيكـا .والفارق الوحيد هنا هو أن العسكريين الأتراك هم الذين يحتلون بلادهم[٢٨] » .

« ومن أجـل تكـريس ديكتاتوريتهم الفاشية ، اتخذ الجنرالات جميع التدابير الاداريـة الـلازمـة ، فتحت شعـار « التحـديث والعصرنة » المزعومة ، أخذوا يصدرون قانوناً جديداً مع كل يوم جديد ، كما يلغون مساءة الحريات والحقوق

التي ضمنها دستور عام ١٩٦١ (....) فمنذ اليوم الأول لانقلابهم الفاشي باشروا بتعيين المدراء والمسؤولين الجدد حتى في اقصى البلديات والبلدان . وهذه التعيينات أصبحت وبسرعة كبيرة تشمل أرفع المناصب وأكثرها نفوذاً ، وأصبحت أجهزة الدولة ومؤسساتها مملوءة بالجنرالات والعمداء والعقداء المتقاعدين ، وغدت هذه الأجهزة والمؤسسات مُعَسْكَرَةً تماماً[٢٩] » .

أما على صعيد الاعتقالات ، وما يعقبها من تعذيب واعدامات ، فقد هزت وحشيتها اعماق الانسان التركي ، والضمير العالمي ، فجرت مظاهرات الاحتجاج الداخلية ، وجرت في العالم اجمع أوسع حملة إدانة لهذه السياسة الفاشية ، من قبل القوى الديمقراطية في جميع أنحاء العالم ، التي قامت بعشرات المسيرات الاحتجاجية أمام السفارات التركية ، ووجّه رجال الفكر والعلم والثقافة مئات المناشدات لوقف هذه المجازر البشرية ، إلا أن نظام الجنرالات كان يرد على الأحتجاجات الداخلية بمزيد من القمع والاعتقالات متهماً المحتجين بأنهم يتلقون التعليمات من الخارج .

أما رد العسكر على الاحتجاجات الخارجية فقد جاء على لسان « ايفرين » نفسه ، اذ قال في كلمته التي وجهها الى المثقفين في البلدان الغربية ، عبر الاذاعة والتلفزيون والصحف : ... انهم يحتجون على احكام الاعدام التي نصدرها . ان احكام الاعدام هذه من شؤوننا الخاصة ، هل نقوم نحن بتوجيه الانتقاد اليهم لأنهم لا يصدرون حكم الاعدام في بلادهم ؟[٣٠] » .

لقد قيل الكثير عن الاعدام عبر التاريخ ، بين مؤيد ومعارض ، لكن أحداً لم يخطر بباله ان افع عن حكم الأعدام بهذه الطريقة . وهذا مما يؤكد ، ليس فقط اصرار الجنرالات على سياستهم ، بل ويعبر عن طبيعتهم الشخصية الفاشية .

« فمنذ الانقلاب الفاشي ، وحتى ٦/١١/٨٣ (الانتخابات البرلمانية) طالب المدعُون العسكريون بانزال عقوبة الاعدام بحق ٤٠٠٠ مواطن ، وقد أعلن عن ١٦٠ من هذه العقوبات جرى تنفيذ ٧٤ منها ، واضافة الى ذلك قتل حوالي ٦٠٠ مواطن في عمليات بوليسية وعسكرية ضد المعارضة - وطبقاً لتقارير منظمة العفو الدولية فان ما لا يقل عن ١٧٠ مواطناً قد ماتوا تحت التعذيب ، ويبلغ عدد المعتقلين السياسيين ٩٥ الف سجين . وفي الوقت الحاضر يجري بناء ٢٨

سجناً جديداً تتسع لمئة الف سجين[٢١] »

« ولم يستثن من موجة القمع هذه حتى الاطفال ، فعندما بدأت محاكمات « فطسا* » كان أعمار عشرة من المتهمين تبلغ ١٤ عاماً ، وأعمار ثلاثة وعشرين منهم ١٥ عاماً وأعمال ستة وثلاثين منهم ١٦ عاماً ، أما اصغرهم ـ كامران صو ـ فكان عمره ١٣ عاماً ، وكانت التهمة الرسمية الموجهة ضده كالآتي : المتهم عضو في منظمة ـ الطريق الثورية ـ المحظورة وقد قام مع أخرين بكتابة شعارات هذه المنظمة على الجدران في منطقة فطسا[٢٢] »

واستمرارا في سياسته المعادية للديمقراطية قام النظام العسكري التركي ، بالاضافة الى سياسته القمعية ضد القوى السياسية ، باتخاذ خطوتين في غاية الخطورة :

الأولى : تعطيل نشاط ـ اتحاد نقابات العمال ـ (ديسك · وجمعية المعلمين في تركيا (تويدر)[٢٣] » ، بحجة أن عمل هاتين النقابتين يصب في صالح القوى اليسارية !

الثانية : « تم إحراق عشرات الآلاف من الكتب والأفلام بصورة كيفية ، وبدون حاجة لأية قرارات من المحاكم ، ومن بين الأفلام ما انفقت هيئة الاذاعة والتلفزيون التركية عشرات الملايين من الليرات على انتاجه[٢٤] »

اما على صعيد الوضع الاجتماعي الذي نجم عن سياسة الجنرالات الفاشية ، فان ابلغ وصف لهذا الوضع ، هو ما جاء على لسان الكاتب المعروف « عزيز ينسن » في مرافعته أمام المحكمة الخاصة التي عقدت لمحاكمة المثقفين المحتجين على سياسة النظام ، حيث جاء في المرافعة : « تعيش تركيا هذه الأيام أسوأ عهود الرشوة والفساد والألاعيب الاقتصادية والفوضى في كل الأمور الاقتصادية بين ايدي حكام لم يشهد التاريخ مثيلا لهم من حيث انخفاض المستوى الثقافي (...) فالعديد من الشباب يصبحون أصحاب مليارات خلال ثلاث او أربع سنوات . والعديد من البنوك والشركات الموشكة على الافلاس لأسباب معروفة يتم انقاذها من قبل الدولة بأموال الشعب ، وأن أكبر مؤسسة للمراباة (صندوق النقد الدولي) هو الذي يحدد أجور الموظفين والعمال في تركيا » .

لقد وصلت الأوضاع الاقتصادية في هذه الفترة الى حد وضعها على حافة الانهيار . لذا وفي محاولة لتطمين « نظام الجنرالات » سارع « كاسبار واينبرغر » وزير الدفاع الأميركي ، الى الطلب من « الكونغرس » الموافقة على اعتماد ٩٣٠ مليون دولار من المساعدات الاقتصادية والعسكرية لتركيا لعام ١٩٨٤ ، وإضافة ١٢٠ مليون دولار الى العام ١٩٨٣ ـ وقد ا اعتبر «واينبرغر» هذه المعونات من الاولويات الملحة[٣٥] » ومن أجل التمهيد للخطوات اللاحقة ، وتلبية لتطلعات وضغوطات أكثر الشرائح تطرفاً في الطبقة الراسمالية في وضع القيود على الحقوق والحريات الأساسية للمواطنين ، إلى حد ألغائها . فقد قام « ايفرين » بتشكيل لجنة لاعداد دستور جديد .

« وفي ٧ تشرين الثاني ١٩٨٢ جرى استفتاء على الدستور ، أصبح بموجبه « الجنرال كنعان ايفرين » رئيساً للبلاد للسنوات السبع المقبلة[٣٦] » .

« وكان من المتعذر على المعارضين لهذا الدستور ـ عندما عرض على الاستفتاء الشعبي ـ أن يدلوا بأصواتهم بحرية ، فقد تعرضوا للتهديد أكثر من مرة على لسان الجنرال « ايفرين » نفسه ، وفي مناسبات عدة ، اذ قال علناً في كثير من خطبه الجماهيرية : اننا سنعتبر كل من يرفض هذا الدستور بمثابة خائن، وسنعامله بصفته عميلاً للقوى الخارجية[٣٧] » وبموجب هذا الدستور ، الذي الغى عملياً الحريات الديمقراطية ، وكرسّ سيطرة النزعة الفاشية للطبقة الراسمالية التركية ، بدأ التحضير للانتخابات البرلمانية ، في خطوة لالباس الفاشية زيفاً ثياب الديمقراطية .



الجنرالات : والديمقراطية المزيفة

في السادس من تشرين الثاني عام ١٩٨٣ جرت في تركيا أول انتخابات برلمانية ، بعد أن أطاح الجنرالات بحكومة السيد « ديميريل » .

وقد تنافست في هذه الانتخابات ثلاثة أحزاب رئيسية ، كانت قد نشأت بعد الانقلاب الفاشي عام ١٩٨٠ ، بتصريح من مجلس الأمن القومي (الجنرالات الخمسة) وهذه الأحزاب هي :

١ ـ حزب الديمقراطية القومي ـ ويتزعمه الجنرال المتقاعد « تورغوت سونالوب » .

٢ ـ حزب الوطن الأم ـ، ويتزعمه تورغوت اوزال .

٣ ـ الحزب الشعبي ـ ويتزعمه نجدة كالب .

بالاضافة الى عدد من المستقلين بلغ ٣٢٥ مرشحاً .

ومنعاً للاستطراد ، يمكننا تسجيل الملاحظات التالية حول سير ونتائج هذه الانتخابات وصولاً الى الهدف منها : ـ

١ ـ لقد توجه المنتخبون الى صناديق الانتخاب يفعمهم الخوف من اجراءات السلطة العسكرية بحق المتخلفين .

٢ ـ لقد جرت الانتخابات في ظل الاحكام العرفية وتحت ضغطها.

٣ ـ الحزبان التركيان التاريخيان « حزب الشعب الجمهوري (بزعامة بولند أجاويد) وحزب العدالة (بزعامة سليمان ديميريل) غابا عن الانتخابات ، على الرغم مما يتمتعان به من شعبيه وانتشار ،وعدد اعضاء، لانهما ممنوعان من خوض المعركة .

٤ ـ وكذلك حرم من خوض الانتخابات حزبان آخران مصرحان ، كانا قد ظهرا بعد الانقلاب ، وهما « الحزب الاشتراكي الديمقراطي » و« حزب الطريق الحق » المحافظ . ومعهما عشرة من الأحزاب الصغيرة .

٥ ـ كان الحكم العسكري ، قد منع في عام ١٩٨٠ (٧٠٠) مواطن من أبرز الشخصيات التركية من العمل السياسي ، وهؤلاء ممنوعون حكما من الترشيح للانتخابات .

٦ ـ أصدر مجلس الأمن القومي قراراً بمنع ٤٥٤ مرشحاً مستقلاً من أصل ٧٧٩ من المساهمة في الانتخابات .

٧ ـ الشيء الوحيد الذي استطاع الناخبون ان يعبروا فيه عن معارضتهم لرئيس الجمهورية « الجنرال ايفرين » هو عدم تأييده والانصياع لرغبته في التصويت الى جانب « الحزب الوطني الديمقراطي » اليميني المتطرف ، الذي يدعمه « ايفرين » فجاءت نتيجة الانتخابات ٤٥ ٪ لصالح حزب الوطن الأم . و ٢٣و٦ ٪ لصالح « حزب الديمقراطية القومي » و ٥و٢٠ لصالح الحزب الشعبي . وهذا يعني أن « تورغوت اوزال » يستطيع ان يشكل الحكومة بأغلبية برلمانية (٢١٤ مقعداً من أصل ٤٠٠ مقعداً) .

٨ ـ أن « أوزال » نفسه كان يعمل نائباً لرئيس الحكومة ، منذ الانقلاب العسكري لمعالجة الوضع الاقتصادي . وهذا يعني عدم وجود اي خلاف سياسي بين الأحزاب السياسية والجنرالات من جهة ، وبين الأحزاب فيما بينها من جهة أخرى وان الانتخابات لم تكن سوى مسرحية جرت « بين المتفقين سياسياً ، والمغمورين اجتماعياً » بعد غياب الأحزاب والشخصيات السياسية الهامة .

أما دوافع هذه الانتخابات فمن الناحية الشكلية « برّرها » أيفرين « باعتبارين :

الأول : ضرورة اعادة تركيا الى الحياة المدنية ، وتوليد المصداقية الديمقراطية لتركيا في أعين الحلفاء .

الثاني : ضرورة ضبط هذه العودة الى الحياة المدنية لمنع انبعاث الارهاب اليميني واليساري[٣٨] » .

لكن التدقيق في هذين الاعتبارين ، يؤكد أن احدهما قد ألغى الآخر ، مما يقود الى استخلاص ان الهدف الحقيقي لهذه الانتخابات هو: ـ

أولا: إزالة الاعتراضات الاوروبية الغربية على ممارسة النظام العسكري شكليا . لتحرر انظمتها من ضغط الراي العام ، لتتمكن من إعادة المساعدات لتركيا .

ثانيا : ـ إزالة الاحراج عن الولايات المتحدة التي تدعم النظام العسكري ، على الرغم من موجة الادانة العالمية له .

ثالثـا : ـ تكـريس ما بدأه العسكـر من اجـراءات قمعيـة داخلية ، وسياسية خارجية (الارتباط بالولايات المتحدة ـ والاعلان عن تقسيم قبرص عشية تسليم الحكم الى المدنيين) بثياب مدنية ديمقراطية .

إلا ان مسـرحيـة الانتخـابات هذه لم تنطل على أحد ، ولاقت استنكاراً واسعاً وتعليقـات لاذعـة من قبـل المثقفين ووسائل الاعلام المختلفة ، في جميع أنحاء العالم وحتى في دول أوروبا الغربية .

« وقـد ردّ « ايفـرين » (بانفعـال) على الانتقـادات الحـادة التي اطلقتهـا الصحافة الغربية على ديمقراطيته بقوله : ـ

« ان الاتراك ادرى بحاجات بلادهم ، وان الانتقادات الأوروبية مرفوضة[٩] » إلا أن الأتراك ، وعكس ما كان يتوقعه ، « ايفرين » عكسوا حاجتهم الماسة الى الـديمقـراطيـة الحقيقيـة . « فعلى الـرغم من ان هناك ٩٥ ألف سجين سياسي يرزحون في السجون التركية ، ورغم ان الاحكام العرفية سارية على ٤١ ولاية .. ولكن السلطـات لم تتمكن من تقليص نشـاط المعـارضـة التركية المتزايدة[٤٠] » بالاضافة الى تزايد المعارضة الكردية المسلحة رداً على اجراءات القمع القومية التي مارستها السلطة ، « ففي ١١ نيسان ١٩٨٤ أعلن السجناء السياسيون في السجون التركية اضراباً حتى الموت ، وقد توفي ثلاثة منهم[٤١] » .

« وفي منتصف سنـة ١٩٨٤ دخلت وحشيـة التعـامـل في سجـون هذا البلد (الحـامي للعـالم الحر) مرحلة خطيرة ، عندما أعلن عدد كبير من المعتقلين في بعض السجـون العسكـرية في أنقرة . ودياربكر (المدينة الرئيسية التي تقطنها اغلبيـة عربيـة) اضراباً عن الطعام لمدة طويلة . ففي سجن « ماماك » في انقرة أعلن ٤٥٠ سجيناً إضـرابـاً عن الطعـام احتجـاجـاً على اعمـال التعذيب وسوء المعـاملة (...) وقـد ردت إدارة السجن بتصعيـد اجـراءات التعذيب الوحشية بالضرب والتعذيب بالكهرباء (....) ونقل المضربون الى المستشفيات واطعموا بالقـوة . وفي سجن ديـاربكـر العسكـري الـذي يضم ٢٥٠٠ سجين من أنصار الحركة الكردية المحتجزين منذ سنوات دون محاكمة ، لأنهم دافعوا عن الحقوق الثقـافيـة والسياسية لقوميتهم (....) أضرب السجناء وخلال الاضراب توفي ١٦ فرداً من المعتقلين[٤٢] » .

ونتيجة لتزايد القمع والارهاب الذي تمارسه السلطة ، قام ١٢٥٦ شخصا من أبـرز رجـال الفن والكتـاب والصحفيين والعلمـاء والحقـوقيين ، ووزراء سابقين « بتـوقيـع عريضة بعنوان « عريضة تحتوي على ملاحظات ومطالب حول النظام الـديمـقـراطـي في تركيـا » وقـد قدمت الى السلطـات المعنيـة بتـاريـخ ١٥/ ٥/ ١٩٨٤م ، وعلى إثرها قامت السلطة العسكرية باعتقال ٥٧ شخصية من هؤلاء واصفة اياهم بـ « خونة الوطن » .

وفي مرافعتـه امـا المحكمـة الخـاصـة ، رد الكاتب التقدمي « عزيزنيسن » رئيس اتحاد الكتّاب الأتراك على رئيس الدولة « كنعان ايفرين » بهذه الكلمات المعبرة : ـ

« ...ان موقعّي هذه العريضة براي رئيس الدولة ليسو إلاّ « بضعة افراد يظنون أنهم مثقفون . وعلى المثقفين ألا يخرجوا الى الساحة قائلين أنهم مثقفون » أما نحن (يجيب نيسن) فلم نكن حين كتبنـا هذه العـريضة ، ووقعناها ، ننتظر أية نعم مقـابـل كوننـا مثقفين ، كمـا لم نكن نحاول أن نفيد من أية امتيازات خاصة بالمثقفين . فكمـا يتـوجب على اولئـك المسنّين الذين يسارعون بعد التقاعد الى شغـل عضـويـة مجـالس إدارة الشـركـات الاحتكـاريـة والبنـوك والمؤسسات الرأسمالية الكبيرة والفعاليات الخاصة المختلفة ، وفي شركات التجارة الداخلية والخـارجيـة ، على الرغم من أنهم لا يفهمون شيئاً من هذه الأعمال ، ولا يقدّمون أيـة خدمـات تذكر . اقول كما يتوجب على أولئك المسنّين الذين لا تعرف عيونهم الشبـع ، أن يخجلوا من ان يزعموا أنهم مثقفـون ، يحق لنـا نحن الذين ننتظر ـ لمعـرفتي بمـوقف النظـام القائم ـ النقمة لا النعمة . العقاب لا الثواب ، لتوقيعنا على هذه الوثيقة ان نشعر بالفخر والاعتزاز[٤٣] »

وعلى الـرغم من أن النظـام كان قد فرض عدم نشـر مرافعـات المـوقعيّن على العـريضـة ، إلاّ أن حملة عالميـة واسعـة النطـاق جرت تأييداً لهم ـ ولقضيتهم العادلة ، وقد خاض المثقفون الأتراك أنفسهم نضالاً مشرفاً ضد سائر الضغوط مما أجبر المحاكم العسكرية على تبرئتهم .

ومن الملفت للنظـر أنـه « قبل فترة قصيرة من توجيه الاتهامات ضد الموقعين على مذكـرة المثقفين ، أعيـد ادخـال تركيا (نتيجة الجهود التي بذلتها الأحزاب الأوروبيـة المحافظة) في الجمعية البرلمانية للمجلس الاوروبي . وقامت الدول

الاعضـاء باعـادة تقـديـم المسـاعـدات لتـركيـا التي قطعت بعـد الانقـلاب على الـرغم من وجود (٣٠) الف سجين سياسي يلاقون التعذيب[٤٤] » . الأمر الذي يكشف زيف الديمقراطية في أوروبا الغربية ، وخضوعها كلية للرغبة الأمريكية .

« وفي ٢٧ أيلول ١٩٨٤ أصـدرت سلطـات الاحكـام العـرفية التركية دعاوى جديدة ضد (٤٨) من المحامين ، والنقابيين والأكاديميين ، وغيرهم من الأعضاء المـؤسسين لرابطـة السلم التـركيـة . وفي ١٩ تشـرين الثـاني تم تقديمهم الى المحكمـة العـرفية في استانبول ، بتهمة ـ محاولة تقويض وحدة الدولة التركية ، وتعتبـر هذه الاتهـامات خطيرة جداً ، علماً بأنها توجه اليهم بعد سبع سنوات من تأسيس « رابطـة السلم التـركيـة » ، واربع سنوات من الانقلاب العسكري ، وأن الـرابطـة التي تأسست برعـايـة رابطة جماعة المحامين عام ١٩٧٧ كانت تعامل كمنظمة قانونية حتى قيام انقلاب أيلول ١٩٨٠ . وخلال هذه السنوات الثلاث من وجـودها ، كانت تدعم النداءات العالمية للسلام ، ولنزع السلاح النووي (...) وعنـدمـا حظر الجنرالات نشاطها بعد الانقلاب فانهم كانوا يقصدون بوضوح تام اسكات مصدر معارضة فعّال جداً في وجه طموحاتهم العسكرية[٤٥] » .

من هنـا يبـدو واضحـاً ان « الـديمقـراطية المزعومة » التي لجأ اليها النظام العسكري الفاشي ، كان يراد منها ان تكون « حصان طروادة » لتمرير الأهداف السياسية التي انخرط فيها ، لكن الواقع المخيف الذي تعيشه تركيا عبر ممارسة الـنظـام للفـاشيـة ، قد كشفت حقيقتـه كاملة ، وفشله في تحقيق الاستقـرار الـداخلي ، فبـالاضـافة الى تزايد قوة المعارضة لسياسة النظام من قبل الغالبية العظمى من ابنـاء الشعب التـركي ، وقـواه السيـاسيـة الفعليـة ، فإن الأزمـة الاقتصادية تزداد تفاقماً . ولقد «وصل العجز في الموازنة والخزانة لعام ١٩٨٤ ـ (٤ر٢) مليار دولار أي ٥ ٪ من الناتج القومي الاجمالي ، وبلغ معدل التضخم ٣٥ ٪ .

أمـا في عام ١٩٨٥ فبلغ العجـز ٨٠٦ مليـون دولار بمـا يعادل ٢ ٪ من الناتج القومي (وهذا الانخفاض بسبب الضرائب الباهظة التي فرضتها الدولة) .

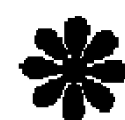
أمـا على صعيـد الديون الخارجية فبلغت في عام ١٩٨٤ (٢ر١) مليار دولار ، وفي عام ١٩٨٥ (٦ر١) مليار دولار . وينتظر ان تصل في عام ١٩٨٧ (٩ر١) مليار

دولار . وهذا الأمر يحمّل الموازنة الشيء الكثير[٤٦] » .

ان الفـاشيــة إزاء ما أوصلت تركيا إليه ، قد حددّت الاتجاه الواضح لأهدافها خلال مرحـلة التهيئــة التي ابتــدأت منــذ عام ١٩٧٨ ، من أجـل القيــام بدور « الشرطي الأميركي » المتقدم . الأمر الذي ينسجم تماماً مع طبيعتها ، واحلامها العنصــريــة « الطـورانيـة » بالاضافة إلى أن ما قام به الجنرالات حتى الآن هو موضع الرضى والتقدير من قبل الادارة الاميركية .

فقد « أعلن الرئيس الاميركي « ريغان » بعد اجتماعه مع « اوزال » في البيت الأبيض بتاريخ ٣/ ٤/ ١٩٨٥ : إن أخطار الوضع في افغانستان والشرق الأوسط تجعـل التعـاون العسكـري الأميـركي ـ التـركي أكثـر أهمية من أي وقت مضى (...) وأن اخطاراً تواجهنا في جنوب غربي آسيا ، ومنطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط (...) وأنني مازلت على تعهدي إزاء تقديم مساعدة اميركية كبرى من أجـل التسريع في تحديث القوات الجوية التركية ، والجيش التركي ودعم برنامج الاصلاح الاقتصادي[٤٧] » .

وهكـذا أدخلت الولايات المتحدة الاميركية، تركيا في استراتيجيتها الشاملة لتلعب دور الشرطي المنفذ لسياستها في المنطقة .



هوامش

١ ـ الان عبد الله أوج: مختارات «١» منشورات حزب العمال الكردستاني (PKK) اصدار سنة ١٩٨٥ ص ٣٩ ـ ٤٠

٢ ـ جريدة القبس « الكويتية » دراسة بعنوان : النشاط السياسي في تركيا رهينة في يد العسكر ـ العدد ٤٠٦٨ تاريخ ١٩٨٣/٩/٩ م .

٣ ـ غبيب شارل روز : البحر الابيض المتوسط من غير الكبار ـ مكتب التعبئة والتنظيم التابع لحركة فتح ـ ايلول ١٩٨٢ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

٤ ـ المصدر نفسه : ص ٦٦

٥ ـ أنواري صارب : ما معنى الثاني عشر من ايلول ؟ : منشورات دار الانصار ١٩٨١ ص ٦ .

٦ ـ جريد القبس الكويتية : مصدر سابق .

٧ ـ غبيب شارل روز : مصدر سابق ص ٥٦ ـ ٥٧ .

٨ ـ المصدر نفسه : ص ٥٧

٩ ـ قواري صارب : مصدر سابق ص ٢٣

١٠ ـ غبيب شارل روز : مصدر سابق ص ٦٠ .

١١ ـ اوغلو د . يورك : تركيا حلقة ضعيفة في السلسلة الامبريالية إصدار دار ابن رشد / بيروت ١٩٧٩ ـ ترجمة فاضل لقمان ص ٣٤

١٢ ـ غبيب شارل روز : مصدر سابق ص ٦٠

١٣ ـ اوغلو د . يورك : مصدر سابق ص ٣٤ ـ ٣٦ .

١٤ ـ روز البيف : قوانين التطور الراسمالي في بلدان آسيا وافريقيا ـ اصدار موسكو ١٩٧٦ ص ١٨ ـ ٢١

١٥ ـ المصدر نفسه : ص ١٨ ـ ٢١ .

١٦ ـ اوغلو د . يورك : مصدر سابق ص ٤٥

١٧ ـ المصدر نفسه : ص ٤٩

١٨ ـ قواري صارب : ص ٣٤

١٩ ـ بركة إقبال : انقلاب تركيا ليس مفاجئاً (دراسة) مجلة صباح الخير ـ اللبنانية ـ العدد ١٢٩١ تاريخ ١٩٨٠/١١/٢

٢٠ ـ المصدر نفسه

* كان الـدولار يسـاوي ٢٤ ليرة تركية لغاية ١٩٧٨ ، وخلال عامين اي حتى ايلول ١٩٨٠ انخفضت الليرة : فأصبح الدولار الواحد يساوي ٨٠ ليرة تركية . بالاضافة الى انخفاض قيمتها الشرائية حتى داخل تركيا نفسها .

٢١ ـ اوغلو د . يورك: مصدر سابق ص ١٢٥

* من اجل جعل قاعدة جماهيرية للحركة القومية الفاشية ، رفعت شعاراً مزدوجا « هدفنـا الطـورانيـة » و « دليـنـا القـرآن » فالأول يساهم في تنظيم القوة القومية العنصـريـة ، بينمـا الثـاني يسـاهم بدفع الجماهير للالتفاف حول هذه الحركة ، نتيجـة عمق الاسـلام في نفـوس النـاس البسطـاء من الشعب التـركي ـ خاصـة الفلاحين ـ ملاحظة المؤلف .

٢٢ ـ روزا ليبف . ي . ن : مصدر سابق ص ٢١

* حسب البيانات الرسمية المنشورة فان هناك ٨٦ شخصا يلعبون بمئات الملايين .

انظر : روزاليبف ي . ن : مصدر سابق

اوغلو د . يورك : مصدر سابق

٢٣ ـ بركة اقبال : مصدر سابق

٢٤ ـ المصدر نفسه

٢٥ ـ المهتم بالتفاصيل . انظر بهذا الشأن

● اوغلو د . يورك : مصدر سابق ص الصفحة ٤٧ لغاية ٨٨

٢٦ ـ يساري تركي - اوراق خاصه لم تنشر

٢٧ ـ صحيفة صوت الرافدين : في انتظار دور الجنرال التركي ـ العدد ١ تاريخ ١٩٨٣/١١/٧

٢٨ ـ مجلة الكفاح العربي : تركيا حبل المشنقة الطويل ـ تاريخ ١٩٨٤/٤/٣٠

٢٩ ـ قواري صارب : مصدر سابق ص ٤٢

٣٠ ـ نيسين عزيز . من مرافعته امام المحكمة الخاصة بالمثقفين الذي اعتقلوا بسبب تقديمهم عريضة تنتقد النظام .

وقد نشرت هذه المرافعة في ـ

ملاحظة : عزيزنيسين ـ كاتب تركي تقدمي (ساخر) ـ ورئيس اتحاد الكتاب الأتراك .

٣١ ـ صحيفة صوت الرافدين : العدد ٣٧ تاريخ ٢٣/٧/١٩٨٤ نقلاً عن مجلة آسيا وافريقيا .

* قضية . فطسا . هي كالآتي :

. في العام ١٩٧٩ ، اجريت انتخابات بلدية في مدينة (فطسا) ـ وهي مدينة صغيرة تقع على شاطىء البحر الاسود . ويبلغ عدد سكانها ٣٠ الف نسمة وقد فاز بمنصب رئاسة البلدية الحائك . فكري سونميز . ولم يكن فكري هذا ينتسب الى اي من الاحزاب التقليدية في تركيا . فعمد الى تنظيم المرافق العامة للبلدية بحيث تدار هذه المرافق . مباشرة من قبل لجان أحياء . فتشكلت لهذه الغاية إحدى عشر لجنة تولت تحديد احتياجات السكان وطريق تلبيتها وبذلك لم تعد البلدية كما كانت في السابق امتداداً للسلطة المركزية ورمزاً للبيروقراطية الادارية ، وانما غدت نموذجاً للادارة الذاتية الشعبية . وفي مدى ثمانية اشهر من ممارسة هذه الديمقراطية المباشرة على غرار ما كان يجري في بعض مدن الاغريق في سالف العصور . وبالنظر الى المشاركة الشعبية الفاعلة في إدارة الشؤون البلدية العامة ، فقد اكتسبت (فطسا) شهرة واسعة في سائر انحاء تركيا وهذا ما اثار ريبة الجيش وحنق المجموعات الفاشية .

في ٨ تموز / يوليو ١٩٨٠ ، دخلت المدينة ليلاً مجموعة من الوشاة والمخبرين طافت شوارع المدينة وازقتها ، ووضعت إشارة سوداء على عدد من المنازل في المدينة . وفي صباح اليوم التالي دخلت فرقة من الجيش المدينة ، طرقت أبواب تلك المنازل واعتقلت اصحابها ويقدرون بـ ٤٠٠ مواطن . وبعد الانقلاب العسكري وإمساك الجيش بمقاليد السلطة ، دخلت فرقة أخرى من الجيش المدينة مرة ثانية . وزاد عدد المعتقلين ، كان من بينهم رئيس البلدية فكري سونميز ، وتوزعوا على عدد من المعتقلات بقوا في زنزانتها مدة ثلاثين شهر دون محاكمة . في ١٢ كانون الثاني / يناير ١٩٨٣ جاء دورهم وافتتحت محاكمتهم في معتقل (اماسيا) ، وبدات بالفعل في نيسان / ابريل ١٩٨٣ ، كانوا سبعمئة وتسعة وخمسين معتقلاً ، وكان من بينهم فكري نفسه . وكانت الاحكام قد صدرت بحق ٧٥٩ معتقلاً من مواطني مدينة (فطسا) ، وكان المدعّي العام العسكري لدى المحكمة قد طالب بانزال عقوبة الاعدام بحق ٢٦٨ معتقلاً من بينهم رئيس البلدية فكري

(جواد فاضل : تركيا حبل المشنقة الطويل ـ مجلة الكفاح العربي ـ تاريخ ٣٠/٤/١٩٨٤

٣٢ ـ المصدر نفسه .

٣٣ ـ صحيفـة صوت الرافدين : تركيا ... السلم امام المحكمة العرفية ـ العدد ٥٥ تاريخ ١٩٨٤/١١/٣ نقلاً عن / النيوستيتسمن.

٣٤ ـ نيسن عزيز : مصدر سابق

٣٥ ـ جريدة الشرق الاوسط : العدد ١٦٠١ تاريخ ١٩٨٣/٤/١٧

٣٦ ـ جريدة الجمهورية القاهرية: العدد ٤٨٣٩ تاريخ ١٢/٣ ١٩٨٤

٣٧ ـ مجلة الكفاح العربي : الديمقراطية التركية المراقبة ـ تاريخ ١٩٨٣/١١/١٤

٣٨ ـ مجلة الشراع اللبنانية : تاريخ ١٩٨٣/١٢/٢٦ .

٣٩ ـ جريدة السفير اللبنانية : تاريخ ١٩٨٣/١١/٦ .

٤٠ ـ صحيفة صوت الرافدين : العدد ٣٧ تاريخ ٨٤/٧/٢٣ نقلاً عن مجلة آسيا وافريقيا

٤١ ـ جريـدة «البعث» السـورية : العدد ٦٥١٧ تاريخ ١٩٨٤/٧/١٠ نقلاً عن «اللوموند الفرنسية».

٤٢ ـ صحيفة صوت الرافدين : مصدر سابق العدد ٣٧

٤٣ ـ نيسن عزيز : مصدر سابق

٤٤ ـ صوت الرافدين : العدد ٥٥ ـ مصدر سابق

٤٥ ـ المصدر نفسه

٤٦ ـ مجلة المستقبـل : السبـاق التـركي الى الجنـة الاقتصادية ـ العدد ٤٥٧ تاريخ ١٩٨٥/١١/٢٣

٤٧ ـ جريدة البعث السورية : العدد ٦٧٣٩ تاريخ ١٩٨٥/٤/٤

القسم السادس

الدور التركي
في السياسة الامبريالية الاميركية

السياسة الخارجية الاميركية ومبدأ الأحلاف

بعـد انتهـاء الحـرب العالمية الاولى عام ١٩١٨ ، اصبحت الولايات المتحدة الاميـركيـة هي المنتصر الأكبر في هذه الحرب ، إذ ان مشاركتها فيها اتاحت لها وللمـرة الاولى وجـودا فعليـا في اوروبـا والشرقين الأقصى والأدنى ، وأصبحت شريكـاً فعليـاً للدول العظمى الاوروبيـة ، في سيـاسة النهب الامبريالية ، وفي تحقيق السيطـرة على شعـوب العـالم على الصعيـدين السيـاسي والعسكري ، بهـدف السيطـرة الاقتصادية الاحتكارية ، وسيادة قانون الأكثر للأقوى (الذي نتج عن الحرب الامبريالية الاولى) .

إلا ان هذا الأنتصـــار قد تحـول الى خوف ، إذ استطـاعت الثـورة الاشتـراكيـة العظمى ، الاطـاحة بنظام روسيا القيصري ، واقامة سلطة العمال والفلاحين في عموم روسيا ، ثم الاعلان عن مرسوم السلام بين الشعوب الذي تخلت فيه الدولة الســوفيـاتية عن كافة أطماع روسيا القيصرية بالشعوب الاخرى ، ووجهت نداء الى دول وشعوب العالم لوقف اعمال الحرب والتوسع ، ومن أجل السلام .

لقـد كان لانتصـــار الثـورة الاشتـراكيـة بالـغ الأثر في استنهاض الشعوب ، وحـركـات التحـرر الـوطني التي وجـدت في الاشتراكية المذهب الانساني الذي يتـوافق مع تطلعــاتهـا في الحـرية والاستقلال وتقرير المصير ، ورأت في الثورة سلاحا قويا لتحقيق شروطها ومطالبها في غد افضل وحياة كريمة .

بالمقابل ولنفس، السبب، السابق ، فقد أصاب الذعر والارتباك قيادات الدول الامبـريـاليـة ، وخططها السابقة (الأكثر للأقوى) بالاضافة الى سبب جوهري اخر يتمثل في كون الاشتراكية نقيض ايدولوجي تاريخي للنظام الراسمالي الذي كان قد تحول الى الامبريالية اعتبارا من نهايات القرن التاسع عشر .

لهـذه الاسبـاب قررت الـدول الامبريالية مجتمعة ، ضرب هذه الثورة قبل ان تترسخ ويتوسع انتشارها .

« وفي مارس من عام ١٩١٨ نزل البحارة الانجليز في « مورمانسك » ، ودخلت القـوات اليـابانية « فلاديفوستوك » ثم لحق بها مشاة البحرية الاميركية . ودخل الانجليـز آسيا الوسطى وما وراء القوقاز ، واحتلت المانيا القيصرية « اوكرانيا »

« بيلوروسيا » و« ساحل البلطيق » . وتمركزت القوات الرئيسية للثورة المضادة (من الطبقات المخلوعة ـ والقوى الصهيونية) في الداخل في الشرق (...) وبدا وسط روسيا بمناطقه الصناعية الأساسية مقطوعاً عن قواعد الوقود والخامات والمواد الغذائية .

ومع هذا كله قام الجيش بهجومات واسعة على مختلف الجبهات (....) ومع حلول صيف عام ١٩٢٠ هزم القوات المعادية في روسيا (...) وفي عام ١٩٢٢ شن هجوماً على منطقة القوقاز وآسيا الوسطى ، وحرر الشرق الاوسط من المحتلين اليابانيين(١) » .

كان لهذا الانتصار الساحق الذي حققه الجيش الاحمر السوفياتي أثره الكبير في تعاضد الدول الامبريالية ضد ما اسموه بـ « الخطر الشيوعي السوفياتي » في محاولة لفرض الحصار السياسي والاقتصادي والعسكري ضد الاتحاد السوفياتي ، وهكذا بدأت تتبلور فكرة إقامة قواعد القوة العسكرية حوله . لكن نشوب الحرب العالمية الثانية ، بعد صعود النازية الهتلرية قلب هذا الموقف باتجاه مواجهة الخطر التوسعي الالماني ضد الدول الامبريالية الاخرى ومصالحها الحيوية . واضطرت ازاء ذلك الى التحالف مع الاتحاد السوفياتي تحت يافطة الشعار الذي رفعه « ونستون تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت « اتحالف مع الشيطان في سبيل كسب المعركة » .

وكانت الدول الامبريالية ترى : انه كلما وقع عدد أكبر من الضحايا في المواجهات الكبرى بين الالمان والسوفيات كلما كان ذلك افضل لها .

إلّا أن الاتحاد السوفياتي ، كان هو المنتصر الأكبر بعد الحرب العالمية الثانية ، وتمكنت الاحزاب والقوى الاشتراكية بمساعدة الجيش الاحمر السوفياتي من الاطاحة بالانظمة البرجوازية في كل من (يوغسلافيا ، تشيكوسلوفاكيا ، بلغاريا ، القسم الشرقي من المانيا (المانيا الديمقراطية) ـ بولندا ـ المجر ـ رومانيا) واقامة الانظمة الاشتراكية في هذه الدول .

ومع هذا الانتصار الضخم للاشتراكية اصبحت السياسة الامبريالية ـ بقيادة الولايات المتحدة الاميركية تتخذ طابعاً هجومياً مغلفاً بالدفاعية ، تحت شعار « المصالح الحيوية والأمن » .

وقد اوضح « ليود .وولش » أحد كبار ممثلي احتكار « ستاندر أويل » في عام ١٩٤٦ مضمون هذا الشعار اذ قال : « ان سياستنا الخارجية ستتركز في المستقبل اكثر من أي وقت مضى على أمن واستقرار توظيفاتنا الخارجية ، وان الاحترام الشديد الذي يتمتع به رأسمالنا في الخارج لا يقل أهميّة عن احترام مبادئنا السياسية[٢] » .

ان المصالح الحيوية والأمن » من منظار السياسة الاميركية في ضوء نتائج الحرب العالمية الثانية يتركز حول هدفين أساسيين : ـ

الاول : هزيمة الاشتراكية ، كعدو مباشر للنظام الرأسمالي ، والاحتكارات الامبريالية ، هزيمة نهائية ، بدءا بمحاصرة الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية .

الثاني : السيطرة على الشعوب ، وخاصة منطقة الشرق الاوسط الغنية بالنفط والخامات الاخرى ، وتأمين طرق المواصلات البحرية اليها .

ومن اجل تحقيق هذين الهدفين السياسيين ، بلور الرئيس الاميركي « هاري ترومان (١٩٤٥ ـ ١٩٥٣) السياسة الاميركية الخارجية التي اشتهرت باسمه (مبدأ ترومان) والقائلة (بمساعدة !!) الشعوب التي تهدّدها ـ حسب زعمه ـ الشيوعية وينطوي مبدأ ترومان هذا على تعزيز الحضور البحري الاميركي ، لوصل القارات عسكرياً ، واقامة الاتصال بين القواعد العسكرية البرية ، واقامة قواعد عسكرية (بحرية) لضرب القارات . وعلى اساس هذا المبدأ « تم انشاء الاسطول السادس في ايار ١٩٤٨ ، ومهمته الردّ على التحركات السوفياتية في البحر الابيض المتوسط والمناطق المجاورة[٣] » .

فالبحر الابيض المتوسط ، منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية ، كانت بريطانيا تسيطر على كل النقاط الاستراتيجية فيه ، والتي تشكل منافذ حيوية لامبراطوريتها : فقد سيطرت بريطانيا على مضيق جبل طارق عام ١٧٠٤ ، ثم على جزيرة مالطا عام ١٨٠٠ ثم على عدن عام ١٨٣٩ ، ثم على قبرص عام ١٨٧٨ ، وعلى مصر عام ١٨٨٢ .

وقد بدأت مرحلة جديدة من تاريخ البحر الابيض المتوسط مع دخوله الولايات المتحدة شمال افريقيا خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ ، وبدأت الرقابة

على المضايق والقنوات تشغل مكانة هامة في استراتيجية الولايات المتحدة التي استخدمت هذه المضائق في الحرب العالمية الثانية[٤] » .

« ويمكن تحديد نقطة ابتداء التدخل الاميركي المباشرة في شرق البحر الابيض المتوسط مع دخول البارجة الحربية « ميسوري » استانبول عام ١٩٤٦[٥] » .

وفيما بعد ، وبالتحديد في عام ١٩٤٨ ، استمر الوجود البحري الاميركي ، باسم الاسطول السادس ، وبدأ يلعب دوراً بالغ الأهمية في تنفيذ سياسة « حماية المصالح والأمن » الاميركية « المزعومة » . اذ أعقب هذا الوجود « وبموازرة معونة اقتصادية وعسكرية هامة وضع شبكة من أحلاف الأمن : بتاريخ ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٠ وقع القائمون على الحلف الاطلسي بروتوكولاً يدعو اليونان وتركيا للانضمام الى معاهدة الأطلسي ـ الشمالية (٠٠٠٠) وهكذا أشرفت منظمة الاطلسي على مضائق البوسفور والدردنيل بعد إنضمام تركيا إليها[٦] » .

« ثم قامت الولايات المتحدة بتشكيل « الحزام الشمالي للبحر الابيض المتوسط الشرقي » اليوناني ـ التركي ـ الايراني ، هذا الحصن المتقدم للغرب ، مع مفتاح القبة التركية في منتصفه ـ ٣٠٠٠ كم من الحدود مع الاتحاد السوفياتي[٧]» .

وقد لخص « جون فوستر دالاس » وزير الخارجية الاميركي في عهد الرئيس « دوايت دافيد ايزنهاور (١٩٥٣ ـ ١٩٦١) بأن الهدف الاساسي للسياسة الاميركية » هو دحر الاشتراكية[٨] » .

وكان هذا الموقف الاميركي بمثابة الاعلان عن بداية نشوب « الحرب الباردة » بين الجبارين وتحالفاتهما العالمية ، اي منع انتشار « الاشتراكية » وهذا يعني اقامة الأحلاف الاقليمية المرتبطة من ناحية ، وضرب حركات التحرر الوطني في المنطقة ، إنطلاقاً من أن هذه الحركات لا بد وان تلتقي في النهاية مع السياسة الاشتراكية للاتحاد السوفياتي .

وفي مجال ضرب حركات التحرر الوطنية ، نكتفي بذكر الامثلة التالية في تلك المرحلة : ـ

١ ـ في ١٩ آب ١٩٥٣ ، دبـرت المخـابرات الاميركية ، وعملاؤها انقلاباً ضد ثورة « مصّـدق » في ايـران ، الـذي انتخب عام ١٩٥١ باجماع شعبي ، واتخذ نهجـاً تقـدميـاً في سيـاستـه الخـارجية والداخلية عام ١٩٥١ ، وكان طابع هذه السياسة فصل ايران عن تحالفاتها الامبريالية بما يضمن سيادتها واستقلالها . واستطـاعت المخابرات الاميركية بعد هذا الانقلاب ان تعيد شاه ايران المخلوع الى الحكم .

٢ ـ في عام ١٩٥٦ قامت كل من فرنسـا ، وبـريطـانيـا ، والكيان الصهيوني وبـدعم من الـولايات المتحدة بالعدوان « الثلاثي » على مصر . لمنع استكمالها للتحـولات التقـدميـة التي بدأت بتأميم قناة السويس ، ووقف عملية تقاربها مع الاتحاد السوفياتي .

وكان للموقف السوفياتي الصارم أثره الكبير والحازم في دحر هذا العدوان .

٣ ـ في عام ١٩٥٧ انتشرت اليقظة القومية على الساحة العربية ، خاصة في سوريـة التي برزت فيها بقوة ملحوظة ، الاحزاب الاشتراكية القومية ، واصبحت توجـه السيـاسـة السـورية بشكل كامل بما يضمن حريتها واستقلالها ـ خاصة حزب البعث العربي الاشتراكي .

« وتقـول الـوثـائق انـه في عام ١٩٥٧ قامت الـولايـات المتحـدة الاميـركية وبـريطـانيا ، وفرنسا بالاعداد لعدوان على سورية بغية اجبارها على التخلي عن سياستها الوطنية المستقلة(٩) » .

٤ ـ في ١٤ تمـوز ١٩٥٨ وبعـد الثـورة العـراقيـة ، قامت الولايانت المتحدة الاميـركيـة وحلفـاؤها الاطلسيون بشتى المحاولات لاجهاض هذه الثورة ووضع الاسطول السادس ، والقواعد الاميركية آنذاك في حال الاستنفار الدائم

٥ ـ في عام ١٩٥٨ قامت الـولايـات المتحدة ، وبريطانيا بانزال عسكري في الاردن ولبنـان . لمنـع التطلعـات الـوحدوية ، ولجم النهوض القومي ، وكردٍ على سقوط « حلف بغداد » المرتبط بالسياسة الامبريالية .

ومنـذ ذلـك التاريخ ، اصبح الكيان الصهيوني ، احدى الركائز الاساسية في سياسة الولايات المتحدة التي بدأت بدعمه اقتصادياً وعسكرياً ، وزودته بأحدث المعدات العسكرية ، بما يضمن له التفوق العسكري على مجموع الدول العربية

المحيطة بفلسطين (مصر ، سورية ، الاردن ، لبنان) .

وبدأت السياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ، ترتكز على ثلاث ركائز عسكرية (ايران ، اسرائيل ، اثيوبيا) ، الامر الذي كان يحقق لها بالمقابل سيطرة كاملة على شرقي البحر المتوسط ، وعلى منابع النفط العربية في المنطقة ، بالاضافة الى العدوان المستمر على الدول العربية التي تتبع سياسة مستقلة نابعة من مصلحتها الوطنية والقومية ، ولضرب تحالفها مع الاتحاد السوفياتي خاصة (مصر ، سورية ، العراق) .

ان هذه الركائز العسكرية الثلاثة مدعومة من القواعد البحرية الاطلسية في البحر الابيض المتوسط ، والقواعد البحرية المجاورة ، كانت تشكل عصب السياسة الاميركية في المنطقة . وفي ظله قامت الولايات المتحدة ، عن طريق الكيان الصهيوني بتنفيذ عدوانين على الامة العربية .. في عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ م .

إلّا أن هذه الركائز قد اهتزت في عام ١٩٧٤ بسقوط نظام هيلاسيلاسي ، وقيام نظام اثيوبي تقدمي ، معاد للسياسة الاميركية بقيادة « هيلامريام » وترسيخ النظام الاشتراكي اليمني كقوّة اقليمية بالغة الاثر والأهمية ، بما يشكل خطرا فعليا على منافذ البحر المتوسط ، ومنابع النفط ـ حسب السياسة الاميركية ـ الامر الذي دفع بالولايات المتحدة بكل قوة لمحاولة تعويض هذه الخسارة (اثيوبيا) ، ومعالجة ذلك الخطر (جمهورية اليمن الديمقراطية) ، خاصة ان هذين العاملين قد رافقهما تصلب في الموقف السوري المعادي السياسية الاميركية، وبروز دور قوي سياسياً وعسكرياً لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد عام ١٩٧٣ م .

وفي سياق اهتمام السياسة الاميركية بارساء ركائز عسكرية جديدة اتجهت هذه المرّة نحو « مصر » التي كان نظام السادات قد احدث خللاً في علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي قبل وبعد حرب عام ١٩٧٣ . ونجحت السياسة الاميكية فعلاً في عزل مصر عن الامة العربية ، وربط سياستها الخارجية بالسياسة الاميركية بعد قيام « انور السادات » بتوقيع معاهدة « كامب ديفيد » مع الكيان الصهيوني . وهكذا اصبحت مصر بمثابة ركيزة اساسية للسياسة الاميركية

الشرق اوسطية .

وكذلك اتجهت السياسة الاميركية مدفوعة بنفس الحوافز ، نحو اليونان ، وتركيا لكن نشوب الازمة القبرصية في عام ١٩٧٤ اصاب هذا التوجه في الصميم ، خاصة ما ترتب عليه داخل المجتمعين التركي ، واليوناني .

فتركيا عصفت بها الازمات الاقتصادية والسياسية (كما سبق واشرنا) . واليونان بدأت تعصف بها تحولات جذرية بعد بروز الحزب الاشتراكي ، وسياسته المناهضة لوجود القواعد الاميركية .. بالاضافة الى حالة العداء القائمة بين النظامين .

ثم حدثت انتكاسة جديدة اصابت السياسة الاميركية ، اثر انهيار احدى قلاعها العسكرية ، وركائزها السياسية في المنطقة ، بسقوط نظام شاه ايران بفعل الثورة الشعبية الايرانية ، بزعامة آية الله خميني ، واعلان الثورة الايرانية ان عدوها الاول ، هو الولايات المتحدة الاميركية ، واسرائيل . وتحولت هذه القلعة ، من ترسانة اميركية ـ الى ثورة معادية للسياسة الاميركية اعتباراً من تاريخ ٧ كانون الثاني عام ١٩٧٩ م .

واذا كانت الادارة الاميركية ـ جرياً وراء سياستها الامبريالية العدوانية ـ قد اعتبرت ان خروج المقاومة الفلسطينية من الجنوب اللبناني ، وبيروت ، وما رافق ذلك من تمزق داخل الساحة الفلسطينية والعربية بفعل الاجتياح الصهيوني للاراضي اللبنانية في حزيران ١٩٨٢ ، وما اعقبه من تواجد كبير لقوات البحرية الاميركية باسم القوات متعددة الجنسيات ، اذا كان ذلك انتصاراً للسياسة الاميركية . فان خروج هذه القوات مهزومة بفعل الضربات القوية على يد المقاتلين اللبنانيين والفلسطينيين المدعومين بقوة من سورية ، هو هزيمة كبرى لهذه السياسة الاميركية ، فاقت بأثرها ما اعتبرته انتصاراً .

اما الاخفاق الآخر للسياسة الاميركية ، فيكمن في عدم قدرتها على حل التناقض بين اليونان وتركيا الذي نتج عن الازمة القبرصية ، بل ان الموقف اليوناني بعد ان اعلن انسحاب اليونان من حلف شمال الاطلسي سجل تصعيداً آخر ، باعلان عزمه على الغاء القواعد العسكرية الاميركية فوق الاراضي اليونانية اعتباراً من عام ١٩٨٨ .

إزاء هذه التراجعات في المواقع الاميركية ، السياسية ، والعملياتية العسكرية ، صعّدت الادارة الاميركية ضغوطاتها وجهودها في ثلاثة اتجاهات رئيسية : -

الاتجاه الاول : انشاء قوات التدخل الاميركي السريع ، أي قيام القوات الاميركية بالتدخل العسكري المباشر - وليس عن طريق الركائز التابعة - في أي موقع ، يهدّد المصالح والامن الاميركيين !!! . وبجهد محموم « أدخلت الادارة الاميركية في عداد هذه القوات (حسب احصائيات المعاهد العسكرية الاستراتيجية) ۲۰۰,۰۰۰ جندي اميركي - ووصل عدد قواعدها الى ۲٥۰۰ قاعدة ومركز تتوزع في ۱۱٤ بلداً(۱۰) .

وقد قامت هذه القوات فعلاً بتحقيق الاعتداءات التالية في المنطقة :

۱) الاعتداء على بيروت والجبل والقرى اللبنانية والقاء آلاف القذائف عليها من مدافع البارجة « نيوجرسي » وغيرها من القطع البحرية الاميركية خلال شهر شباط ۱۹۸٤ م

۲) قيام هذه القوات بغزو جزيرة « غرينادا » والسيطرة عليها ضد ارادة ورغبة سكانها .

۳) قيام هذه القوات بمحاصرة « ليبيا » عسكرياً ، وقصف المدن الليبية بصواريخ السفن ، والطائرات الحربية عام ۱۹۸٦ .

الاتجاه الثاني : دفع سياسة التطبيع الصهيونية - المصرية ، عن طريق تقديم التنازلات من كلا الطرفين (وفي الحالتين فان مصر هي الخاسرة) لتحرير النظام المصري من عقدة الالتزام العربي ، وتوجيهه لاخذ مواقع اكثر تقدماً في خدمة السياسة الاميركية ، من خلال كونه قاعدة ارتكاز عسكرية يمكن ان تلعب دوراً اقليمياً في غاية الاهمية بالنسبة لتحقيق السياسة الاميركية ، يفوق ما يقدمه الكيان الصهيوني من الناحية السياسية ، نظراً للتأثيرات المتاحة للنظام المصري ، عربياً ، واسلامياً وافريقياً ، وفي مجموعة دول عدم الانحياز .

الاتجاه الثالث : العودة الى تدعيم الحليف التركي عسكرياً ، واقتصادياً لتمكينه من القيام بدور فعال في تنفيذ السياسة الاميركية ، ومساعدته في حسم الصراعات الداخلية ، وتمكين القوى الفاشية المرتبطة بالسياسة الاميركية من

السيطرة على السلطة .

وعلى هذا الاساس وقع الانقلاب العسكري الفاشي في ١٢ ايلول ١٩٨٠ م (انقلاب الجنرال كنعان ايفرين) .

تطور الدور التركي في السياسة الاميركية : -

بدأ اهتمام السياسة الاميركية بتركيا ، منذ بدأ المحاولات الاولى للنفوذ الاميركي في البحر الابيض المتوسط ، غير ان محاولات الاتصال هذه من اجل نشاط اميركي في المنطقة لم تنجح إلاّ في عام ١٨٢٣ ، عندما تأسست أول إرسالية بروتستانتية اميركية في لبنان ، وابدت هذه الارسالية اهتماماً كبيراً بالاتصالات مع السكان المحليين وبطبع الكتاب المقدس باللغة العربية ، وفتح شبكة من المدارس ، وعلى أساس هذه المدارس بالذات تأسست فيما بعد « الكلية البروتستانتية السورية » التي استبدل اسمها لاحقاً « بالجامعة الاميركية » في بيروت[١١] »

« وفي عام ١٨٢٩ وجه الرئيس الاميركي « جاكسون » بعثة خاصة الى استانبول بغية توقيع المعاهدة الاميركية ـ التركية الاولى (....) وفي ٧ ايار ١٩٣٠ وقعت اول معاهدة اميركية ـ تركية هيّأت للتجار والدبلوماسيين الاميركيين امكانيات واسعة جداً للتغلغل في المناطق العربية التابعة للامبراطورية العثمانية[١٢] » .

إلاّ ان الوجود الاميركي الفعلي (كما اشرنا سابقاً) لم يتحقق إلاّ بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، التي لم تشارك فيها الولايات المتحدة سوى في نيسان عام ١٩١٧ ، وفي مشاركتها الدول الامبريالية الاخرى في الهجوم على اراضي الاتحاد السوفياتي لضرب الثورة الاشتراكية العظمى.

وفيما يتعلق بالدور التركي الفعلي في السياسة الاميركية ، فقد برز بعد الحرب العالمية الثانية ، إثر تزايد نفوذ الاتحاد السوفياتي ، وظهور دول المنظومة

الاشتراكية كقوّة موازية للقوة الامبريالية . وقد استغلت السياسة الاميركية تخوف تركيا التاريخي من روسيا ، والخلاف التركي السوفياتي حول بعض المناطق والقضايا ، لدفع الموقف التركي باتجاه الدول الغربية الامبريالية . طمعاً في جعلها حصناً متقدماً للغرب ضد الاتحاد السوفياتي ، ونقطة انطلاق للسيطرة على الشرق الاوسط . لهذا السبب صرح الرئيس الاميركي « فرانكلين روزفلت (١٩٣٢ ـ ١٩٤٥) » ان الدفاع عن تركيا هو في الوقت ذاته دفاع عن الولايات المتحدة نفسها[١٣] » .

وعلى اساس « مبدأ ترومان » اطلق والترليبمان ـ احد مشاهير الصحافيين في الولايات المتحدة ـ يوم ١ نيسان عام ١٩٤٧ عبر صحيفة ال « نيويورك هيرالد تربيون » التصريح التالي : ... لم يقع اختيارنا على كل من اليونان وتركيا بسبب حاجتهما الفعلية الى المساعدة ، ولا لأن هذين البلدين يجسدان النموذج الديمقراطي ، بل ان اختيارنا لهما يستند الى كونهما بوابتين استراتيجيتين تفتحان على قلب الاتحاد السوفياتي ، وعلى البحر الاسود[١٤] » .

وفي نفس الفترة أعلن الجنرال « ايزنهاور » الذي أصبح رئيساً فيما بعد : ... ما من بقعة في الارض اكثر اهمية من منطقة الشرق الاوسط[١٥] » إذن ان اهمية تركيا تنبع من كونها جغرافياً ، موقعاً استراتيجياً يحقق للسياسة الاميركية هدفها المزدوج . مواجهة الاتحاد السوفياتي ، وإقامة حصن امام انتشاره ، وكذلك قيام قاعدة ارتكاز قوية للسيطرة على منطقة الشرق الاوسط « اغنى كنوز العالم » .

وفي عام ١٩٥٠ انضمت تركيا الى حلف شمال الاطلسي ، وعُهد اليها بمهمة الاشراف على مضيقي « البوسفور ، والدردنيل » .

وهكذا ربطت الولايات المتحدة الاميركية تركيا بسياستها بشكل كامل ، وتحقق تصريح الرئيس « ترومان » .

ومن الواضح ان أهميّة تركيا في السياسة الاميركية تنبع من المعطيات التالية : ـ

١ ـ ثلاثة آلاف كم من الحدود مع الاتحاد السوفياتي ، وخلافات تاريخية مع روسيا القيصرية ، وثقل اسلامي ، وعنصرية قومية يصلحان لأن يكونا قاعدة

« لمعاداة الشيوعية».

٢ ـ وقوع ممريّ « البوسفور ، والدردنيل » بين البحر الاسود ، والبحر الابيض المتوسط ضمن الاراضي التركية ، وهما الممران الوحيدان « المختصران » اللذين تستيطع قطع الاسطول السوفياتي المرور منهما الى البحر الابيض المتوسط .

٣ ـ وجود خلافات تاريخية بين تركيا وبلغاريا ، حول مسألة المسلمين في بلغاريا ، وحول القضية المكدونية .

٤ ـ شعور تركي معادٍ للأمّة العربية ،على اعتبار ان الثورة العربية كانت سببا رئيسياً في هزيمة الامبراطورية العثمانية .

٥ ـ كون تركيا من البلاد الاسلامية ، فان بامكانها القيام بدور على صعيد العالم الاسلامي ، حتى على صعيد الدول العربية

٦ ـ اطلالة تركيا على البحر الابيض المتوسط بشكل استراتيجي ، نتيجة قرب شواطئها من جزيرة قبرص ، وجزر بحر ايجة .

٧ ـ انفتاح تركيا على الغرب ، بعد ثورة « مصطفى كمال » واعتبار الكمالية جزءا من الغرب ، وبالتالي العداء لكل ما هو شرقي .

هذه المعطيات التي تتمتع بها تركيا ، بقدر ما هي مفيدة وهامة بالنسبة للسياسة الاميركية ، بقدر ما هي ضارّة بالنسبة لتركيا نفسها « فطوال الفترة التي مرت على تركيا منذ الحرب العالمية الثانية ، ومنذ ارتباطها بحلف شمال الاطلسي كانت تركيا تعيش في شبه عزلة عن العالم ، مكتفية بالمساعدات الاميركية التي كان على الحكومة التركية انفاقها ، او انفاق معظمها في مجال تعزيز قدرات الجيش التركي (مليون جندي تحت السلاح) وفقا لاستراتيجية الحكومة الاميركية وحلف الاطلسي ، باعتبار ان تركيا تشكل خط الدفاع الاول عن منطقة الشرق الاوسط ، البالغة الاهمية بالنسبة للغرب ، ضد الاتحاد السوفياتي[١٦] » .

وضمن السياسة الاميركية ، لعبت تركيا دورا هاما ومميزا في سياسة معاداة الشيوعية والاتحاد السوفياتي ، وفي الحرب الكورية . الامر الذي ادى الى زيادة المساعدات .

القواعد العسكرية الاميركية في تركيا(١٧)

منذ انضمام تركيا الى حلف شمال الاطلسي ، قامت الولايات المتحدة الاميركية بانشاء قواعد عسكرية هناك فيما يلي اهمها : ـ

١ ـ قاعدة « انسيرليك » الجويّة قرب « أضنة » وتتمركز فيها وحدات من القوّة الجوّية الاميركية التكتيكية .

٢ ـ قاعدة « أنقرة » الجويّة لتأمين الجسور الجوّية ـ وفيها مركز عمليات تركي ـ اميركي مشترك .

٣ ـ قاعدة « أزمير » الجويّة للدعم الجوّي ، وهي مقر القيادة البريّة للجزء الجنوبي الشرقي من خلف شمال الاطلسي، وفيها ايضاً قيادة القوّة الجويّة التكتيكية للاسطول السادس .

٤ ـ قاعدة « سيغلي » الجويّة شمالي أزمير .

٥ ـ قاعدة « اسكندرون » البحرية .

٦ ـ قاعدة « يوموتا ريك » البحرية .

٧ ـ قاعدة « كارغابارون » على الجانب الشمالي من بحر مرمرة ، وفيها محطة لتوجيه الملاحة عن بعد .

٨ ـ قاعدة « سينوب » على الشاطيء الجنوبي للبحر الاسود ، لجمع المعلومات عن النشاطات الجوّية والبحرية للاتحاد السوفياتي .

٩ ـ قاعدة « ديار بكر » في الجزء الجنوبي الشرقي من تركيا ، ومهمتها متابعة النشاطات العسكرية السوفياتية ، وتجارب الصواريخ ، بالاضافة الى متابعة ما يجري في سورية والعراق وغربي ايران ـ وهي بادارة رجال الامن القومي الاميركي .

١٠ ـ قاعدة « بلباسي » جنوبي انقرة لرصد التجارب النووية السوفياتية .

١١ ـ ١٤ محطة رادار تابعة لنظام الرصد والانذار الخاص بحلف شمال الاطلسي

١٢ ـ ١٦ مركزاً لتأمين الاتصالات اللاسلكية الاميركية !

ومــع هذا كله فان العــلاقــات الاميـركيـة، التركية لم تستمر على وتيرة واحدة من التقدم. بل شهدت عدة توترات منذ مطلع الستينات.

١ ـ « بعـد نشـوب ازمة الصواريخ الكوبية بين الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحــدة عرض الـرئيس « جون كينيـدي » على الـزعيم السـوفيـاتي « نيكيتـا خروتشـوف » سحب الصـواريخ الاميركية النووية « جوبيتر » من تركيا ، مقابل سحب الصواريخ السوفياتية النووية من كوبا .

هذا الامـر أثـار الأتراك الذين أدركوا ان الولايات المتحدة مستعدة للتضحية بهم مقابل تحقيق مصالحها[١٨] » .

٢ ـ إثـر نشـوب الأزمـة القبـرصية في عام ١٩٦٤ بين اليونان وتركيا ، وقفت الادارة الاميـركيـة الى جانب اليـونان ، وأنذرت تركيا بعدم غزو قبرص ، مما أثار ضجة كبيرة لدى اوساط الحكم التركي .

٣ ـ ثم جاءت الأزمـة القبـرصيـة الثـانيـة عام ١٩٧٤ . وقـد لعبت الـولايات المتحدة دوراً مزدوجاً بين اليونان وتركيا ، فمن ناحية المضمون فهي مع تقسيم الجزيرة ـ الموقف التركي ـ ومن ناحية الشكل وتجنبا لاثارة الرأي العام العالمي ضدهـا ، ادانت الغزو التركي . ممـا أثـار حفيظـة الرأي العام التركي ضدها ، وانطلقت المظاهرات التي تطالب بالغاء العمل بمعاهدة التعاون الدفاعي المعقودة عام ١٩٦٩ . وبـالفعـل ، وتحت تأثيـر ضغط الرأي العام التركي ، وتجنبا لسقوط النظام ، اعلنت الحكومة وقف العمل بهذه المعاهدة .

وقـد نتجت عن هذه التـوتـرات في العلاقات الاميركية التركية ، اوضاع في غاية الاهمية والخطورة بالنسبة للسياسة الاميركية على الجانب التركي .

● رافقت هذه التـوتـرات أزمـات اقتصادية خانقة أضعفت سيطرة الحكومات التركية على المجتمع التركي .

● بروز الاتجاهات المناهضة لسياسة الارتباط بالسياسة الاميركية ، واتخاذ مواقف متوازنة مع الاتحاد السوفياتي .

● بروز القـوى الـديمقراطية ، وزيادة تأثيرها ونفوذها وتنظيمها في المجتمع التـركي كقـوة تضغط على الدولة بالتوجه نحو الاشتراكية لحل الازمة الاقتصادية

الناجمة عن سياسة الارتباط بالاحتكار الاقتصادي الغربي

● بروز ظاهرة العنف المسلح بين القوى السياسية المتصارعة (اليمينية ، واليسارية) .

● تحت ضغط الرأي العام التركي ، بدأت العلاقات بين الدولة التركية والاتحاد السوفايتي تشهد تحسناً ملموساً .

وانطلاقاً من اهمية تركيا بالنسبة الى حلف شمال الاطلسي ، واهميتها بالنسبة للسياسة الاميركية ، فقد دفعت الادارة الاميركية منذ عام ١٩٧٨ بكل ثقلها من اجل منع تركيا من ان تنهار ، أو تنزلق نحو الثورة ، خاصة وان عدداً من التطورات البالغة الأهمية قد وقعت اعتباراً من هذا التاريخ : ـ

١ ـ سقوط نظام شاه ايران عام ١٩٧٩ ، وتوقف دور ونشاط القواعد الاميركية في ايران .

٢ ـ وصول الحزب الديمقراطي الاشتراكي بزعامة « باباندريو » الى السلطة في اليونان بفوز ساحق في الانتخابات التي جرت عامي ١٩٨١ ، ١٩٨٦ ، وإعلان «باباندريو» عن خطته لالغاء القواعد الاميركية فوق الاراضي اليونانية بعد انتهاء مدة المعاهدة المعقودة بين الطرفين لغاية ١٩٨٧ ، بعد ان جمدت اليونان مشاركتها في نشاط حلف شمال الأطلسي ، وما اعقب ذلك من تقارب بين اليونان والاتحاد السوفياتي .

٣ ـ قيام الثورة الافغانية ، بمساعدة سوفياتية ، عسكرية واقتصادية ، الامر الذي يعني حسب السياسة الاميركية ، امتداد النفوذ السوفايتي الى مناطق النفط العربية ، التي تعتبرها اميركا « مصالح حيوية » اميركية !

٤ ـ تعثر سياسة « تطبيع العلاقات » بين النظام المصري ، والكيان الصهيوني ، نظراً لعدم قدرة النظام المصري على فرضها على جماهير الشعب المصري ، الامر الذي أثار حذر الولايات المتحدة ، بشأن الاعتماد على النظام المصري بشكل كامل ، كقوة إقليمية كبرى مرتبطة بالسياسة الاميركية .

وإزاء هذه التطورات مارست الولايات المتحدة ضغوطاً ومغريات كثيرة نجحت من خلالها في جعل تركيا توقع معها « اتفاق التعاون الدفاعي » ، الذي يسمح للولايات المتحدة الاميركية بالاستمرار في استخدام قواعد عسكرية ، ومراكز

لمـراقبـة التحركات السوفياتية في انقرة بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩٨٠ ، وعلى أثـر ذلـك ، صرح السفير الاميركي « رونالد سبايرز » : ان الاتفاق الذي يسري لمـدة خمس سنـوات على ان يصادق عليه سنوياً ، هو وثيقة مهمة تشكل منعطفاً في تطور العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة .

ويقضي الاتفـاق باعـادة تنشيط ٢٦ قاعدة عسكرية لحلف شمال الاطلسي . مقابل معونة اقتصادية عسكرية اميركية لا تقل عن مليارين ونصف المليار دولار[١٩] » سنوياً .

« وحسب هذا الاتفـاق فان عدد الجنـود الامريكيين المصرّح به للتواجد في هذه القواعد هو ٥٣٠٠ جندي[٢٠] » .

لكن الادارة الاميـركيـة لم تكتف بهذا الاتفاق ، بل لم تكن راضية عنه تماماً ، خصـوصـاً مع التعنت الـذي أبدته تركيا في بعض النقاط أثناء المحادثات ، لذا بدأت الادارة الاميركية ، وبواسطة عملاء مخابراتها المركزية في تركيا ، بترتيب إنقـلاب عسكـري فاشي ، هيأت له كل الظروف المواتية للنجاح ، من اجل اعادة تركيا بقوّة الارهاب الى حضيرة السياسة الاميركية .

وكمـا ان العنف ، والازمـة الاقتصـاديـة قد خلقا ظروفاً داخلية مواتية لنجاح الانقـلاب ، فإن إطـالـة الأزمـة الحكومية التركية ، كان الهدف منها خلق المناخ المناسب لاقناع الدول الاوروبية الحليفة باستحالة الحا الديمقراطي لَلأزمة التركية .

وهكذا وبتخطيط كامل من الادارة الاميركية ، وقع الانقلاب العسكري في ١٢ أيلول ، وهـدفـه الاول والاخيـر استمـرار الـدور التـركي في خدمـة السيـاسـة الاميـركيـة ، وقـد أوكل له بالاضافة الى السيطرة الكاملة على الوضع الداخلي ، إكمـال المهمـات التي كان قد بدأهـا ، والمتـركـزة على القضيـة القبـرصيـة ، والقضايا العربية ، وافتعال الأزمات مع بلغاريا ، وإثارة المتاعب لليونان .



الدور التركي الامبريالي في قضية تقسيم قبرص

لقد تميزت قبرص عبر التاريخ بأهميتها الاستراتيجية ، كمعبر لأساطيل الدول الكبرى عبر البحر المتوسط من الغرب الى الشرق وبالعكس ، ومن اوروبا الى افريقيا وبالعكس ، وكانت السيطرة عليها تعني التأثير المباشر لهذه الاساطيل على كل ما حولها من دول وامبراطوريات ، بالاضافة الى اهميتها في السيطرة على حركة الاساطيل ذاتها في البحر الابيض المتوسط .

« وهكذا فان موقع قبرص الاستراتيجي اجتذب اليها الغزاة على مرّ العصور : كاليونان والمصريين القدماء ، والآشوريين ، والبيزنطيين ، والصليبيين والبريطانيين والفرنسيين ، وفي عام ١٥٧١ خضعت الجزيرة للحكم العثماني[٢١] » .

وعندما بدأ صراع الدول الكبرى على ممتلكات الدولة العثمانية فيما هي على وشك الانهيار « اقترح رئيس وزراء بريطانيا « دزرائيلي » أستئجار قبرص من الحكم العثماني[٢٢] » فلقد « كانت الديبلوماسية البريطانية في ذلك الوقت وتحت شعار حماية وحدة الاراضي التركية ، قد استطاعت ان تفرض على السلطان عبد الحميد معاهدة جائرة ، شملت بريطانيا بموجبها « قبرص » ذات الموقع الاستراتيجي الهام ، ومما له دلالته هو ان المادة السادسة من المعاهدة البريطانية ـ التركية المؤرخة في ٤ حزيران ١٨٧٨ م ، تشير الى ان بريطانيا تلتزم بالجلاء عن قبرص حالما تعيد روسيا الى تركيا « قارص » و« اردهان » و « ارتوني » التي انتقلت الى روسيا بعد الحرب الروسية ـ التركية . وفي عام ١٩٢١ سلمت هذه الاراضي لتركيا طبقاً للمعاهدة السوفياتية ـ التركية التي وقعت في موسكو في السادس عشر من آذار من العام المذكور ، الا ان المستعمرين البريطانيين خرقوا معاهدة ١٨٧٨ مع تركيا وواصلوا احتلالهم لقبرص[٢٣] » .

لقـد أخـذت قبـرص ـ بالاضـافة الى ما تقدم ـ أهمية استثنائية في السياسة البريطانية من ثلاثة عوامل :

١ ـ « في سنـة ١٨٦٩ أعطـاها شق قناة السويس قيمة جغرافية واقتصـادية واستراتيجية جديدة[٢٤] ».

٢ ـ الحيلولة دون تمدد الاسطول السوفياتي الى المياه الدافئة .

٣ ـ التفـوق على فرنسـا التي كانت تشـارك بريطـانيا في اطماعها في منطقة الشرق الاوسط .

لذلك « عندما أعلنت الامبراطورية العثمانية الحرب على الحلفاء : ألغت لندن معـاهـدة ١٨٧٨ وأعلنت ضم قبـرص ـ هذا الضم الـذي ستعتـرف به تركيا بعد النـزاع العـالمي الاول بموجب البند ٢٠ من معاهدة « لوزان » في سنة ١٩٢٣ ، واصبحت قبرص مستعمرة « للتاج البريطاني » في سنة ١٩٢٥[٢٥] ».

وانطـلاقـاً من الاهداف الامبريالية البريطانية ، أقام البريطانيون عدة قواعد جوّية في جزيرة قبرص ، وقد لعبت هذه القواعد دوراً بالغ الخطورة ، خاصة ضد الأمـة العـربيـة « فقـد استخـدمها المستعمرون البريطانيون في العدوان على الشعب المصـري عام ١٩٥٦ ، وفي التـدخل المسلح في الاردن عام ١٩٥٨ م ، وأصبحت هذه القواعد مرتكزاً لحلف الناتو ضد الثورات المعادية للامبريالية في البلدان العربية حتى اليوم[٢٦] ».

أما الشعب القبرصي ، ومنذ منتصف الخمسينات ، فقد راح يطالب باستقلال بلاده عن الاستعمار البريطاني ، بالكفاح المسلح ، وكان هناك اتجاهان : الاول يطالب بانضمام قبرص الى اليونان ، على اعتبار ان غالبية القبارصة هم من أصل يوناني ، والاتجاه الثاني يطالب باستقلال قبرص ، وقيام دولتها المستقلة .

« وفي سنـة ١٩٥٥ تطـور الصـراع من اجل الجزيرة الى ابعاد ثورة مسلحة ضد البـريطـانيين وفي السنـة ذاتها اقترحت بريطانيا باسم التضامن العسكري والسيـاسي للحلفـاء الاطلسيين اجـراء محادثات ثلاثية مع اليونان وتركيا ، ومنذ عام ١٩٥٧ اعلنت تركيـا عن موقفهـا دافعـة الى تقسيم الجـزيـرة ـ بحيث يمكن للتقسيم ان يأخـذ شكـل اعادة ربط شمال قبرص بتركيا ، أو إقامة سلطة اقليمية تركية في الشمال تدخل في اتحاد فيدرالي مع السلطة الاقليمية التي ستقام في

الجنـوب ، واذا لم يحـدث التقسيم ينبغي ان تصبح قبرص (حسب راي انقرة) تحت سيطـرة احـدى الـدولتين ـ بريطـانيا العظمى ، اوتركيا ، بما أنهما تملكان الحق الشرعي في هذه السيطرة[٢٧] ».

وهكـذا يبـدو جليـاً ان تركيـا كانت منـذ البـدايـة تسعى الى تقسيم الجزيرة القبـرصيـة ، » وفي الـوقت ذاتـه طرحت « المشكلة القومية » نفسها بحدة وسط الطـائفـة التـركية : إنضم الاسقف « ماكاريوس » الذي كان يؤيد منذ زمن بعيد الاتحاد مع اليونان « الاينوسية » انضم في عام ١٩٥٩ الى صيغة الاستقلال القبـرصي[٢٨] » وهكـذا اخـذت قضيـة النضال من اجل استقلال قبرص ابعاداً جديـدة . ليس على صعيـد الوضع الداخلي القبرصي وحسب ، بل على مستوى الصراع الدولي على الجزيرة .

ففي عام ١٩٦٠ حصلت قبرص على استقلالها بزعامة الاسقف « مكاريوس » بعد نضال دامٍ ومرير ضد البريطانيين إلاّ ان بريطانيا « احتفظت بـ (٩٩ ميلاً مربعـاً) من الاراضي للاغـراض والتـدريبـات العسكـرية . وقد لعب الاستعمار البـريطـاني على وتـر التكـوين السكـاني حيث غالبيـة السكـان من القبـارصـة اليونانيين الذين تبلغ نسبتهم ٨٢٪ ، وقد ضمن الدستور الذي وضع لقبرص بعد اتفـاقيـة « زيـوريـخ ـ لندن » (الدستور وضع باشراف بريطانيا) منح الاقلية التـركيـة حق الفيتـو فيمـا يخص الضـرائب والسيـاسـة الخارجية، وان تمثل بـ (٣٠٪) من الحكـومة والبرلمان ، والخدمات المدنية وبـ (٤٠٪) من قوات الجيش والبوليس[٢٩] » .

وقد أدت سياسة الاسقف مكاريوس الاستقلالية الى مزيد من المؤامرات ضد قبرص ، فلقد اتبع مدعوماً من النقابات ، ومن اليسار غير الشيوعي ، ومن الحزب الشيـوعي « أخيـل » ومن جزء من الكنيسـة ، سيـاسـة خارجية قائمة على عدم الانحيـاز . وكـذلـك وقف موقف التأييـد من القضـايـا العـربيـة ، (القضيـة الفلسطينيـة ، خصـوصـاً) وأعلن رفضـه لاقامة آية قواعد عسكرية اميركية في قبـرص ، أو استخـدام القـاعـدتين البـريطـانيتين ضد العـرب ، وكذلك ونتيجة لسياسة الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية المؤيدة لاستقلال قبرص وعـدم انحيـاز ، فقـد اقـام « مكـاريـوس » علاقـات طيبـة مع دول المنظـومـة

الاشتراكية ، وهذا ما أثار حفيظة الولايات المتحدة الاميركية ، وبدات تعد العدة لوضع حدّ لاحتمالات ان تصبح قبرص دولة مؤيدة للاتحاد السوفياتي . وبدأت تعمل في ثلاثة اتجاهات رئيسية من أجل احتواء الجزيرة : ـ

١ ـ إثارة الخلافات الداخلية ، بالاعتماد على الدور التركي ، وعلى القنبلة الموقوتة التي تركها الاستعمار البريطاني في دستور قبرص القابل لتفجير المشكلة الطائفية في أي وقت .

٢ ـ دفع اليونان الى معارضة سياسة الرئيس « مكاريوس » الاستقلالية .

٣ ـ دفع تركيا الى الاصرار على تقسيم قبرص .

وبالفعل نجحت الولايات المتحدة في تحقيق هذه السياسة في الاتجاهات الثلاثة ، فمن ناحية ، ومن أجل تقسيم قبرص أثارت ، معتمدة على دور الحكومة التركية ، خلافات دموية بين الطائفتين اليونانية والتركية داخل الجزيرة ، راح ضحيتها الاف المواطنين نتيجة حرب الشوارع الطائفية ، التي كادت تودي بوحدة الجزيرة » الا ان الامم المتحدة نجحت عام ١٩٦٣ في ارسال قوة حفظ السلام التابعة لها لتفصل بين الجانبين ، وبذلك حافظت على استقلال قبرص ، ووضعت بداية سليمة للمباحثات بين الطرفين[٣٠] .

ومن ناحية ثانية : « جوبه الرئيس مكاريوس بأنصار « الاينوسية » أي الداعين الى الاتحاد مع اليونان داخل الجزيرة القبرصية بزعامة « الجنرال غريفاس » الذين راحوا يقومون باعمال عنف في الشوارع ضد نظام « مكاريوس » . الا ان خط الاستقلال انتصر على خط الاتحاد مع اليونان . وبدءاً من سنة ١٩٦٧ وقف نظام الضباط في « أثينا » ضد سياسة مكاريوس ، ورأووا فيه رمزا تقدميا يجب الاطاحة به ، خاصة بعد ان اصبحت قبرص على علاقات وطيدة مع الدول الاشتراكية . وفي سنة ١٩٧٠ نجا مكاريوس باعجوبة من أول محاولة اغتيال . وفي عام ١٩٧١ عاد « الجنرال غريفاس » مؤسس فصائل « الايوكا » المسلحة سرا الى قبرص كي يستانف المعركة ضد الاسقف ، وكاد « مكاريوس » يخفق في ان ينتخب مرة ثانية رئيساً للجمهورية في شباط عام ١٩٧٣ م[٣١] .

ومن ناحية ثالثة : رفعت تركيا شعار « حماية » الطائفة التركية القبرصية ،

متذرعة بأعمال العنف التي يقوم بها القبارصة اليونانيون، وأصرت على المطالبة بتقسيم قبرص

« والحقيقة ان الاصرار التركي على تقسيم قبرص لم يكن من قبيل تصفية حسابات تاريخية قديمة بين الدولتين التركية واليونانية ، بل كان بايعازمن الادارة الاميركية . اذ منذ ان بدأت قبرص تتهيأ لانتزاع استقلالها الوطني من الاستعمار البريطاني ، والامبريالية الاميركية تهيء بدورها لاحتواء استقلال الجزيرة في اطارسياستها النووية في شرق البحر الابيض المتوسط . وجعلها منصة لاسلحتها النووية التي باستطاعتها اصابة اهدافها في اراضي الاتحاد السوفياتي[٣٢] »

وهكذا اصبحت قبرص مركزاً للمؤامرات الخارجية التي تستهدف استقلالها وسياسة عدم انحيازها . من قبل الولايات المتحدة الاميركية ، وتركيا ، واليونان ، في آن واحد .

السيناريو الاميركي لتدمير استقلال قبرص:

في ١٥ تموزمن عام ١٩٧٤ دبر النظام الفاشي اليوناني مؤامرة مباشرة ضد سيادة قبرص واستقلالها، حيث تم تنظيم انقلاب عسكري ضد نظام الرئيس « مكاريوس » ، قام به الحرس الوطني القبرصي بزعامة « نيكوس سامبسون » .

وبعد اسبوع من هذا الانقلاب (٢٢ تموز) قامت القوات التركية بغزو الجزيرة ، واحتلت شمالها الذي يشكل ٣٧٪ من مساحة أراضيها ، بحجة حماية الطائفة التركية القبرصية ، وقامت بتهجير حوالي ١٠٠ الف يوناني قبرصي الى الشطر الجنوبي بطريقة همجية ، وبذلك حولت تركيا التقسيم ـ واقعاً ـ وجعلت قبرص تدفع ثمن موقعها الاستراتيجي غالياً .

وهكذا اصبحت قبرص عملياً مقسمة الى شطرين : يوناني ، وتركي . بالرغم من استنكار العالم وادانته للاجراء التركي وللمؤامرات الفاشية التي أطاحت بالرئيس مكاريوس ، ولم يمض وقت طويل حتى انكشفت اليد الخفية التي تقف

وراء هذه المؤامرة بشقيها : اليوناني والتركي . « فقد أعلن الرئيس الاميركي « جيرالد فورد ».

عدم معارضته لتقسيم قبرص ، وبعد ذلك بيوم واحد ، قامت تظاهرة قبرصية يونانية في نيقوسيا العاصمة انتهت باغتيال السفير الاميركي « روجر ديفيس » ، كما انطلقت تظاهرات يسارية في أنقرة ضد زيارة « هنري كيسنجر » وزير الخارجية الاميركي لتركيا ، وبعد ذلك نسفت القنصلية الاميركية في استانبول[٣٣] ».

« وتفيد اعترافات أدلى بها « هفتر » وهو ضابط في وكالة الاستخبارات الاميركية انه قد تم انفاق (٦٠ مليون دولار) لتحضير وتنفيذ الانقلاب الفاشي الذي دبّرته اليونان ضد مكاريوس ، وتغطية الاجتياح التركي الذي أعقبه بخمسة أيام[٣٤] » !

بعد ذلك عصفت بالمنطقة عدة تحولات جذرية ، ساهمت جميعها بتكريس التصلّب التركي من مسألة تقسيم الجزيرة ، مؤيداً بقوة من البنتاغون الاميركي ، والذي أوصل الامور الى الاعلان النهائي عن تقسيم الجزيرة .

« ففي مواجهة النظام الديكتاتوري الفاشي اليوناني تجلت لدى الشعب اليوناني الروح الديمقراطية المناهضة للفاشية ، وتمكنت من عزل ذلك النظام عزلاً تاماً ، ومقاومته بفعالية أدت في النهاية الى انهياره تحت وطأة الانقلاب الخياني الذي دبره في قبرص والغزو التركي المبيت الذي تبعه[٣٥] » .

ان التطورات اللاحقة التي سجلتها الاوضاع الداخلية اليونانية ، وانتصار خط الاشتراكية بقيادة ، «باباندريو» قد احدثت تغييرات مثيرة في العلاقة بين اليونان وحلف الناتو من جهة ، وبين اليونان والولايات المتحدة من جهة اخرى ، فقد اعلن « باباندريو » منذ تسلمه رئاسة وزراء اليونان : أن بلاده قد حددت موقفها داخل الحلف بما يتماشى والمحافظة على استقلالها وقدرتها على حماية مصالحها القومية. وأن على واشنطن ان تدرك ان اليونان لم تعد تعيش ذلك العهد الذي تعتبر فيه ذنباً لأميركا[٣٦] » .

ان التطورات التي جرت في اليونان ، وكذلك انتصار الثورة الاسلامية الايرانية ، وانتقال ايران من موقع اليد القوية لامريكا الى صف الدول

المعادية لسياستها ، بالاضافة الى التطورات المعقدة في منطقة الشرق الاوسط ، خاصة على الساحة اللبنانية .. كل ذلك جعل رجال البنتاغون الاميركي ، يعطون قبرص اهمية خاصة في برامجهم ، بالاضافة الى زيادة الاعتماد على الشريك الاطلسي التركي في تحقيق هذه السياسة خاصة بعد مجيء الحكم العسكري الفاشي التركي عام ١٩٨٠ .

لذلك فقد أيدت اميركا وبقوّة الموقف التركي بشأن التقسيم النهائي للجزيرة ، لكي يتسنى لها إنشاء القواعد العسكرية الاميركية في الجزء التركي ، بعد ان رفض القبارصة اليونانيون، إنشاء مثل هذه القواعد .

« ومن المعروف ان الطائرات الاميركية كانت تستخدم سابقاً القاعدة الجوية البريطانية في « أكروتيري » كما كانت تحصل على تقارير منتظمة من القواعد البريطانية الموجودة هناك ، بالاضافة الى ان المخابرات الاميركية قد استغلت الاحتلال البريطاني للجزيرة ، فأقامت ثلاث محطات استقبال لاسلكي فيها[٣٧] »

أما الآن وفي ظل تقسيم الجزيرة ، والاحتلال التركي لشمالها ، فان الولايات المتحدة لم تعد بحاجة الى المساعدة البريطانية ، بل أنها مباشرة تقوم « بتحويل جزيرة قبرص الى حاملة طائرات لا يمكن اغراقها لحلف الناتو في المنطقة ، وفي المناطق المحتلة يجري بناء قاعدة جوّية عملاقة لقوات التدخل السريع الاميركية ، كما يتم بناء قاعدة بحرية على شواطيء « كيرينيا » ومستودعات صواريخ في شبه جزيرة « كارياس »[٣٨] »

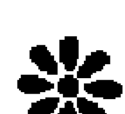
وكذلك وبعد سقوط نظام شاه ايران « نقلت واشنطن من ايران الى قبرص قسماً من محطاتها للتجسس الالكتروني على الاتحاد السوفياتي ، وترابط الان في سيناء ولبنان بالقرب من قبرص ، وحدات الدول الاعضاء في حلف الناتو التي تستخدم القواعد في قبرص[٣٩] »

ومن اجل وضع حد نهائي للتدخلات بشأن القضية القبرصية ، والضغوطات الدولية من اجل اعادة توحيدها ، واستقلالها وضمان عدم انحيازها ، خاصة من قبل الامم المتحدة ، ودول المنظومة الاشتراكية ، ودول عدم الانحياز ، فقد اعلن مجلس النواب التركي ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٨٣ عن إقامة دولة قبرصية تركية مستقلة باسم « الجمهورية التركية لشمال قبرص » وفوجيء العالم بهذه الخطوة التركية

التصعيدية الرامية الى تدمير جهود السلام بشأن الجزيرة ، وتكريس تقسيمها ، إلا ان ما يلقي الضوء على خلفية هذا القرار . » هو انه جاء بعد ساعات فقط من اعلان الولايات المتحدة منح تركيا مساعدات اقتصادية وعسكرية بقيمة مليار دولار[٤٠] » وهذا يعني ان الخطوة التركية انما جاءت تلبية لقرار اميركي مباشر .

وفي الامم المتحدة ، أدان القرار (٥٥٠) الذي صدر في ١١ ايار ١٩٨٤ بشدة كل اجراءات التقسيم والتجزئة ، ووجه الدعوة الى كل دول العالم لعدم الاعتراف بالدولة المزعومة ـ الجمهورية التركية لشمال قبرص .

وعلى الرغم من هذا الموقف العالمي المندد بالاجراءات التركية التي استهدفت سيادة واستقلال قبرص ، وحق تقرير المصير دون تدخل خارجي ، إلا ان الحكومة التركية ، بدعم وتأييد من الادارة الاميركية ، ماضية في تكريس هذه الاجراءات ، كجزء من السياسة الاميركية الشرق اوسطية ، ومنطقة البحر الابيض المتوسط ، معتمدة بذلك على قدرة الولايات المتحدة في الضغط على دول العالم التي تدور في فلك سياستها لتغيير مواقفها بشأن إدانة الموقف التركي ـ وعدم الاعتراف بما يسمى » الجمهورية التركية لشمال قبرص » خاصة بعد ان تتكرس هذه التجزئة وتصبح أمرا واقعا .



الدور التركي .. تجاه الأمة العربية

كان للهزيمة التي منيت بها تركيا بعد الحرب العالمية الاولى أثر كبير في بروز رغبة الاتراك بالانتقام من العرب ، على اعتبار انهم احد اهم الاسباب التي أدت الى هزيمة تركيا ، عندما اعلنوا الثورة والتعاون مع الحلفاء من اجل الانفصال عن الامبراطورية التركية ، والاستقلال عنها غداة اندلاع الحرب العالمية الاولى .

الا ان العرب اصيبوا بالمرارة من جراء خيانة الحلفاء لهم « بريطانيا ، وفرنسا » اللتين اقتسمتا الاراضي العربية فيما بينهما ، ووضعاها تحت انتدابهما . ولعل أخطر ما قامت به حكومتا الانتداب البريطاني ، والفرنسي ضد الدول العربية ، هو قيام الاولى باعطاء وعد بلفور والعمل على زرع الكيان الصهيوني في فلسطين . وقيام الثانية في عام ١٩٣٧ بالاتفاق مع الحكومة التركية على منحها « لواء الاسكندرون » العربي شريطة عدم انضمام تركيا الى دول المحور .

« وقد تم الاتفاق بين كل من تركيا وفرنسا في جنيف (مقرّ عصبة الامم) ، وقد وافقت عصبة الامم على هذا الاتفاق(٤١) وخوفاً من ردة الفعل العربية فقد كانت المعاهدة ، تنص على منح « اللواء » حكما ذاتياً في ظل الحكم التركي .

نتيجة الاتفاق ، وفي ٢ حزيران عمت المظاهرات الصاخبة ، مدينة دمشق وسائر المدن السورية ، وفي « لواء الاسكندرون » نفسه . « تفاقمت النقمة العامة ، فقامت مظاهرات عنيفة أدت الى اشتباكات دامية ذهب فيها العديد من الضحايا ، واصيب الكثيرون بجروح مختلفة ، واعتقل ـ القائد والمناضل القومي المعروف ـ « زكي الارسوزي » وعدد كبير من رفاقه(٤٢) » .

لكنّ ظروف الانتداب على سورية ، وتمزق الامة العربية ، قد مكنّا تركيا بمساعدة فرنسا من فرض سيطرتها على الاراضي «اللواء» بالقوة ، موجهة بذلك أول طعنة انتقام للامة العربية .

« وتشير وثائق الخارجية الفرنسية (في هذا المجال) بوضوح الى ان « لواء الاسكندرون » كان يسكنه حتى عام ١٩٢٥ (١٨٠,٠٠٠) نسمة ٦٥٪ منهم

سوريون ، وبالرغم من ان حكومة اتاتورك لم تكن تنوي الانضمام الى المانيا في الحرب العالمية الثانية ، الا انها هددت بذلك للضغط على فرنسا المنتدبة من أجل التخلي عن لواء اسكندرون ولكي لا تغضب العرب ، عمدت فرنسا بمساعدة عصبة الامم الى اعطاء نوع من الاستقلال الذاتي للواء الاسكندرون ، ورغم حالات الغضب التي عمت أرجاء سورية فان فرنسا عمدت وبالاتفاق سرا مع الاتراك ، وتحت عنوان « حماية الاقليات » الى السماح للاتراك بدخول اللواء بكثافة[٤٣] »

وتمهيداً لمحو هويّة « لواء الاسكندرون » العربية ، ونتيجة لسياسة تكثيف الهجرة التركية اليه ، التي خططت لها الحكومة التركية ، « فقد استطاعت ان تغير المعادلة السكانية » من ٣٨٪ (اتراكاً) في عام ١٩٣٢ الى ٦٣٪ سنة ١٩٣٩ ، تحت سمع وبصر السلطات المنتدبة[٤٤] »

وعلى الرغم من ان اتفاقية « جنيف » بشأن لواء الاسكندرون تنص على الحكم الذاتي ، الا ان الحكومة التركية « أعلنت ضمه في عام ١٩٣٩ بعد اجراء استفتاء مشبوه بين سكانه ، واطاحت بحكومته المحلية ومجلسه التشريعي[٤٥] »

وعلى الفور بدأت الحكومة التركية « بممارسة سياسة القمع والارهاب على السكان العرب ، ومنعتهم من التكلم باللغة العربية ، كما منع دخول اي كتاب او مجلة اوجريدة او أي مطبوعة عربية الى اراضي اللواء تحت طائلة العقوبة[٤٦] » ، « حتى ان اصحاب المحلات من العرب ، على طرق اللواء الرئيسية كانوا يخافون من التحدث بلغتهم الاصلية في الشارع ، بل في البيوت فقط ، اوفي مكان بعيد عن رقابة رجال الامن الاتراك[٤٧] »

لقد رفضت سورية بقوة هذا الضم التامري (التركي ـ الفرنسي) وواجهته بقوّة ، الا ان الظروف الدولية والعربية في ذلك الوقت جعلت منه حتى اليوم قضية عربية دائمة باسم « قضية اللواء السليب » ومن الطبيعي ايضا ان هذه القضية « عربية » بابعادها ، لذا فقد انعكست على مجمل العلاقات العربية ـ التركية .

وفي عام ١٩٥٥ أرادت تركيا ان توجه طعنة جديدة للأمة العربية ، عبر انخراطها في « حلف بغداد » الذي أصبحت تركيا محوره الرئيسي ، بعد طلب حكومة « نوري السعيد » انذاك بالانضمام اليه ، والذي وصفه الرئيس « جمال

عبد الناصر » في ذلك الوقت » بأنه مشروع استعماري يهدف الى اعادة السيطرة البريطانية على الامة العربية(٤٨) ».

ونتيجة لانضمام تركيا الى حلف شمال الاطلسي ، وانخراطها في تنفيذ السياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ، فقد كانت تهدف عبر الاعتماد على الولايات المتحدة الى فرض سلطانها مرة اخرى على الدول العربية ، خاصة سورية ، والعراق ، المجاورتين لحدودها .

وكجزء من الاستنفار الامبريالي ، قامت الحكومة التركية باستنفار جيشها ، ونشر جنودها على طول الحدود السورية عام ١٩٥٧ ، للتدخل المباشر ، أزاء التطورات السياسية ، وسيطرة الاتجاهات الاشتراكية القومية على مختلف جوانب الحياة السورية ، ونفس الشيء فعلته أزاء تطور الاحداث في العراق إثر قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، ومنذ ذلك الحين ، والموقف التركي محكوم بالموقف الاميركي من هاتين الدولتين العربيتين ، بالاضافة الى النزعة التركية الخاصة (الانتقامية) الطامعة في السيطرة على اراضيهما.

فمنذ وصول « حزب البعث العربي الاشتراكي » الى الحكم في سورية عام ١٩٦٣ والسلطة التركية تتخذ موقفاً عدائياً من سورية ، وقد تصاعد هذا الموقف إثر تصاعد الموقف المعادي للسياسة الاميركية الذي تتخذه سورية . وكلما تصلب الموقف السوري في مواجهة المشاريع الامبريالية ، كلما ازداد الموقف التركي في عدائه لسورية ولشعبها العربي . سياسياً وعسكرياً واقتصادياً . حتى وصل الامر الى إيواء عصابات الاخوان المسلمين » الفارين من سورية ، بحيث اصبحت استانبول ، وأنقرة ، وسائر المدن التركية مقراً أساسياً لأوكار هذه العصابات ، بهدف القيام بأعمال التخريب في سورية ، لارغام حكومتها على الانصياع للسياسة الاميركية ، خاصة بعد توقيع « اتفاقيات كامب ديفيد » بالرعاية الاميركية بين النظام المصري والكيان الصهيوني»

● اما على صعيد العراق ، فان الموقف التركي تجاهه ، مرتبط هو الاخر بتطور انسجامه مع السياسة الاميركية .

فمنذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وأجهزة المخابرات التركية بمساعدة أجهزة المخابرات الغربية ، تحاول إثارة نعرة الاقلية » التركمانية » في العراق التي

تتـواجـد في غالبيتها في منطقة كركوك الغنية بالنفط ، » وبفضل الجهود الكبيرة التي بذلتهـا هذه الاجهـزة ، بالاشتـراك مع بعض الاغوات الرجعيين من تركمان العـراق ، وبعض العنـاصـر المهـووسـة التي ما زالت على انغـلاقهـا القومي ، استطـاعت ان تكـوّن جمعيـة عنصـريـة رجعية تطلق على نفسها اسم « جميعة تركمـان كركـوك » وتـرتبط هذه الجمعية ارتباطاً مباشراً بالمخابرات التركية التي تقوم بتقديم تسهيلات لكل تركماني عراقي ينتمي الى الجمعية ـ كمنحة « مثلاً » وجـواز سفـر تركي ، أضـافة الى جواز سفره العراقي ، وكذلك تقديم منح دراسية ورواتب .. الخ[٤٩] » .

وكـذلـك تقـوم الحكـومة التركية بالتدخل بالشؤون العراقية عن طريق الاكراد سواء عن طريـق بعض الاكـراد المتعـاونين معهـا ، من الآغـوات الـرجعيين والعمـلاء ، أوعن طريق ملاحقـة الثـوار الاكراد الذين يشنون هجماتهم الناجحة ضد القـوات التـركيـة ، ويلجؤون الى مناطقهم في العراق ، لتشكل لهم حماية . وقـد قامت القـوات التـركيـة باختراق الاراضي العراقية اكثر من مرة ، وقد قامت القـوات التـركية اكثر من مرة بحملات تفتيش ومداهمة للقرى الحدودية في الآونة الاخيـرة ، وقـد اشتـرك الطيران في بعضها بحجّة مطاردة الثوار الاكراد ، مثلاً ، في شهـر حزيـران عام ١٩٨٣ عبـر الحـدود الى العـراق ٤٠ الف جنـدي تركي لمطاردة الثوار الاكراد .

وكذلك ، وكجزء من السياسة الاميركية في اشعال حرب الخليج ، والابقاء على استمـرار هذه الحـرب ، تلعب تركيـا دوراً في غايـة الاهميـة والخطـورة « فمنـذ اشتعـال الحـرب بين العـراق وايران عام ١٩٨٠ وكلاهما يعتمد على تركيا للتزود بالاسلحة التي يتم تفـريغهـا في الموانيء التركية ، ثم تنقل بعد ذلك بالشاحنات عبـر الطـرق البـرّية الى الطرفين المتحاربين ، وتركيا هي الباب الوحيد امامهما، بعد أن دمرت الحرب مينائي « البصرة والفاو » العراقيين ، ومينائي « خورمشهر وبندر شهبور» الايرانيين[٥٠] » .

● اما فيما يتعلق بالصراع العربي الصهيوني ، فمنذ انضمام تركيا الى حلف شمـال الاطلسي ، وانسجـامـاً مع موقفهـا العدائي للعرب ، فأنها كانت إزاء هذا الصراع تابعة للموقف الاميركي نفسه ، ومنسجمة معه تماماً .

ففي عام ١٩٥٢ وبدفع من الولايات المتحدة الاميركية ـ وبريطانيا ، اعترفت تركيا بالكيان الصهيوني ، الذي أقيم على الارض العربية الفلسطينية باسم « دولة اسرائيل » ، موجّهةبذلك ضربة مؤلمة للأمة العربية ، وللعالم الاسلامي الذي تنتمي اليه .

ومنذ ذلك الحين والموقف التركي ، غالباً ما يكون معادياً للعرب ، ومؤيداً للكيان الصهيوني . وتتمتع الجالية اليهودية في تركيا ـ على خلاف الاقلية العربية . بكامل حقوقها السياسية والدينية والثقافية ، الى جانب توفير الامن لها وبحجّة حمايتها من « التطرف » !! وكذلك فان السفارة الصهيونية في تركيا من اكثر الاماكن حماية ، على الرغم من الدور المكشوف الذي تلعبه هذه السفارة في التخطيط لاعمال الارهاب التي يقوم بها « الموساد » الصهيوني .

« وخلال حربي ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ استخدمت القواعد الاميركية في تركيا (مراكز الرصد والانذار ومراكز التجسس) لجمع المعلومات ، ورصدت تحركات القوات البحرية السورية ، ومراقبة حركة الجيوش العربية خلال حرب تشرين[٥١] » في حين « عارضت تركيا باسم الحياد » استخدام قطار الشرق السريع ، الذي يمر في بعض النقاط من الاراضي التركية لنقل القطعات العراقية من الموصل الى حلب إبان ذات الحرب[٥٢] » .

وإذ تزداد الانتهاكات الصهيونية المستمرة ضد المقدسات الاسلامية في الاراضي المحتلة فان الحكومة التركية (التي تدعي حماية المسلمين) لم تعلن اي موقف تجاه هذه الانتهاكات ، حتى على صعيد الادانة اللفظية أسوة بباقي الاقطار الاسلامية ، وغير الاسلامية وذلك بسبب انسجامها مع الموقف الاميركي .

بالاضافة الى ذلك فقد تطورت العلاقات الاقتصادية التركية ـ الصهيونية تطوراً ملموساً ، وتعتبر تركيا سوقاً رئيسياً للمنتوجات الصناعية الصهيونية ، في مجال بيع المعدات العسكرية . مثلما يعتبر الكيان الصهيوني سوقاً رئيسية للمنتجات الغذائية التركية ـ خاصة اللحوم .

اما على صعيد العلاقات مع مصر ، فان العلاقات التركية ـ المصرية لم تشهد اي تحسن الا في عهد الرئيس « انور السادات » ، وتحديداً ، بعد اتفاقيات

« كامب ديفيد ، وانطلاقاً من الاستراتيجية الاميركية ، فالدولتان تحتلان مركزاً مهماً في منطقة الشرق الاوسط ، والدولتان تنطلقان في سياستهما من الموقف الاميركي ، لذا فمن الطبيعي ان تتطور العلاقات بينهما الى الحد الاقصى ، والدولتان لهما علاقات مع الكيان الصهيوني (وهذا يزيل حرج تركيا) . والدولتان عضوان في منظمة المؤتمر الاسلامي (انضمّت تركيا الى المنظمة ، في ظل الحكومة العسكرية ـ وقد لعبت دوراً مهمّاً في عودة مصر الى المنظمة) .

ففي عام ١٩٨٤ وقعت الدولتان بروتوكولاً للتعاون في مختلف المجالات العسكرية ، والاقتصادية ، والثقافية . « ومن المعروف ان هناك ضباطاً مصريين يتدربون في تركيا[٥٣] » .

« وفي ١٤/٥/١٩٨٥ قام الرئيس المصري « حسني مبارك » بأول زيارة يقوم بها رئيس مصري لتركيا منذ سبعين سنة . وفي حديث مع صحيفة « حريّت » التركية ، قال رئيس النظام المصري : اننا نرغب ان تلعب تركيا دورا اكبر في هذه المنطقة من العالم[٥٤] » اي أن العلاقات قد تصاعدت من التعاون العسكري والاقتصادي ، الى التنسيق السياسي في قضايا المنطقة .

ومن المعروف ان السياسة الاميركية ، تنطلق من اعطاء دور قيادي للنظام المصري في المجال العربي ـ الافريقي ، ودور قيادي لتركيا في المجال الاسلامي . في ظل سيطرة عسكرية اسرائيلية مطلقة .

● أما على صعيد دول الخليج العربي ، فتركيا تلعب أخطر الادوار ، واكثرها تأثيراً في مستقبل هذه الدول ، خاصة ان هذه الدول وتلبية لرغبة الولايات المتحدة الاميركية قد فتحت اسواقها واراضيها للشركات والمؤسسات الاحتكارية التركية ، منذ الانقلاب العسكري الفاشي الذي وصل الى الحكم ، أي ان المثير في هذا الامر هو انه عندما تم انخراط تركيا كلياً في السياسة الاميركية تصاعدت هذه العلاقات الاقتصادية مع الدول العربية النفطية ، وقد هيأت الولايات المتحدة وتركيا لهذه العلاقات ، سواء على صعيد ضغط الولايات المتحدة على هذه الدول ، او على صعيد الاجراءات الداخلية التركية .

« فانتصار حزب « الوطن الام » في الانتخابات العامة وتشكيل الحكومة بزعامة « اوزال » صاحب نظرية « التكامل الاقتصادي بين تركيا وباقي المناطق

المجاورة ، خصوصاً الخليج الغني بالنفط » وتعيين « اوغلو » وزيراً للخارجية وهو المعروف باهتمامه بالاوضاع العربية حيث سبق وان خدم سفيراً لبلاده في عدد من اقطارها(٥٥) » ساهم في توجيه السياسة الاقتصادية التركية نحو البلدان العربية .

أما العامل الآخر الذي لا يقّل أهمية ، فهو انضمام تركيا الى « منظمة المؤتمر الاسلامي » وقيامها بتفجير قضية المسلمين في بلغاريا ، لتقديم نفسها « كحامية للمسلمين ـ السنّة » في مواجهة الثورة الاسلامية الايرانية ـ الشيعة . بهدف إثارة النعرات الطائفية في العالم الاسلامي ، وخاصة في الدول العربية .

وهذان العاملان ليسا بعيدين عن الموقف الاميركي ، بل ان الولايات المتحدة ، هي المخطط لهما ، وهي قوة الدفع لنجاحهما .

وعلى هذه القاعدة تصاعدت العلاقات الاقتصادية التركية ـ العربية النفطية « فبلغت صادرات تركيا الى الدول العربية عام ١٩٨٣ (١,٧ مليار دولار) مقابل (٢,٧ مليار دولار) للواردات(٥٦)» وقد ارتفعت هذه الصادرات في عام ١٩٨٤ الى ٢,٥ مليار دولار(٥٧)

وعلى هذا الصعيد ، استفادت تركيا الى حد كبير من خط الانابيب العراقي الذي يمتد بين كركوك وساحل لواء الاسكندرون على البحر الابيض المتوسط . والذي رفعت طاقته في عام ١٩٨٤ لينقل ٤٦ مليون طن من النفط في السنة ، وقد قال مسؤول رفيع المستوى في وزارة الخارجية التركية : خط الانابيب ليس ملك العراق فحسب ، بل هو ايضاً ملكنا(٥٨) » .

وبالاضافة الى القروض التي تقدمها الدول الخليجية الى تركيا ، « والتي بلغت عام ١٩٨٣ (حسب تقرير بنك الخليج الدولي ـ في البحرين) / ٧٤٨ / مليون دولار(٥٩) » فان تركيا تقوم بدور في غاية الخطورة ، قوامه الوجود البشري في دول الخليج عن طريق الشركات ، « حيث تقوم ٢٥٠ شركة تركية باستخدام ١٥٠ الف عامل تركي في مشاريع تصل قيمتها الى ١٥ مليار دولار(٦٠) » .

وخطورة هذا الوجود البشري ان غالبية هؤلاء العمال هم من عناصر الجيش والمخابرات التركية ، بحيث يقومون بعمل مزدوج : ـ

الاول : التحريض ضد المواقف المعادية للامبريالية ، والدعاية لتركيا ودورها

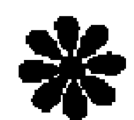
الاسلامي .

الثـاني : من خلال كون هؤلاء ككتلة بشـريـة موحّدة ، تكون جاهزة اذا دعت الضرورة لاستخدامها ـ كقوة عسكرية في اماكن وجودها .

* * *

من خلال ما تقـدم نلاحـظ خطـورة الـدور الـذي تلعبـه تركيا ضمن السياسة الاميـركيـة ضد الامـة العـربيـة على الصعيـدين ، السيـاسي العسكـري ، والاقتصـادي ، فهي الى جانب وقوسها ضد سورية ، وحركة التحرر العربي ، في صراعهـا ضد العـدو الصهيوني ومشاريع التصفية الاميركية ، نجدها تقيم أوثق العلاقات السياسية والاقتصادية مع الانظمة الرجعية في المنطقة والتي تدور في فلك السيـاسـة الاميـركيـة : تحت شعار التعصب الديني ،وتحت شعار المعاداة للشيوعية والاتحاد السوفياتي .

يبـقـى الغـريب في الامـر، هو عدم ادراك الـدول العـربيـة لخطـورة هذا الدور التركي ، ضد الامة العربية ، وحريتها ، وسيادتها . وهي التي تساعده في القيام بهذا الدور .



الحملة الدعائية ضد جمهورية بلغاريا الشعبية

ان « مجابهة الاشتراكية » تعتبر احدى أهم الركائز الاساسية التي تقوم عليها السياسة الخارجية للدول الامبريالية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية . وهذه السياسة في ظل التوازن العسكري بين القوتين (الاشتراكية والرأسمالية) تتخذ طابعاً ذا مسار هجومي أحياناً ، ودفاعي احياناً اخرى .

ففي حين تقوم الولايات المتحدة في محاولة منها لوقف امتداد التأثير الاشتراكي بين شعوب العالم ، باعداد الانقلابات الديكتاتورية ، وتفريخ القوى الفاشية ، وتعميم سياسة معاداة الشيوعية بين دول العالم الثالث ، وتكتيل قوى الرأسمالية في جميع انحاء العالم للتصدّي للاشتراكية على اعتبار انها الخطر الحقيقي الذي يهدد النظام الرأسمالي برمّته . فانها الى جانب ذلك تقوم بشن حملة دعائية واسعة النطاق في مواجهة اعلامية وايديولوجية ، لتضليل الرأي العام العالمي ، حول حياة المجتمعات الاشتراكية ، ونضالات حركات التحرر العالمية .

فالنشاط الدعائي في الولايات المتحدة يخضع اليوم لتوجيه جهاز ضخم واسع . فقد تم انشاء « وكالة الاتصالات الدولية » التي باشرت عملها في نيسان ١٩٧٨ ، وذلك بعد ان اتسع نشاط « وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية » بشكل كبير ، حيث باتت تصدر ٦٥٠ نشرة دورية في ٢٨ لغة ، ولوكالة الاتصالات الدولية ٢٠٠ مكتب في ١٢٦ بلداً ، وتصدر ١٢ مجلة دورية في ٢٢ لغة ، وتنتج ٩٠ فيلماً سينمائياً سنوياً ، وما يقارب ٥ ملايين نسخة من الكتب بـ ٢٥ لغة في بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية[٦١] » .

هذه الماكنة الاعلامية الضخمة الخاضعة لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ، تقوم بعملية تعبئة مزدوجة ، فمن ناحية تشن حملات التضليل ضد دول المنظومة الاشتراكية وحركات التحرر، والقوى المحبة للسلام لافقادها التأثير على الرأي العام العالمي ، ومن ناحية اخرى تقوم بعمليات التعبئة لصالح المواقف والقرارات السياسية الاميركية ، خاصة تلك القرارات ذات الطابع الدولي .

الى جانب ذلك تحاول الولايات المتحدة ، مستخدمة كافة الوسائل والامكانيات خلق قوى يمينية ، او عميلة لها داخل المجتمعات الاشتراكية ، تقوم باعمال التخريب الداخلية ، لمواكبة الحملات التضليلية التي تقوم بها اجهزة الدعاية الامبريالية مستغلة بذلك أية ثغرة طارئة .

فقد حاولت الولايات المتحدة استغلال ما قامت به بعض القوى الانتهازية المتسترة ، في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ لجهة الاعلان عن دعم هذه القوى وتأييدها في كافة المجالات ، وتوظيفها في شن حملة واسعة النطاق تستهدف النظام الاشتراكي برمته .

وبعد فشلها قامت الولايات المتحدة بشن حملة مسعورة حول الطريقة التي عولج فيها وضع هذه القوى الانتهازية . إثر المساعدة السوفياتية لتشيكوسلوفاكيا .

وفي عام ١٩٨٠ وعلى أثر المظاهرات التي قامت بها نقابة « تضامن » في بولندا ، والتي شلت الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمجتمع البولندي ، لم تخف الولايات المتحدة والدول الامبريالية الاخرى دورها في دعم زعيم النقابة « ليش فاليسيا » وقد لعبت « الكنيسة » والحركة الصهيونية دوراً مباشراً في تصعيد توتر الوضع في بولونيا عن طريق وضع امكانياتهما المادية والمعنوية في خدمة نقابة « تضامن » التي وصلت أوج قوتها في عام ١٩٨١ . مما اصبح يشكل خطورة حقيقية على المنجزات التي حققها المجتمع الاشتراكي البولندي الامر الذي دفع الحكومة الى وضع حدّ لهذا التلاعب الخطر بمصير الشعب البولندي ، وحسمت الموقف عن طريق قوة الحكومة نفسها . الامر الذي افقد الدول الامبريالية صوابها ، فلم تكتف بشن حملاتها التضليلية ضد بولندا الاشتراكية ، بل قامت بالتدخل المباشر عن طريق فرض حصار اقتصادي على بولندا تحت لافتات مضلّلة .

وبعد فشلها الذريع في بولندا ، راحت الولايات المتحدة الاميركية تعد الخطط للنيل من سمعة دولة اشتراكية اخرى ، وهي « جمهورية بلغاريا الشعبية » .

ففي ١٣ ايار عام ١٩٨١ جرت محاولة مجرمة لاغتيال البابا « يوحنا بولس الثاني » في ساحة القديس بطرس في مدينة الفاتيكان قام بها الارهابي التركي

المعروف « محمد علي اغجا » الذي ينتمي الى « حزب الحركة القومية » العنصري التركي، وقد أعلنت الحكومة التركية على الفور ، ان هذا الارهابي ، مطلوب لسلطات امنها ، بتهمة اغتيال رئيس تحرير صحيفة « ميليت » التركية الليبرالية المستقلة « أبدي ابتشكي » في شباط ١٩٧٩ . وقد كشفت التحقيقات ان هذا الارهابي ، ينتمي الى جناح « الذئاب الرمادية » القوة الضاربة للحركة القومية الفاشية التركية ، وعلى هذا الاساس حكم على « أغجا » بتاريخ ٢٢ تموز ١٩٨١ من قبل المحكمة الايطالية بالسجن مدى الحياة[٦٢] .

لكن هذه القضية المؤلمة التي اهتزلها الضمير العالمي ، والتي استهدفت حياة « الحبر الرسولي » الاعظم ، قد حولتها وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية ، واجهزة الدعاية الغربية التابعة لها ، بالتعاون مع القضاء الايطالي نفسه ، الى مسرحية هزلية رخيصة .

ففي تشرين الثاني ١٩٨٢ اي بعد عام ونصف تقريباً من اصدار الحكم على محمد علي اغجا في قضية محاولة اغتيال البابا اعتقل المواطن البلغاري « سيرجي انتونوف»، نائب مدير مكتب شركة طيران (البلقان) في روما ، بحجّة اعترافات جديدة أدلى بها « اغجا » حول مشاركة مواطنين بلغار في هذه العملية .

لن نتوقف كثيراً حول تفاصيل هذه المؤامرة الامبريالية التي هدفت الى زجّ اسم بلغاريا في هذه العملية القذرة ، خاصة وان هذه المؤامرة قد فشلت إثر قيام المحكمة الايطالية بتبرئة «انتونوف» بتاريخ ٣٠ اذار ١٩٨٦

ما يهمّنا في هذا المجال هو الدوافع الامبريالية الحقيقية من وراء هذه المؤامرة، وما رافقها من تطورات سياسية ، والتي يمكن تلخيصها بالتطورات التالية : -

١ - فشل المخططات الامبريالية في وقف تطور المجتمع الاشتراكي في بولندا ، بعد الاجراءات الحاسمة التي اتخذتها الحكومة البولندية في مختلف المجالات .

٢ - وصول « رونالد ريغان » الى الادارة الاميركية ، على أساس برنامج « معاداة الشيوعية والاتحاد السوفياتي » وخلق التفوق الاستراتيجي على القوى الاشتراكية .

٣ ـ التأييد العالمي الواسع النطاق للمبادرات السوفياتية ، وانعزال السياسة العدوانية الاميركية على صعيد القوى المؤثرة في الرأي العام العالمي .

٤ ـ تزايد الاتهامات الدولية لسياسة الارهاب الدولي ، الذي تقوم به الولايات المتحدة الاميركية بعد فشل محاولتها لتحرير الرهائن الاميركيين بالقوة في ايران . وتأييدها لسياسة العدوان الصهيونية ضد الامة العربية وضد الاراضي اللبنانية .

٥ ـ رغبة الولايات المتحدة في تحويل دفّة الصراع ، من الدفاع عن سياستها الى الهجوم على سياسة الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية ، بشن حرب « صليبية » تستطيع من خلالها إرغام الدول الاوروبية الانخراط في اهداف هذه السياسة .

لذا وعلى هذه القاعدة ، قامت اجهزة الدعاية الغربية بأوسع حملة تضليل وافتراءات حتى قبل اعتقال « انتونوف » وبعده، ضد بلغاريا والاتحاد السوفياتي ، متهمة اياهما بأنهما يقومان بالتخطيط للاعمال الارهابية في العالم ... ولم تكتف هذه الاجهزة بذلك بل اشركت ، سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية بهذه الاتهامات لنفس الدوافع والاهداف. وعلى الرغم من عدم تمكن القضاء الايطالي من جمع الأدلّة الكافية ضد « انتونوف » إلاّ ان أهداف هذه الحملة الاعلامية التي رافقت عملية الاعتقال قد استنفذت اهدافها السياسية .

وعلى الرغم من تبرئة « انتونوف » في هذه القضية ، غير ان السياسة الاميركية ضد بلغاريا لم تتوقف ، بل اتخذت منحى آخر ، عن طريق شن حملة تضليلية جديدة حول اوضاع المسلمين في بلغاريا ... مستخدمة في ذلك الامكانيات والدوافع التركية للعب هذا الدور .

فكما ذكرنا سابقا ، ان الحكومتين التركية والبلغارية اعلنتا رسمياً بعد انتهاء مفعول اتفاقية « لم شمل الاسر » عام ١٩٧٩ ، ان هذه المشكلة قد سوّيت نهائياً بين البلدين ، وهذا يعني سقوط أي إدعاء قانوني حول اقلية تركية في بلغاريا ، او اقلية بلغارية في تركيا ، واعتراف رسمي من قبل الحكومة التركية بان المسلمين في بلغاريا انما هم مواطنون بلغار .

لكن .. ومع مجيء الحكم العسكري الفاشي ، بزعامة « الجنرال كنعان

ايفـريـن» وانخـراط تركيـا الكامل في السياسة الاميركية ، وانسجاماً مع الدور الاقليمي المـرسـوم لهـا ، قامت تركيا باطلاق شرارة حملة تضليلية جديدة ضد بلغـاريـا باسم « الـدفـاع عن حقـوق المسلمين في بلغاريا » وعلى الفور جنّدت الصحف والمجـلات ووسـائـل الاعلام الغربية الاخرى جهودها وامكانياتها لهذه الحملة المحمومة .

واذا كانت هذه الحملة الجديدة لم تجـد آذاناً صاغية لدى المسلمين البلغار انفسهم ، واعلانهم تمسكهم بحياتهم الاشتراكية ، فان اهداف الحملة السياسية كانت أبعـد من حقـوق المسلمين البلغـار انفسهم ، خاصـة وان تركيـا العلمانية « حسب الـدستـور » كانت قد ضربت الاتجـاهـات الـدينيـة ، وحـرمت الدعاية الدينية ، في المدارس والمراكز الثقافية ، ومنعت الاذان وخطب الجمعة والاعياد في الجـوامـع عبـر مكبـرات الصوت منذ قيام « مصطفى كمال اتاتورك » بثورته العلمـانيـة في تركيا . ومن المعروف ان الحكم العسكري إثر انقلاب ١٩٨٠ ، قد اعلن عن تمسكـه بالمبـادىء الكمـاليـة العلمـانيـة ، وهـذا ما نص عليه دستور الجنرالات الجديدة .

إذن فالاهـداف السيـاسيـة لهـذه الحملة ، لم تكن بأي حال هي الـدفاع عن قضيـة دينيـة ، لانها تفتقر الى المبررات القانونية والمعنوية ، بالاضافة الى ان الحكم التركي الذي يمارس ابشع أنواع القمع ضد المسلمين الاكراد ، والعرب ، وحتى الاتـراك انفسهم داخـل الاراضي التـركيـة ، والذي يقوم بتأييد السياسة الاسـرائيليـة ضد الامـة العـربيـة ، والمقـدسات الاسلامية ، غير مؤهل لأدعاء الـدفـاع عن مثـل هذه القضية « المزعومة » . بل يأتي في سياق تنفيذ السياسة الاميركية في المنطقة ، التي يمكن تلخيصها في هذا المجال بالاهداف التالية : ـ

١ ـ استمـرار حملة التضليـل ضد بلغـاريـا ونظـامهـا الاشتراكي ، وتشويه سمعتها الدولية في الاوساط الدينية الاسلامية .

٢ ـ محاولة استيعاب بعض العملاء ، للقيام بأعمال التخريب داخل بلغاريا ، وتصوير هذه الاعمال ، بأنها ردود فعل دينية ضد النظام الاشتراكي البلغاري .

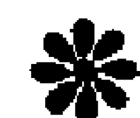
٣ ـ اعطـاء « هيبـة » للحكم التـركي على صعيـد العالم الاسلامي ، والدول

العـربيـة ، من خلال الادعاء بالدفاع عن قضايا المسلمين ، تمهيدا لدفع تركيا ، للعب دور « حاميــة » المسلمين ، خاصــة بعــد دخــولهــا في منظمــة المؤتمر الاســلاميــة . وعلى أثر قيام الجمهورية الاسلامية الايرانية بدور معادٍ للسياسة الاميركية في هذا المجال .

٤ ـ خلق المبــررات المستقبليــة لامكــانيــة قيام تركيا بالتدخل المباشر ، في اماكن اخرى من العالم الاسلامي والعربي ، بحجّة الدفاع عن المسلمين .

لقد رفضت الحكومة البلغارية إدعاءات الحكومة التركية ، وتدخلها السافر في الشــؤون الـداخليـة البلغــاريــة ، اما رد المسلمين البلغار فقد كان حاسما ، من خلال حملة البيــانات والندوات التي عقدت في عموم بلغاريا لكشف اهداف حملة التضليل التركية الاميركية التي استخدمت انتماءهم الديني سلاحا لها .

وعلى الـرغم من الامكــانيــات الضــخمة التي جنّدتها الاجهزة الامبريالية ، إلاّ انها فشلت تماما . فمثلما لم تستطع جمع الأدلّة لاستمرار إتهام « انتونوف » في محــاولة غتيال البابا ـ فان الحقيقة ، والوقائع ، حول الحياة الداخلية للمسلمين البلغــار قد افشلت هذه الحملة واهــدافهــا السياسية ، التي اصطدمت بالاضافة الى ذلــك ، بواقــع السيــاســة الاميركية المعادية اساسا للأمة العربية والعالم الاســلامي ، وبطبيعــة النظام التركي ، العنصريــة الفاشية ، المعادية للشعوب غيــر التــركيــة ، بمــا فيهــا الشعــوب المسلمــة . وخــروجــه عن تطبيق المباديء الاسلامية الحقيقية داحل المجتمع التركي نفسه .



التأثير على التوجّهات التقدمية في اليونان

ان موقــع اليونــان في السياسة الاميركية الخارجية لا يقل أهمّية عن الموقع التــركي ، انطــلاقاً من نفس الدوافع الاستراتيجية والاقليمية . بل كان يفوقه قبل وقوع الازمة القبرصية ، وانسحاب اليونان من منظمة « حلف شمال الاطلسي » .

ففي ١٥ تمــوز ١٩٧٤ وبتـدبيـرمن المخــابـرات المـركـزية الاميركية ، وقع الانقــلاب العسكــري في قبـرص ضد الرئيس « مكاريوس » ، بدعم من الحكم العسكري الفاشي اليوناني ، أعقبه هجوم تركي سافر على الجزيرة ، الأمر الذي أدى الى اشتبـاكات دامية ، ونتيجة لهذه العملية المزدوجة ، اليونانية والتركية ، التي لم تكن السياسة الاميركية بعيدة عنها ، فقد اصبحت قبرص عملياً مقسّمة الى قسمين .

وقـد اثـارت هذه النتيجـة المـؤلمة ، الجماهير اليونانية ضد الحكم الفاشي ، وتحت ضربــات النــزعـة الـديمقـراطية الجماهيرية ، انهار هذا الحكم ، وسادت البـلاد اليـونـانيـة موجـة عارمـة من السخط ضد السياسة الاميركية ، أدى في النهاية الى اضطرار الحكومة اليونانية الى الانسحاب من منظمة حلف شمال الاطلسي .

لقد اصيبت الادارة الاميركية ، والدول الامبريالية الاخرى ، في حلف شمال الاطلسي بصـــدمـــة كبيـرة إزاء هذا الموقف اليوناني ، وظلت تراهن على امكانية تبلور موقف يونــاني جديـد مؤيـد للسياسة الاميركية ، من خلال امكانية احزاب اليمين والعسكـر في السيطـرة على الوضع من جديد . غير ان التطورات اللاحقة قد خيبت آمال الادارة الاميركية .

ففي عام ١٩٨١ وفي ظل الاصرار على عدم العودة الى حلف شمال الاطلسي تمكن « الحــزب الاشتـراكي اليـونــاني » من الـوصول الى السلطة ، على قاعدة برنامج انتخابي معادٍ للسياسة الاميركية ، واستمرار قواعدها في اليونان .

ومنــذ وصــول « الحــزب الاشتراكي اليوناني » بقيادة « اندرياس باباندريو » الى السلطـة بدات اليونان تتخذ سياسة منفصلة تماماً عن السياسة الاميركية ،

بل وغـالبـا ما تكـون متعـارضـة معهـا ، ويمكننـا الاشـارة في هذا المجال الى الاتجاهات الرئيسية التالية في السياسة الخارجية اليونانية : ـ

١ ـ الاصـرار اليـونـاني أمـام كل الضغوطات الاميركية والاطلسية على عدم العـودة الى « منظمة حلف شمال الاطلسي » حتى عام ١٩٨٠ . وفي عام ١٩٨١ مع وصول باباندريو الى السلطة بدا الحديث عن الغاء القواعد الاميركية في اليونان .

٢ ـ « رفض اليـونـان لنشـر صواريـخ « بيرشنغ ـ ٢ ـ » و « كروز » النووية متـوسطـة المـدى على الاراضي اليـونـانيـة ، اضافة الى موقف رئيس الوزراء اليوناني في مؤتمر قمة السوق الاوروبية المشتركة الذي عقد في دبلن ، وتهديده بسدّ الطـريق أمـام مشـروع انضمـام كل من اسبانيا والبرتغال في حالة رفض اعضـاء السـوق تلبيـة طلبه الخاص بالحصول على ٧و٢ مليار دولار من صندوق المساعدات ، مما أثار حفيظة واشنطن ، ودول حلف الاطلسي ضد الحكومة اليونانية[٦٣] » .

٣ ـ اتخـذت اليـونـان الاشتـراكيـة مواقف مؤيـدة للقضايا العربية بعامة ، والقضيـة الفلسطينية بخاصة ، ورفضت إعادة علاقاتها مع الكيان الصهيوني ، على الـرغم من كل الضغـوطـات الغربية ، وظل هذا الموقف في تصاعده متحدّية الحملة الاميركية ضد ما اسمته « بالارهاب الفلسطيني » .

« ففي كلمتـه امام البرلمان اليوناني بتاريخ ١٩٨٦/٥/٣٠ قال « باباندريو » في اشـارة الى النضـال الفلسطيني : إن العنف الـذي يرتبط بالنضال الوطني او النضـال من اجـل التحرر ليس ارهابا » وفي نفس الكلمة هاجم الولايات المتحدة على محاولة فرض قانونها ومفهومها للارهاب على الدول الاخرى[٦٤] » .

٤ ـ اتخـذت اليـونـان سيـاسـة اكثـر تقـاربا مع الاتحاد السوفياتي ، ودول المنظـومـة الاشتـراكية . « ففي ١١ ـ شباط ١٩٨٣ قام « باباندريو » بزيارة الى الاتحاد السوفياتي ردّا على الزيارة التي كان قد قام بها رئيس الوزراء السوفياتي «نيكـولاي تيخـونوف» الى اليونان عام ١٩٨٣ ، وقع خلالها الطرفان عددا من وثائق التعاون[٦٥] » .

وفي نفس العام ، اتفقت اليونان مع دول البلقان (باستثناء تركيا) على جعل هذه المنطقة خالية من السلاح النووي . وتأكيداً لهذه السياسة « وقعت اليونان وبلغاريا بتاريخ ١١ ايلول ١٩٨٦ » إعلان صداقة « بين الدولتين اتفقتا خلاله أن أياً من الدولتين لن تبدأ او تشجع أية أعمال موجهة ضد الاخرى[٦٦] » .

٥ ـ تزايد أعمال العنف ، ضد القواعد ، والمقرات والرعايا الاميركية فوق الاراضي اليونانية ، بالاضافة الى المظاهرات المعادية للسياسة الاميركية ، فعلى سبيل المثال : « عشية وصول » جورج شولتز « الى اليونان لبحث مستقبل القواعد الاميركية ، قام ٢٠ ألف متظاهر في أثينا ، مطالبين بازالة القواعد الاميركية ، ومنددين بالعدوان الاميركي على ليبيا[٦٧] » .

ومن المعروف ان الحكومة اليونانية كانت قد أعلنت بتاريخ ١٨ / ١ / ٨٥ عن الغاء ٦٠ اتفاقاً ثنائياً مع الولايات المتحدة يتعلق أغلبها بالقواعد العسكرية الموجودة على الاراضي اليونانية والتسهيلات العسكرية الاخرى .

هذه الاتجاهات في السياسة الخارجية اليونانية ، قد اثارت حفيظة وتخوف الادارة الاميركية ، التي تعتبر مثل هذه السياسة ليست فقط غير منسجمة مع سياستها ، بل هي معادية لها . الامر الذي زاد من أهمية الدور التركي في محاولة التأثير عن طريق التهديد بالقوة التركية ضد السياسة اليونانية .

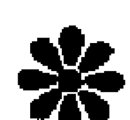
الا ان قيام الولايات المتحدة بدعم تركيا ضد اليونان ، قد زاد من تصلب الاخيرة ، وقد بدأ هذا الموقف في التجسيد « عندما أعلنت وزارة الدفاع اليونانية ، في كانون الاول عام ١٩٨٤ عن عزمها رسم خطة لاعادة ترتيب انتشار قواتها المسلحة الدفاعية على اساس ان الخطر لا يأتي من الحدود الشمالية (بلغاريا) ، بل من الحدود الشرقية (تركيا)[٦٨] » الامر الذي ادى الى نشوب خلاف قوي بين تركيا واليونان حول جزر بحر ايجة . حيث قامت الولايات المتحدة بتأييد تركيا في موقفها حيال هذه الجزر ، خاصة بعد ان « اعلن » « باباندريو » بتاريخ ١٤/٥/ ١٩٨٤ رفض حكومته لقرار حلف الناتو بشأن نصب صواريخ « هاربون » الاميركية في القواعد البحرية التركية ، باعتبار انه سيؤدي الى الاخلال بميزان القوى في منطقة بحر ايجة[٦٩] » .

من هنا ، وبعد أن اعلنت الحكومة اليونانية عن عدم رغبتها في الموافقة على

تجـديـد معـاهدة انتشار القواعد الاميركية فوق الاراضي اليونانية ، التي ينتهي مفعولها عام ١٩٨٨ . فان الولايات المتحدة ، تهيأ تركيا لدور إقليمي أكثر اتساعاً وتطـورا ، بحيث يشمـل مواجهـة تطورات السياسة اليونانية . عن طريق التلويح بالقـوة العسكـريـة التركية على الحدود اليونانية ، وخاصة فيما يتعلق بموضوع جزر بحر ايجة .

وانطـلاقـا من هذا المـوقف العـدائي لليونان الاشتراكية ، « فقد اعلن رئيس الـوزراء التـركي « توكـورت اوزال » بتـاريخ ٢٩/١/١٩٨٥ : ان مجلس الامن التـركي الاعلى برئـاسـة الـرئيس « كنعـان ايفرين » قد وضع خطة استراتيجية جديدة ، رادعة وفعالة ، عسكرية وسياسية تجاه اليونان[٧٠] » .

وهكذا تتضح ابعاد المخططات الامبريالية الاميركية ضد اليونان ، عن طريق الأداة التـركيـة الطيعـة في يدها ، فالى جانب استعداد تركيا لاستقبال القواعد الاميركية الموجودة في اليونان (في حال فشل الضغوطات الاميركية لتجديد مدتهـا)* ، فان الحكـومـة التركية مستعدة للتدخل العسكري ، بغض النظر عن نتائجه المدمّرة على مصالح الشعبين التركي واليوناني ، تنفيذا للسياسة الاميركية .



التيارات الاسلامية التركية :
بين الاصولية ... والتوظيف الدعائي .

رأينا في الفصول السابقة : ان للاسلام ثقلاً كبيراً في المجتمع التركي ، الامر الذي أعاق ، بل وقف في وجه محاولات الحكومات المتعاقبة ، بعد « اتاتورك » لتحديث تركيا ، وجعلها اجتماعياً جزءاً من المجتمعات الغربية .

واليوم « تتجمع العلامات التي تشير الى انبعاث الاصولية الدينية في تركيا ، فيما تتجمع علامات اخرى مؤداها ان الحكومة راغبة بالتمسك بالعلمانية التي أوجدها « كمال اتاتورك » قبل ستين سنة (٠٠٠) فالمعروف ان الاغلبية الساحقة للسكان الاتراك الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً هي اغلبية مسلمة ، بيد ان الدولة تدعو للحريات الدينية ، فيما ينزل القانون عقاباً صارماً بدعوات التطرف الديني ، او هذا ما كانت عليه الحال تقليدياً[٧١]»

لكن الملاحظ في الاونة الاخيرة ، ان السلطة التركية في حين اخذت تغض الطرف عن بعض الجماعات والتيارات الاسلامية ، راحت تواجه بشدة بعض التيارات والدعوات الاسلامية الاخرى . الامر الذي يدعونا للتوقف امام هذه الظاهرة ، لالقاء الضوء على مفاهيم واهداف التيارات الاسلامية المتعددة في تركيا ، لنصل الى دوافع موقف السلطة التركية منها . « خاصة انه في ظل الحكم العسكري بدات تركيا لاول مرة تمارس دورها كاملاً ضمن اطار منظمة المؤتمر الاسلامي ، الى حد وصلت معه (حسب تعبير بولند أجاويد ـ زعيم حزب الشعب الجمهوري) لان تتبنى قرارات شديدة التعارض مع افكار العلمنة[٧٢] »

اما فيما يتعلق بالتيارات الاسلامية نفسها ، فيمكن تقسيمها من حيث توجهاتها الدينية والسياسية الى ثلاثة تيارات رئيسية : ـ

١ ـ التيار الديني القومي : ويدعو الى التشدد الديني على أساس قومي ، (حسب السياسة العثمانية) أي ان تركيا المسلمة من خلال موقعها التاريخي ، وقوتها العسكرية ، واستعادة الارث الديني الذي فقدته ، يمكنها ان تلعب دوراً قيادياً في المنطقة ، لذا فهي ترى ان سياسة تركيا يجب ان تتجه نحو العالم

الاسلامي والعربي ، وترى ضرورة الابتعاد عن سياسة الغرب ، في نفس الوقت الذي يجب ان تواجه فيه الشيوعية والاشتراكية .

أي أن هذا التيار ، ينطلق من تمايز العنصر التركي ، وان مجال هذا التمايز يجب ان يكون ضمن العالم الاسلامي ، وليس خارجه .

٢ ـ التيار الديني الاصولي: ويدعو الى التشدد الديني على اساس الشريعة الاسلامية ، ويرى في تركيا جزءاً من العالم الاسلامي ، الذي يجب ان يسود فيه التسامح الديني ، والاخاء القومي ... ويدعو الى الاستفادة من اخطاء الممارسات التركية السابقة للمفاهيم الاسلامية ، والعودة الى جوهر التعاليم الاسلامية الصحيحة . وكذلك يطالب هذا التيار باستعمال اللغة العربية ، كلغة رسمية في تركيا (لأن القرآن قد انزل فيها على النبي) ، وبغض النظر عن موقف هذا التيار المتشدد ضد الشيوعية ، الا انه يطالب بالمقابل بقطع علاقات تركيا مع الغرب ، الذي لا يقل خطورة عن الشيوعية ازاء تركيا . في حين يطالب الحكومة بتأييد القضايا العربية والاسلامية . ضد الصهيونية ومن يقف وراءها ، ويطالب بقطع العلاقات مع «اسرائيل».

٣ ـ التيار الاسلامي الموجه : وهو التيار الذي يتسلح بالشعارات الدينية الاسلامية (ظاهرياً) لتحقيق اهداف سياسية محددة (جوهرياً) تصب بغالبيتها في تحقيق الارتباط الاوثق مع السياسة الامبريالية الاميركية . ويقود هذا التيار ، حزب الحركة القومية ، وارباب الاحتكار المالي التركي .

مثلاً تحت شعار معاداة الشيوعية و (اطماع) الاتحاد السوفياتي ، تجري الدعوة للارتباط بالولايات المتحدة الاميركية ، وحلف شمال الاطلسي بهدف تأمين الحماية لتركيا .. وتحت شعار حماية الملسمين في قبرص ، تجري التعبئة ضد اليونان ... الخ .

ازاء هذا التباين في المواقف والمفاهيم ، السياسية والدينية يمكننا فهم موقف الحكومة التركية من هذه التيارات الاسلامية .. ففي الوقت الذي تقف فيه ضد التيار الاسلامي الاصولي ، فانها تقف الى جانب التيار الموجه ، وتحاول حسب المواقف المختلفة استمالة التيار الديني القومي .

وتحاول السلطات التركية (المتعاقبة) دائماً الاستفادة من النزعات الدينية

هذه ، وتـوظيفهـا في مواجهـة الشيوعية واليسار داخل تركيا ، والمشاركة ضمن سيـاسة معاداة السوفيات على الصعيد الخارجي .. خاصة وان التيارات الثلاث تلتقي حول هذا المـوضـوع ، ومن الملفت للنظـر أيضاً ، ان حركة هذه التيارات الدينية ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع حركة الجيش نفسه .

فمن المعـروف ان الجيش الـذي أسسـه « اتاتورك » هو دائماً حامي العلمنة ورائـدها في تركيا . وجميع انقلابات الجيش كانت دائماً تقوم على اساس حماية هذه العلمنة ، فالجيش يقوم بضرب التيارات الدينية في نفس الوقت الذي يتم فيه ضرب القـوى اليسـاريـة والتقـدمية :.. فيمنع الآذان في الجوامع ، ويمنع نقل خطبـة الجمعـة والاحتفالات الدينية عبر مكبرات الصوت ، ويمنع التعليم الديني في المـدارس ... الـخ . الا ان الحكـومـات التـركية فيما بعد ، كانت تضطر الى التنازل امام ضغط وثقل هذه التيارات للتغاضي عن بعض نشاطاتها .

امـا ما يلفت النظـر الان اكثـر من أي وقت مضى ، فهو موقف الحكومة التركية الحـاليـة (شبـه المـدينـة ، شبه العسكرية) أزاء الانبعاث الديني الجديد في تركيا . بحيث يبدو انه محاولة منها في توظيف هذا الانبعاث لخلق رأي عام قوي ومـوحد على الصعيد الداخلي لتحقيق اهدافها السياسية داخل تركيا وخارجها ، والتي يمكن اجمالها بالتالي : ـ

١ ـ خلق طرف قوي ، ومؤثر على الصعيد الجماهيري (الى جانب الجيش) لمكـافحـة الشيـوعيـة ، والقـوى اليسـارية والتقدمية التركية والكردية والعربية والارمنية داخل تركيا .

٢ ـ تعبئـة غالبيـة أبنـاء الشعب التـركي ضد الاتحـاد السـوفيـاتي ، ودول المنظـومـة الاشتـراكيـة، لخلق المبـررات للتـوجـه نحو الغرب . واقامة مزيد من القواعد العسكرية الاميركية فوق الاراضي التركية .

٣ ـ محـاولـة السيطـرة على النـزعـة الـدينيـة « الاسلامية » المتأصلة في المجتمـع التـركي لمنـع تكـرار «الحدث الايراني » . وهذا ما يفسّر قيام الدولة بضـرب بعض الجمـاعات بقوة (الأصولية) في حين سمحت للجماعات الاخرى بممارسة نشاطها . العلني ، وشبه العلني .

٤ ـ خلق رأي عام داخلي ، يتيـح للحكـومـة التـركيـة القيـام بحملة تعبئـة

وادعاءات مزيفة بصدد المسلمين في بلغاريا ، ويوظف قوى الانبعاث الديني داخليا وخارجياً في هذا المجال، والتغطية على الاهداف السياسية التي ترمي الحكومة لتحقيقها من وراء هذه الحملة .

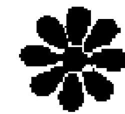
٥ ـ خلق وسائل الاتصال الديني ،مع العالم العربي والاسلامي (خاصه بعد دخول تركيا منظمة المؤتمر الاسلامي) وادامتها ، حتى تتمكن من القيام بدورها السياسي المرسوم من قبل الادارة الاميركية في هذه المنطقة ، هذا الدور الذي يبدأ بتمييع المواقف الاسلامية المعارضة للسياسة الاميركية ، وينتهي في احضان ذات السياسة من خلال تصعيد الحملة المعادية للشيوعية والسوفيات

وحسب القاعدة الميكافيللية المشهورة (الغاية تبرر الوسيلة) فان تركيا العلمانية بقيادة جيشها (حامي العلمانية وراندها) ، قد وجدت نفسها .. مضطرة للاستنجاد بالنزعات الدينية ، بهدف تمرير سياستها ، كشرطي متقدم للسياسة الاميركية في المنطقة .

لكن خوف الحكومة التركية ، وكذلك الادارة الاميركية (ولهذا الخوف ما يبرره) يكمن في انقلاب هذا الانبعاث من قبضة السيطرة الرسمية وتوجيهها . فتنقلب قاعدة « ميكافيللي » على الميكافيللية نفسها . ويضطر الجيش للتدخل بقوّة وعنف ضد التيارات الاسلامية ، الامر الذي يفقد الجيش كافة مبررات انقلابه الفاشي ، ويسقط شعاراته السياسية ، الداخلية ، والخارجية . وسيجد نفسه وجهاً لوجه امام معارضة التيارات الاسلامية المتعددة . وامام معارضة القوى الديمقراطية والتقدمية ... وفي نفس الوقت سيجد نفسه عاجزا عن منع الاحزاب الرئيسية (حزب الشعب الجمهوري ـ وحزب العدالة) من العودة الى الحياة السياسية التركية ، بزخم شعبي اكبر .

وهذا الامر يمكننا تلمّسه بوضوح ، في التصريح الذي ادلى به « بولندا جاويد » في الاونة الاخيرة وفحواه : ـ

« ... إن العسكر هم الذين يتحملون مسؤولية الهجمة الحالية على العلمانية ، وهي التي بدأت بالظهور منذ وصولهم الى الحكم في العام ١٩٨٠(٧٣) » .



هوامش

(١) تارنـو فسكي قسطنطين : تاريـخ الاتحاد السوفياتي في الصور ـ اصدار وكالة « نوفوستي » ١٩٨٣ ص ١١٦ ـ ١٢٠

(٢) بيـرغمان هانس : قوات التدخل الامبريالية (دراسة وثائق عام ١٩١٨) مجلة « فراية فيليت » الالمانية الديمقراطية ـ القسم الثاني .

نقلاً عن : محلا محمد : قوات التدخل الاميركية من روزفلت الى ريغان ـ اصدار مطابع الجاحظ دمشق ١٩٨٣ ص ٥٩ .

(٣) غبيب شارل زور : مصدر سابق ص ٤

ملاحظة : هذه الدراسة (المترجمة) هي تقرير شامل قدمه « شارل زور غبيب » بتـاريـخ ١٥ ـ ١٦ ايـار ١٩٧٦ ، الى ملتقى ازميـر الـدولي حول (الامن في البحـر الابيض المتوسط الشرقي) . وتم توسيعه في سنة ١٩٧٨ في اطار برنامج الابحاث . الـذي مولتـه دائـرة الاعـلام في الحلف الاطلسي ـ ملاحظـة : مكتب الدراسات في حركة فتح

(٤) Encyclopedeia Britannica - Wiliam Benton: London, 1964 Vol 15, P 210

نقلاً عن : تادروس نهى : التواجد العسكري الاميركي في منطقة البحر الابيض المتوسط (دراسة) ـ مجلة « شؤون فلسطينية » العدد ١٠٦ ايلول ١٩٨٠ ص ٦٢

(٥) المصدر نفسه : ص ٦٢

(٦) غبيب شارل زور : مصدر سابق ص ١٨

(٧) المصدر نفسه : ص ٤

(٨) محلا محمد : مصدر سابق ص ٦٣

(٩) محلا محمد : مصدر سابق

نقلاً عن : بيرغمان هانس ـ مصدر سابق (القسم الثاني)

(١٠) المهتم بهذا الموضوع يمكن مراجعة :

محلا محمد : مصدر سابق من الصفحة ٢٧٧ لغاية ٣٢٨

(١١) بونداريفسكي : مصدر سابق ص ٢١٨

(١٢) المصدر نفسه : ص ٢١٧ ـ ٢١٨

(١٣) جواد فاضل : (دراسة) في مجلة « الكفاح العربي » - تاريخ ١٩٨٥/٤/٢٢

(١٤) يساري تركي: اوراق خاصة.

(١٥) المصدر نفسه

(١٦) مجلة « افكار » تاريخ ١٩٨٤/٦/١١ م

(١٧) ● الايوبي المقدم هيثم : وضع تركيا في مخطط الامن الغربي (دراسة) في الاسبوع العربي - العدد ١٠٩٤ تاريخ ١٩٨٠/٩/٢٩ .

(١٨) الايوبي المقدم هيثم : مصدر سابق .

(١٩) جريدة « النهار» اللبنانية : اتفاق التعاون الدفاعي بين تركيا والولايات المتحدة انهى مرحلة العلاقات الصعبة - تاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٨٠ .

(٢٠) محلا محمد : مصدر سابق ص ٢٨٢ .

(٢١) جريدة الشرق الاوسط (السعودية) : العدد ١٨٢٢ تاريخ ١٩٨٣/١١/٢٤ .

(٢٢) جريدة « تشرين » (السورية) : العدد ٢٧٢٧ تاريخ ٨٣/١١/٢٢

(٢٣) بونداريفسكي : مصدر سابق ص ٣٩

(٢٤) غبيب شارل روز : مصدر سابق ص ٤٧

(٢٥) المصدر نفسه : ص ٤٧

(٢٦) بونداريفسكي : مصدر سابق ص ٣٩

(٢٧) غبيب شارل روز مصدر سابق ص ٤٨ - ٥٠

(٢٨) المصدر نفسه ص ٤٩

(٢٩) صحيفة صوت الرافدين (العراقية) : العدد ٦١

(٣٠) جريدة « البعث » السورية : العدد ٢٩٩٢ تاريخ ١٩٨٦/٢/١٧

(٣١) انظر بهذا الشان :

● غبيب شارل روز : مصدر سابق ص ٤٩

● رعد انعلم : (دراسة) في جريدة تشرين السورية - العدد ٣٦٢٤٢ تاريخ ٨٦/٧/١٣

(٣٢) مفتاح احمد : معبد افروديت المقدس وسكين الجزار التركي (دراسة) جريدة ١٤ اكتوبر اليمنية الديمقراطية ، العدد ٦٨٢١ تاريخ يوليو ١٩٨٦

(٣٣) جريدة السفير اللبنانية : بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٣٠

(٣٤) البخاري محمد : مجلة صوت الرافدين العراقية ـ العدد ٦١

(٣٥) بابـاتـروس جورج : هل تستطيـع الفـاشيـة التجلي باشكـالها المعروفة ؟ (دراسة) مجلة النهج ـ العدد ٩ تاريخ آب ١٩٨٥ م ص ٢٦٠

ملاحظـة : جورج بابتـروس هو العضـو المـرشـح للجنـة المـركـزيـة للحزب الشيوعي اليوناني .

(٣٦) البخاري محمد : مصدر سابق .

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) اوليمبـوس ميشـال (عضو اللجنة المركزية للحزب التقدمي للشعب العامل في قبـرص : النضـال ضد التسلح النـووي (دراسـة) مجلة النهج العدد ٩/ آب ١٩٨٥ ص ٢٦٣

(٣٩) نشرة وكالة انباء « نوفوستي » ـ العدد ٤٨٦٩ تاريخ ٢/١٢/١٩٨٣

(٤٠) جريدة تشرين السورية : العدد ٢٧٤٨ تاريخ ١٣/١٢/١٩٨٣

* الوضع الجغرافي القبرصي الآن كما يلي :

١ ـ تبلغ مساحة قبرص الاجمالية ٩٣٠٠ كليو متر مربع
يقيم الاتراك جمهوريتهم المزعومة على مساحة ٤٠٪ منها في الجزء الشمالي

٢ ـ يضم القسم التركي ١٥٠ الف نسمة ـ مقابل ٥٥٠ الف من اصل يوناني .

٣ ـ يبلغ عدد المهجرين من القبارصة اليونانيين من القسم التركي ١٠٠ الف مهجّر

٤ ـ تقع قبرص على مسافة ٧٠ كم من الجنوب التركي ، و٦٤ كم من غربي سوريا و ٣٦٨ كم من الشمال المصري .

٥ ـ اسم قبـرص مشتق من الكلمـة اليونانية « كيبروس » وتعني النحاس حيث كان موجوداً في الجزيرة منذ القدم .

(٤١) بابيـل نصـوح : سوريا في القرن العشرين (دراسة) ـ الحلقة ١٩ ـ جريدة الشرق الاوسط ـ تاريخ ١٠/٧/١٩٨٥

(٤٢) المصدر نفسه .

(٤٣) مجلة المستقبل : ٥٠ سنة على سلخ لواء الاسكندرون ـ تاريخ ٢٣/٨/١٩٨٦ .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) مجلة النهار العربي والدولي : تركيا والعرب ـ مد وجزر (دراسة) العدد ٢٥٧ تاريخ ١٩٨٢/٤/٥ م

(٤٦) المصدر نفسه

(٤٧) مجلة الموقف العربي : الاقتصاد التركي يستبدل القبعة بالكوفية (دراسة) ـ تاريخ ١٠/١/٩/١٩٨٤

(٤٨) المصدر نفسه

(٤٩) الخالدي وسام : التركمانية لا تعني الطورانية (دراسة) صحيفة صوت الرافدين العراقية ـ العدد ٢٦ تاريخ ١٩٨٤/٤/٣٠

(٥٠) جريدة الشرق الاوسط السعودية : ما هي النوايا الاميركية والسوفياتية نحو تركيا . وكيف يفكر الحكام العسكريون في انقرة ؟ (دراسة) العدد ١٦٠١ تاريخ ١٩٨٣/٤/١٧

(٥١) الايوبي الهيثم : مصدر سابق

(٥٢) المصدر نفسه

(٥٣) صحيفة صوت الرافدين . العدد ٧٨ تاريخ ١٩٨٥/٥/٢٠

(٥٤) المصدر نفسه

(٥٥) مجلة الشراع : تركيا الحكومة المدينة والدبلوماسية العربية ـ تاريخ ٨٣/١٢/٢٦

(٥٦) مجلة افكار تاريخ ١٩٨٤/٦/١١ م

(٥٧) مجلة الموقف العربي مصدر سابق

(٥٨) المصدر نفسه

(٥٩) مجلة افكار مصدر سابق

(٦٠) مجلة الموقف العربي مصدر سابق

(٦١) شعبان عبد الحسين الصراع الايدولوجي في العقلات الدولية وتاثيره على العالم العربي . اصدار دار الحوار ـ دمشق ١٩٨٥ ص ٤٦

(٦٢) لمزيد من التفاصيل انظر بهذا الشأن

كتاب المؤامرة ـ الاوراق السرية لمحاولة اغتيال الببا ـ اصدار دار صبرا للدراسات والنشر دمشق ١٩٨٤ الصفحات من ٩٠ ـ ١٠٦

(٦٣) السماوي هاشم الفعل ورد الفعل على طريقة باباندريو (دراسة) صوت الرافدين العدد ٦٢ تاريخ ١٩٨٥/١/٢٨

(٦٤) جريدة السفير اللبنانية ـ العدد ٤٣١٤ تاريخ ٣١/٩/١٩٨٦

(٦٥) صحيفة صوت الرافدين : العدد ٦٦

(٦٦) جريدة النهار اللبنانية : العدد ١٦٤٧١ تاريخ ١٣/٩/١٩٨٦ م

(٦٧) جريدة السفير اللبنانية : العدد ٤٢٥٤ تاريخ ٢٨/٣/١٩٨٦ م

(٦٨) صحيفة صوت الرافدين : العدد ٦١

(٦٩) جريدة البعث السورية : العدد ٦٤٧٣ تاريخ ١٦/٥/١٩٨٤

(٧٠) جريدة الراي العلم الاردنية : العدد ٥٣٣٩ تاريخ ٣٠/١/١٩٨٥ م

* ان الاتفاقات العسكرية بين الولايات المتحدة واليونان تنص على استخدام واشنطن لاربع قواعد عسكرية في ارجاء مختلفة من بر اليونان وبحرها مع بضع منشآت عسكرية يقوم عليها حوالي ستة آلاف عسكري اميركي مع عائلاتهم .

(٧١) الحلو زيدان : الانبعاث الاصولي في تركيا العلمانية (مقالة) جريدة السفير اللبنانية العدد ٤١١٤ تاريخ ١٣/١١/١٩٨٥ م

(٧٢) المصدر نفسه

(٧٣) المصدر نفسه

مصادر الكتاب

اولاً : الكتب العربية والاجنبية .

١ ـ بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ـ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ (الطبعة الثامنة) .

٢ ـ لاندو روم : الاسلام والعرب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٧

٣ ـ موسى سليمان : الحركة العربية ـ المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٧ (الطبعة الثانية)

٤ ـ النحال د . محمد سلامة : سياسة الانتداب البريطاني حول اراضي فلسطين العربية ـ منشورات فلسطين المحتلة (حركة فتح) ١٩٨١ (الطبعة الثانية)

٥ ـ حمادة سعيد : النظام الاقتصادي حول اراضي فلسطين العربية ـ اصدار بيروت ١٩٣٩

٦ ـ اللمع حسن سعيد : لمحات من تاريخ بلغاريا ـ دار الثقافة ـ دمشق ١٩٨١

٧ ـ عضو جمعية عربية سرية : ثورة العرب الكبرى (١٩١٦) إصدار منشورات الرائد العربي بحماه (سوريا) ١٩١٦ .

٨ ـ داغر اسعد : الثورة العربية ـ مقدماتها ، اسبابها ، نتائجها ـ مصر ـ مطبعة المقطم ١٩١٦ .

٩ ـ الاعظمي احمد عزت : القضية العربية ـ الجزء الاول ـ اصدار بغداد ١٩٢١ .

١٠ ـ طربين أحمد : الوحدة العربية في تاريخ الشرق المعاصر (١٨٠٠ ـ ١٩٥٨) دمشق ١٩٧٠ .

١١ ـ البرغوثي عمر صالح وطوطح خليل : تاريخ فلسطين ـ مطبعة القدس ١٩٢٣

١٢ ـ بونداريفسكي : سياستان ازاء العالم العربي (سلسلة الاشتراكية والعالم الثالث) دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٥

١٣ ـ موسوعة « ميدان لاروس » (مدرسة العشائر الامبراطورية) اصدار دار

المعارف التركية ـ الجزء الاول (باللغة التركية) .
١٤ ـ دروزة محمد عزت : نشأة الحركة العربية الحديثة ـ دمشق ١٩٧١ .
١٥ ـ سعيد أمين : الثورة العربية الكبرى ـ الجزء الاول ـ القاهرة .
١٦ ـ الحوت بيان نويهض : القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (١٩١٧ ـ ١٩٤٨) إصدار مؤسسة الدراسات الفلسطينية (م . ت . ف) بيروت ١٩٨١ .
١٧ ـ صايغ أنيس : يوميات هرتزل ـ مركز الابحاث (م . ت . ف) بيروت ١٩٦٨
١٨ ـ Ben Holpern- The Idea of gewish Mass- Chusettes 1961.
١٩ ـ الدباغ مصطفى : بلادنا فلسطين ـ الجزء الاول ـ دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٥
٢٠ ـ كوثراني وجيه : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠ ـ ١٩٢٠) بيروت ١٩٧٠ .
٢١ ـ الاعظمي احمد عزت : القضية العربية ـ الجزء الثالث (١٩٣١ ـ ١٩٣٤) بغداد
٢٢ ـ داغر اسعد : مذكراتي على هامش القضية العربية ـ دار القاهر للطباعة / القاهرة / ١٩٥٩ .
٢٣ ـ الدجاني حسن صدقي : تفصيل ظلامة فلسطين ـ اصدار القدس / المطبعة التجارية / ١٩٣٦ .
٢٤ ـ تودورف بروفسور نيكولاي : موجز تاريخ بلغاريا ـ اصدار دار الثقافة / دمشق / ١٩٨١ .
٢٥ ـ كالتشيف كامن : جيوجي ديمتروف / قصة كفاح ومختارات / اصدار منار برس للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٨٦
٢٦ ـ مكديرموت ميرسيا : رسول الحرية ـ اصدار دار طلاس دمشق ١٩٨٦
٢٧ ـ راجي حسين : الادب البلغاري (آراء ونماذج) منشورات دار الثقافة دمشق ١٩٨٢ .
٢٨ ـ سيمكوف ميلين : ديمتروف ومحاكمة لايبزغ ـ إصدار دار ابن خلدون بيروت ١٩٨٢ .

٢٩ ـ الشـريف عبـد الكـريم : صفحـات من كفاح الشعب البلغاري (انتفاضة ايليندينسكو) اصدار دمشق ١٩٨٢

٣٠ ـ من يعلق بشأن المسلمين في بلغاريا ولماذا ؟ إصدار صوفيا برس ١٩٨٥ .

٣١ ـ دستور جمهورية بلغاريا الشعبية : إصدار صوفيا برس ١٩٧١ (باللغة العربية)

٣٢ ـ آلان عبـد الله أوج : مختـارات « ١ » منشورات حزب العمال الكردستاني (PKK) ١٩٨٥ .

٣٣ ـ زكي بك محمـد امين : خلاصـة تاريخ الكرد وكردستان (من اقدم العصور حتى الان) إصدار لبنان ١٩٨٥

٣٤ ـ غبيب شارل روز : البحـر الابيض المتـوسط من غير الكبار ـ إصدار مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ـ دمشق ١٩٨٢ .

٣٥ ـ قواري صارب : ما معنى الثاني عشر من ايلول ؟ ـ منشورات دار الانصار ١٩٨١ .

٣٦ ـ اوغلود . يورك : تركيا حلقة ضعيفة في السلسلة الامبريالية ـ اصدار دار بن رشد ـ بيروت ١٩٧٩ .

٣٧ ـ روزالييف : قوانين التطـور الـراسمـالي في بلدان آسيا وافريقيا ـ اصدار موسكو ١٩٧٦ .

٣٨ ـ تارنـوفسكي قسطنطين : تاريـخ الاتحـاد السوفياتي في الصور ـ اصدار وكالة انباء نوفوستي ١٩٨٣ .

٣٩ ـ محـلا محمـد : قوات التـدخـل الاميركية من روزفلت الى ريغان ـ اصدار مطابع الجاحظ دمشق ١٩٨٣ .

٤٠ ـ شعبـان عبـد الحسين : الصراع الايديولوجي في العلاقات الدولية وتأثيره على العالم العربي ـ اصدار دار الحوار دمشق ١٩٨٥ .

٤١ ـ المـؤامـرة (الاوراق السـريـة لمحـاولـة اغتيال البابا) إصدار دار صبرا للدراسات والنشر ـ دمشق ١٩٨٤ .

ثانياً : الدراسات في المجلات والصحف .

١ ـ محمد عوض د . عبد العزيز : الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي (١٨٧٠ ـ ١٩١٤) مجلة شؤون فلسطينية ـ مركز الابحاث ـ العدد ٣٦ .

٢ ـ محي الدين د . جهاد محمد (جامعة البصرة) : المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا (دراسة) منشورة في كتاب ـ المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ـ الجزء الثاني ـ جامعة دمشق ـ كلية الآداب .

٣ ـ صالح جهاد : ربيع مزهر وتاريخ مكتوب بالدم ـ مجلة « نضال الشعب » العدد ٤١٤ .

٤ ـ بيتروف بروفسور بيتر (د . علم التاريخ في جامعة صوفيا) : البلغار قبل قرن ونصف ـ جريدة الجبهة الوطنية البلغارية ـ العدد ١٢٢١١ تاريخ ٢٩ آب ١٩٨٥ (باللغة البلغارية) .

٥ ـ زاغوروف اورلين : التاريخ التركي : عن سياسة التذويب للمحتل التركي (الماضي والوقت الراهن) دراسة في مجلة « الازمنة » (تصدر عن جمعية المؤرخين في بلغاريا) العدد ٦/١٩٨٥ (باللغة البلغارية)

٦ ـ طه عامر : حركة التحرر الوطنية الكردية وآفاق المستقبل ـ صحيفة صوت الرافدين العراقية ـ الصادرة في دمشق ـ الاعداد ٦٤ ـ ٦٥ .

٧ ـ طه عامر : القضية الارمنية (تتبع تاريخي) صوت الرافدين العدد ٧٤

٨ ـ العلم حنا : الارمن مسألة قديمة ـ مجلة الاسبوع العربي العدد ١١٦٣ تاريخ ٢٥/١/١٩٨٢ .

٩ ـ كالوستيان جوزف : الذكرى السبعون للمجزرة الارمنية الكبرى ـ جريدة السفير اللبنانية ـ العدد ٣٩٢٧ تاريخ ٢٤/٤/١٩٨٥ .

١٠ ـ الخالدي وسام : التركمانية لا تعني الطورانية ـ صوت الرافدين العدد ٢٦

١١ ـ بركة اقبال : انقلاب تركيا ليس مفاجئاً ـ مجلة صباح الخير ـ العدد ١٢٩١ تاريخ ٢/١١/١٩٨٠ .

١٢ ـ تادروس نهى : التواجد العسكري الاميركي في منطقة البحر المتوسط ـ مجلة شؤون فلسطينية العدد ١٠٦ ايلول ١٩٨٠ .

١٣ ـ الايـوبي المقـدم هيثم : وضـع تركيـا في مخطـط الامن الغـربي ـ مجلة الاسبوع العربي ـ العدد ١٠٩٤ تاريخ ٢٩/٩/١٩٨٠ .
١٤ ـ رعد انعام : دراسة حول قبرص ـ جريدة تشرين السورية العدد ٣٦٢٤٢ تاريخ ١٣/٧/٨٦
١٥ ـ مفتاح أحمد : معبد أفروديت المقدس وسكين الجزار التركي ـ جريدة ١٤ اكتوبر اليمنية ـ العدد ٦٨٢١ تاريخ يوليو ١٩٨٦ .
١٦ ـ باباتروس جورج : هل تستطيع الفاشية التجلي باشكالها المعروفة ؟ مجلة النهج ـ العدد ٩ تاريخ آب ١٩٨٥ .
١٧ ـ اوليمبـوس ميشـال : النضـال ضد التسلح النووي ـ مجلة النهج العدد ٩ العدد اب ١٩٨٥ .
١٨ ـ بابيـل نصـوح : سوريـا في القـرن العشـرين ـ مجلة الشـرق الاوسـط السعودية تاريخ ١٠/٧/١٩٨٥ .
١٩ ـ السماوي هاشم : الفعل ورد الفعل على طريقة بابا ندريو ـ صوت الرافدين العدد ٦٢ تاريخ ٢٨/١/١٩٨٥م .
٢٠ ـ الحلوزيـدان ، الانبعـاث الاصـولي في تركيـا العلمـانية ـ جريدة السفير اللبنانية العدد ٤١١٤ تاريخ ٢/١١/١٩٨٥ م

ثالثا : المقالات والاخبار في المجلات والصحف (التي لم يذكر اسم الكاتب فيها) مدونة في هوامش الصفحات.

الفهرس

	صفحة
● **المقدمة**	
● **القسم الاول : العثمانيون ، مقومات الدولة ومقومات الانهيار**	**٩**
ـ أصل الاتراك وتطور حياتهم	١١
ـ مقومات الدولة العثمانية	١٢
ـ سياسة الاراضي	١٥
ـ سياسة الضرائب	١٨
ـ ايدولوجية الدولة : من الاسلام الى الطورانية	٢١
ـ سياسة التتريك العنصرية	٢٧
ـ الاتحاديون الطورانيون والنهاية الحتمية	٣١
● **القسم الثاني : العرب تحت نير الاحتلال العثماني**	**٣٩**
ـ العرب تحت نير الاحتلال	٤١
ـ نظرة الاتراك الى العرب	٤٢
ـ العرب في مواجهة سياسة التتريك	٤٧
ـ سياسة الطورانية ضد العرب	٤٩
ـ الدولة العثمانية والحركة الصهيونية	٥٣
ـ النهضة القومية العربية في مواجهة العنصرية التركية	٥٨
● **القسم الثالث : بلغاريا من الاحتلال العثماني الى الاشتراكية**	**٦٩**
ـ البلقان تحت نير الاحتلال العثماني	٧١
ـ النهضة القومية البلغارية	٧٧

- بلغاريا والمصالح الامبريالية ٨١
- نضال الشعب البلغاري في تركيا الاوروبية ٨٦
- من هم المسلمون في بلغاريا ٨٧
- المسلمون البلغار في عهدي الحكومات البورجوازية والفاشية ٩٤
- الحياة الداخلية للمسلمين البلغار في ظل الاشتراكية ٩٧
- المسلمون البلغار : والعلاقات البغارية التركية ١٠٢

● القسم الرابع : قضايا الاقليات القومية في الدولة التركية ١١١

- القضية الكرديه ١١٣
- القضية الارمنية ١٢١
- القضية التركمانية ١٢٧

● القسم الخامس : تركيا من التحديث الى الفاشية ١٣٣

- وجهان متناقضان ١٣٥
- الانقلاب العسكري الفاشي ١٥١
- الجنرالات والديمقراطية المزيفة ١٥٦

● القسم السادس : الدور التركي في السياسة الامبريالية الاميركية ١٦٧

- السياسة الخارجية الاميركية ومبدأ الاحلاف ١٦٩
- تطور الدور التركي في السياسة الاميركية ١٧٧
- القواعد العسكرية الاميركية في تركيا ١٨٠
- الدور التركي الامبريالي في قضية تقسيم قبرص ١٨٤
- السيناريو الاميركي لتدمير استقلال قبرص ١٨٨
- الدور التركي تجاه الامة العربية ١٩٢
- الحملة الدعائية ضد جمهورية بلغاريا الشعبية ٢٠٠
- التأثير على التوجهات التقدمية في اليونان ٢٠٦
- التيارات الاسلامية التركية بين الاصولية والتوظيف الدعائي ٢١٠

● مصادر الكتاب ٢١٩

هذا الكتاب

في تتبعنا لمسيرة تطور « الطورانية » منذ المجتمع العثماني ، الى اليوم ، نجد انها بقيت متأصلة في اعماق البورجوازية الكبيرة في المجتمع التركي ... فالبنى الاجتماعية لا يمكن ان تكون معلقة في الهواء ، انما هي بالضرورة مرتبطة بالظروف الداخلية التي نشأت فيها ، وبالدوافع الداخلية والخارجية التي ساهمت في تبلورها ، بغض النظر عن المظاهر الشكلية التي تحاول ان تغلف نفسها بها .

فالطورانية ، كحركة عنصرية ، قد حملت معها ـ وما زالت ـ الويلات والآلام التي وقعت على الشعوب التي خضعت للاحتلال العثماني ، وللقوميات التي ما زالت تحت حكم النظام التركي . منذ ثورة « تركيا الفتاة » وحتى النظام الفاشي الحالي .

وفي هذا الكتاب ، نحاول أن نلقي الضوء على هذه الحركة العنصرية ، نشأتها وتطورها ، وانعكاساتها على محيطها الاقليمي ، خاصة وانها أصبحت مرتبطة عضويا بأهداف السياسة الامبريالية الاميركية ، منذ انضمام تركيا الى حلف شمال الاطلسي .

وهكذا نجد أنفسنا ، أمام حركة عنصرية قديمة حديثة ، شبيهة تماما بالحركة الصهيونية ، انطلقت على قاعدة التعصب القومي للحفاظ على بقائها ، لكنها انتهت كتابعة ، تقوم بتنفيذ دور محدد في السياسة الامبريالية على الصعيد الاقليمي .